نهال تجدّد

جواز سفر
على الطريقة الإيرانية

ترجمة: خالد الجبيلي

مكتبة 204

منشورات الجمل

رواية

نهال تجدّد، جواز سفر على الطريقة الإيرانية، رواية

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ولدت **نهال تجدّد** في طهران عام ١٩٦٠، وهي تعيش في فرنسا منذ عام ١٩٧٧. ودرست تجدّد التي لُقِّنَت أصول الصوفية منذ طفولتها، في المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية المعروف، حيث أجرت بحوثاً في النصوص المانوية وماني، نور بوذا، وحازت على الدكتوراه باللغة الصينية. وقد اشتهرت تجدّد بترجمتها لأشعار الرومي إلى اللغة الفرنسية، وهي تعمل كذلك باحثة في مركز البحوث الوطنية الفرنسي، وأصدرت عدة أعمال عن التاريخ. وهي تعيش في فرنسا مع زوجها، كاتب السيناريو والناقد السينمائي، جان كلود كاريير. صدر لها عن منشورات الجمل: **الرومي: نار العشق**، رواية (٢٠١٥).

نهال تجدّد: **الرومي: نار العشق**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: خالد الجبيلي
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٧
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Nahal Tajadod: *Passeport à l'iranienne*
© 2007, éditions Jean-Claude Lattès

© *Al-Kamel Verlag* 2017
Postfach 1127 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

نهال تجدّد

جواز سفر
على الطريقة الإيرانية

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

منشورات الجمل

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

السبت

ولدت ونشأت في هذه المدينة، طهران التي أعرفها والتي يوجد لديّ فيها أصدقاء. بعد فترة وجيزة، عليّ أن أعود إلى باريس التي أقيم فيها. بطاقة العودة على الخطوط الجوية الإيرانية جاهزة. يعتريني شيء من القلق، لا شيء مهم حقاً: عليّ أن أجدد جواز سفري الإيراني.

إني معتادة على ذلك. وبما أن تجديد جواز السفر لا يستغرق عادة أكثر من ثلاثة أيام ، فلا يزال أمامي عشرة أيام، وهي فترة أكثر من كافية.

من بين الأشياء التي يجب أن أحصل عليها من أجل تجديد جواز سفري: صور هوية وفق الطريقة الإسلامية: أي يجب ألّا تظهر خصلة شعر واحدة من تحت غطاء الرأس، وألّا تبدو على الوجه أيّة مسحة مكياج، وألّا تظهر في الصورة أيّة ابتسامة. باختصار، يجب أن تكون صورة تحدّق فيها المرأة في عدسة الكاميرا مباشرة، مع أنه لا يسمح لها، في حياتها اليومية، أن تنظر في عيون الرجال مباشرة.

ولتجميع صورة كهذه - وهي حقاً عبارة عن تجميع، وليست مجرد لقطة -عليّ أن أجد مصوراً محترفاً، لأنهم معتادون على ذلك: فلديهم مجموعة من الإيشاربات وأغطية الرأس البسيطة السميكة،

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ومزيلات مجمّل الرموش وأحمر الشفاه، ولديهم أيضاً معطف طويل بياقة تزرّر حتى أعلى الرقبة. بمعنى آخر، تتوفر لديهم جميع المعدات اللازمة لتحويل امرأة عادية، مهما بلغ طول شعرها، ومهما بلغت درجة تبرّجها، وسواء أكانت ترتدي فستاناً موشّى بنقوش، أم بنطلون جينز وقميصاً بردنين قصيرين، إلى امرأة ترتدي الزيّ الإسلامي المفروض.

لقد دُرست الطريقة التي يجب أن تبدو فيها المرأة الإسلامية بعناية شديدة، ولها أهداف محددة: إذ يمثّل الحجاب الذي يغطّي رأسها دماء الشهداء التي أريقت في الحرب العراقية - الإيرانية (أكثر من مليون قتيل من الجانب الإيراني)، وتدلّ الأزرار المزررة بإحكام حتى أعلى ياقتها التي تضغط على حنجرتها بقوة وتكاد تخنقها على أن شرف زوجها أو شقيقها مصان لأن هذه الأزرار تكفل أنه لن يتمكن أحد من رؤية لحمها الأنثوي.

قبل أن أتوجّه إلى أي أستوديو تصوير - هناك أستوديوهان بالقرب من بيتي - عليّ أن أتّخذ بعض الإجراءات الوقائية: ألّا أصبغ شفتيّ بأحمر الشفاه، فقد لا أجد مزيلاً له عند المصور، وأن أختار غطاء رأس أسود، وأن أرتدي بلوزة غير مكوية بياقة عالية كنت قد اشتريتها من محلات *بليتس* في باريس لأنها لا تكشف، بل حتى لا تعطي أي إيحاء أو لمحة عن أي استدارة في جسدي، وتغطي كذلك الصدر تحت قماش البوليستر المثني في طيات. وفي إيران لم تسمع إلا قلة قليلة من الناس عن المصمم إيسي مياك، ويجب أن أغطي البلوزة بقطعة من الثياب الفضفاضة التي صممها والتي لا يمكن أن تخدع أدنى خبير في الثياب على ما قد تثيره من تساؤلات عديدة.

وعلى الرغم من ذلك، فقد قرّرت أن أضع مسحة من العطر.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ألقيت نظرة على منضدة الزينة، واخترت عطر «سانتا ماريا نوفيلا روز». لعلي كنت في سريرتي أتمنّى، من خلال عطري وأناقة بلوزتي، أن أقدر على إفساد طريقة اللباس الإسلامية هذه بشيء من الأنوثة، وذلك بوضع لمسات خفيفة لا يمكن تبيّنها مستجلبة من اليابان وفلورنسا.

خرجتُ إلى الشارع، وبعد دقائق من السير المتردد على الأرصفة المليئة بالحفر التي تتخللها كابلات الكهرباء، رأيت الأستوديوهين اللذين يقع أحدهما بالقرب من الآخر. كان اسم أحدهما *المهدي*، وهو اسم الإمام المخفي، الذي اختفى منذ عهد قديم جداً في بئر، والذي ينتظر المتعصبون الشيعة عودته بترقب وبفارغ الصبر منذ اثني عشر قرناً.

أما الأستوديو الآخر، فهو يدعى *إكباتانا*، وهو اسم العاصمة القديمة لملوك الدولة الأخمينية الذين بنوا بيرسيبوليس. وهكذا وقع اختياري على الأستوديو الثاني. قبل الثورة الإسلامية لم أكن أبالي بالدخول إلى أيّ منهما، بل لعلي كنت سأختار الأول تقديراً لأحد أبناء عمي الذي اسمه مهدي، لكني اخترت الآن اسم أعظم دولة في العصر القديم كانت تمثّل الأيام الذهبية لبلاد فارس.

وقفت أمام واجهة أستوديو إكباتانا، ورحت أقرأ الكلمات المدوّنة على زجاج الواجهة: *مستعدون لتصوير جميع مناسباتكم الخاصة*. على الفور تذكرت شخصاً أعرفه، ابن أحد الأشخاص المتملقين الحديثي النعمة من شمال إيران. فقد طلب هذا الشاب من أحد المخرجين المحترفين أن يصوّر موكب جنازة والده لكي يشاهده جميع أفراد العائلة. وبعد مرور سنة على وفاة الأب، استأجر الشاب اليتيم الثري شاشة عملاقة ونصبها في حديقة بيت الأسرة الكبير،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وعرض الفيلم بعد إدخال بعض التعديلات عليه مصحوباً بموسيقى تصويرية من معزوفة «*من أجل إليزة*» لبيتهوفن.

ثياب سود، زنابق سود، سجاد أسود يكسو الجدران: كان كل ذلك يبدو نقيض حفل عرس، لا لأن الشابّ كان حزيناً جداً على والده في ذكرى وفاته، بل لأنه كان يريد أن يتباهى بثروته. ولهذا السبب قرر أن يعرض على الشاشة الكبيرة مراسم جنازة الرجل الذي ورث منه كل هذه الثروة: والده.

عندما ألقيتُ نظرة على الصور المعلقة في واجهة المحل الزجاجية، رأيت صورة جانبية لعريس، شعره يلمع وممشّط إلى الوراء، حاجباه منتوفان، وأنفه مشمور إلى الأعلى على طريقة براد بيت، ويحمل بيده ذات الأظافر المشذّبة المطلية بمسحة من طلاء الأظافر، باقة من الورود البيضاء، ويمدّها نحو عروس غير ظاهرة. فكما تعرفون، فإن القانون الحالي يحرّم عرض صور نساء في أيّ مكان، لذلك، لم تكن تلك الورود ممدودة إلى شخص بعينه.

أما الصورة المعلقة إلى جانبها، فتُظهر عريساً آخر يفتح باب سيارة مرسيدس مزدانة بالزهور وبالأشرطة الملونة، وتكشف صورة ظليلة تجعلني أفترض أنها صورة العروس، مع أن كلّ ما يمكنني تبيّنه هو قدماها اللتان لا تكادان تلمسان الأرض، وهما محشورتان في حذاء ضيّق بكعب طويل مدبب. أمضيت لحظات طويلة وأنا أجيل النظر في هذه الصورة التي أرى أنها هدامة بعض الشيء. إذ تحظر الهيئات الدينية أن تنتعل النساء أحذية بكعب عال، لأن النقرات التي يحدثها كعب الحذاء الذي تنتعله المرأة وهي تمشي قد تُضرم نار الشهوة في نفس المسلم التقي، لذلك، فإن هذه الأحذية تُعتبر من المثيرات المشينة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لوهلة، أتخيّل شارع المال في نيويورك «وول ستريت» الذي تسير فيه مئات النساء اللاتي يسرن بأحذيتهن في جميع الاتجاهات وهن لا يدركن أنهن يطلقن العنان لشهوات الرجال السماسرة الذين يعملون في سوق الأوراق المالية في نيويورك فيزداد انتصابهم أكثر مما يمكن أن تفعله حبوب الفياغرا بكثير. لا أستطيع أن أبعد عينيّ عن هذا الحذاء المصنوع من الساتان الخارج من سيارة المرسيدس، وهو الدليل الوحيد على وجود امرأة في الجانب الآخر. كما ذكّرني بحذاء لا أذكر إن كنت قد اشتريته أم أنه قدم لي هدية، لكنني لم أنتعله قط لأنه ضيّق جداً. لا بد أن هذا الحذاء الصغير جداً قد قُدِّم هدية للعروس غير الظاهرة في الصورة، ربما من شقيقة الرجل الذي سيصبح زوجها، التي عادت للتو من رحلة تسوق في دبي أو في مكان آخر.

آه، دبي والطبقة الإيرانية المتوسطة. ففي السنوات الخمس عشرة الماضية، كان كلّ ما يحلم به الإيرانيون هو قضاء عطلة نهاية أسبوع طويلة (من مساء الأربعاء حتى مساء الجمعة) في الجنة التي تنتصب فيها بنايات إسمنتية شاهقة، دبي. فالذهاب إليها لا يتطلّب إجراءات طويلة ومعقدة في القنصلية للحصول على تأشيرة، ولا يحتاج إلى إجادة اللغة السويدية أو الألمانية أو الإنكليزية. ومعظم المحلات في دبي يديرها أشخاص من بني جلدتهم هربوا من النظام الإسلامي، ويمكنك أن تسمع اللغة الفارسية في كل مكان فيها، وحتى إذا اضطررت إلى استخدام اللغة العربية، فما عليك إلّا أن تستنجد بالعبارات التي تردد في الصلوات الإسلامية اليومية. فقد تساعدك مثلاً عبارة *الله أكبر* على إبداء الدهشة من عظمة بناء شاهق، مثل برج العرب؛ ويمكنك أن تقول *الحمد لله* بحرية تامة للتعبير عن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الامتنان، *والصراط المستقيم* للإشارة إلى الطريق المستوي لسائق التاكسي، وما إلى ذلك. وتشكل هذه العبارات الإسلامية أكبر عون للسيّاح الإيرانيين.

أما الذين يصبحون أغنياء في طهران، فإنهم ينفقون أموالهم بسخاء على شواطئ دبي: فتراهم يرتدون ثياب السباحة، يحملون في يدهم كأساً من الويسكي، وخلفهم أفق تغطيه بنايات عالية. وهنا، تستطيع زوجاتهم المحظوظات الخروج حاسرات الرؤوس بدون غطاء أو حجاب إسلامي، يعرّضن شعرهن الأشقر المستعار للهواء، ويسلّمنه إلى نزوات الرياح، رياح الصحراء العربية الحارة، بل تراهن يتجولن في ردهات الفنادق الكبيرة يرتدين بناطيل قصيرة وقمصاناً رقيقة شفافة، ويجلبن هدايا لقريباتهن اللاتي لم يتح لهن القدر مثل هذه الرحلة، أو للعرائس المقبلات: أحذية تكون ضيقة جداً على الدوام.

هنا أترك الحذاء العالي المدبب الذي تنتعله العروس اللا مرئية، والذي أعادني إلى دبي، لكن دون أن يخطر ببالي ولو بصورة عابرة ولع الأوروبيات بالأحذية، وقدم كاثرين دينيوف التي تنتعل حذاء جلْدياً، يُلبسها إياه روجر فيفييه وهي ترتقي بصمت الدرجات في المبغى لأول مرة، في فيلم *Belle de jour*.

وعلى الجانب الآخر من الواجهة الزجاجية للمحل، رأيت صورة فتاة صغيرة لا تتجاوز السادسة أو السابعة من عمرها، لكن من المؤكد أنها لم تبلغ التسع سنوات - سنّ البلوغ عند الفتيات - وهي تنفخ بفمها باتجاه شمعة مثبتة على قالب حلوى عيد ميلاد قُسِّم إلى أربع قطع، كتب على كلّ قطعة حرف من كلمة *Love*. والطفلة التي تبدو في الصورة متبرجة أكثر فتيات فرقة غناء في ملهى الطاحونة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الحمراء. إن الترتر اللامع الذي يحيط بعينيها، والمسحوق الفضي الذي يملأ شعرها، وطلاء أظافرها الأحمر، يجعل القشعريرة تسري في جسدي. وبشفتيها المزمومتين وهي تقلّد إطفاء الشمعة (بتشجيع من أمّها. لا بدّ أنها دُرِّبت على هذه الحركة أكثر من عشر مرات لالتقاط هذه الصورة) تستطيع أن تعلّم أكثر ممثلات الأفلام الإباحية شيئاً أو شيئين عن الرغبة المتصنّعة والشهوة الزائفة. وبعرضها بهذه الصورة، قبل أن تبلغ السن الذي تُجبر فيه على ارتداء الحجاب، لا بد أن أمّها تنقل أحلامها المحبطة إلى ابنتها.

يلوّح لي المصور من الداخل بأن أدخل، ويقول: *بيرفاماين*، *بيرفاماين*، تفضلي، تفضلي.

دخلت. وكما هو الحال في جميع الأماكن، تتصدر المكان صور آية الله الخميني والمرشد الأعلى الحالي آية الله الخامنئي. عندما قلت له إنني جئت للحصول على صور من أجل جواز سفر، قال لي الشاب إن زميله مشغول الآن بتصوير أحد وسيعود بعد لحظات. أفهم من ذلك بأنه لن يعود إلّا بعد أكثر من ساعة على الأقل، فندمت لأنني اخترت استوديو إكباتانا، ولم أذهب إلى استوديو المهدي. حاولت أن أخرج متذرعة بأنني سأذهب خلال هذه الفترة إلى محل لتصليح الأدوات الكهربائية لإصلاح مجفف الشعر الذي أحمله في سلة كنت قد اشتريتها من إيغوس-مورتيس بفرنسا.

«هل مجفف الشعر معطّل؟» سألني، مستخدماً الصيغة غير الرسمية في التخاطب التي يبدو أن الجميع قد بدؤوا يستخدمونها منذ قيام الجمهورية الإسلامية.

«نعم».

«وكيف حدث ذلك؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فأجبته على الفور وبلا تفكير، «عندما بدأت أجفف شعري بعد أن استحممت مساء البارحة، توقّف عن العمل فجأة. هذا كل ما في الأمر».

«هل هو معك؟»

«مجفف الشعر؟ نعم».

«هل يمكنني أن أراه؟»

«طبعاً؟»

فتحتُ سلتي الفرنسية. أخذ المجفف وأمسكه بيديه المكتنزتين، ألقى عليه نظرة سريعة، ثم تناول مفكّاً من درج خزانة في الغرفة التي تستخدم مخزناً وهاجم فريسته في الحال. كان قصيراً، مربوع القامة، يكاد رأسه يخلو من الشعر، يتراوح عمره بين ثلاثين وخمس وثلاثين سنة، ويلتف حول رقبته سلسال ذهبي. أدركت الآن أنه قد فات الأوان. لم يكن عليّ أن آتي إلى هنا، لأنني لن أخرج قبل عدة ساعات. نثر الرجل القصير أحشاء مجفف الشعر «بابيليسي ٢٣٠٠» أمامي بدقة متناهية.

قال: «لا تقلقي، فلن يأخذ مني أكثر من خمس دقائق».

لماذا لم أختر أستوديو المهدي؟ لا بد أنهم لن يخاطبوني بالطريقة غير الرسمية هذه، ولن يقوم أحدهم بتشريح مجفف الشعر لإضاعة الوقت، ويجعلني أنتظر المصور وأنا مشدودة الأعصاب.

عندما قررت أن أغادر، وكنت على استعداد للتخلّي عن مجفف الشعر، فُتح الباب بقوة، ودخل المصور المنتظر. كان يميل إلى الجانب الأكثر وسامة: شعره كثيف تتدلى خصلات منه حول وجهه. قلت له وعيناي لا تزالان مثبتتين على مجفف الشعر الذي تناثرت مكوناته: لقد جئت إلى هنا من أجل صورة لجواز السفر.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فقال: «جيد. تفضلي من هنا».

استخدم كلتا يديه لإزاحة خصلة شعره إلى الوراء، وأومأ إليّ باتجاه زاوية مظلمة. رأيت على الجدار معاطف إسلامية متنوعة، وعلى إحدى الطاولات لاحظت عدة أغطية رأس وزجاجات للمكياج وأخرى لإزالة المكياج. قال المصور إن مجمّلات الرموش وفراشي الشعر ومسحوق أحمر الخدود مخصصة للزبونات الإيرانيات اللاتي يرغبن في تقديم صورهن للقنصليات الأجنبية، أو اللاتي يعشن في أوروبا أو في أميركا، لأنهن يستفدن كثيراً من الأسعار الزهيدة في إيران للحصول على مجموعة كاملة من الصور لتقديمها إلى الجامعات الأجنبية ودوائر الشرطة أو أي جهة أخرى تحتاج إليها.

ثم أشار المصور إلى معطف بني فاتح اللون، ونصحني بارتدائه لأن البلوزة التي أرتديها تبدو في عينيه مجعّدة كثيراً. لم أشأ أن أنافشه عن ثنيات إيسي مياك الشهيرة، ونفذت ما طلبه مني. عندما ارتديت المعطف، حاولت أن أحبس أنفاسي كي لا أشمّ الرائحة الكامنة فيه، رائحة نبات *شنبليلة*، العشبة التي لا تنمو إلّا في إيران، وعندما تُستخدم في الطهي، فإن رائحتها تظل عالقة في جسم الشخص الذي تناولها لعدة أيام مهما استحمّ. إن نصف إيران غارقة في هذه الرائحة، ونصفها الآخر غارق في رائحة البنزين.

منذ أن كنت طفلة صغيرة، لم أكن أتحمّل رائحة *الشنبليلة*. *ارتديت* المعطف، وكما كنت أخشى، شممت رائحة هذه النبتة التعيسة. ألقيت بالمعطف على الكرسي وقلت للمصور لا أظن أن بلوزتي المكشكشة ستزعج سلطات وزارة الداخلية، وإنني أفضّل أن أتصور بها، وأن بإمكانه أن يجهّز كاميرته.

فقال: «حسناً».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

قادني إلى غرفة الأستوديو. عدّل ارتفاع المقعد. وقف وراء الكاميرا، ثم عاد. وبإصبع تفوح منها رائحة السجائر، فرك شفتي لإزالة ما تبقى من آثار أحمر الشفاه الخفيفة، وشدّ سحاب بلوزتي إلى الأعلى، ثمّ ثبّت ذقني، ومرّر يده تحت غطاء شعري ليخفي خصلة شعر أفلتت من مكانها. ما هو حكم طبيب الدين يا ترى إذا واجهته حالة كهذه: امرأة مع رجل غريب في غرفة مظلمة، تدعه يلمس شفتيها ورقبتها وذقنها وشعرها دون أن تنبس ببنت شفة؟

«جهنم في العالم الآخر، وسجن في هذا العالم» ستجيب الروح العارفة.

فتح المصور الباب المفضي إلى غرفة تغيير الملابس. قال إنه لا يتحمّل العطر الذي أضعه برائحة الورد لأنه يذكّره بالمساجد والمقابر. فكّرت بآلاف الساعات التي يمضيها الرهبان والراهبات في أوفيسينا دي سانتا ماريا نوفيلا في فلورنسا، لينتهي الأمر بمصورنا هذا بأن يشبّه رائحة العطر الذي أمضوا سنوات طويلة في تحضيره برائحة المقابر الإسلامية. باءت جميع جهودي بالفشل، فلم تنجح البلوزة ذات الثنيات، ورائحة عطر سانتا ماريا نوفيلا روز، ولا حتى حذائي ماركة دريسي فان نوتين، في إثارة إعجاب المصور. رحت أحدّق في عدسة الكاميرا وأنا حابسة أنفاسي كي لا أشمّ. التقط الصورة.

عندما كنت أهمّ بمغادرة الأستوديو، كان مجفف الشعر لا يزال مفكّكاً إلى قطع متناثرة على المنضدة. وأكد لي الشاب الأصغر حجماً: أن بإمكاني أن أعود مساء اليوم لأخذ الصور ومجفف الشعر، وأن كلّ شيء سيكون جاهزاً.

فجأة رنّ هاتفي الخليوي. مخابرة من باريس. أجبت بالفرنسية.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الآن ولأول مرة، أثرت اهتمامهما. فتوقفّا فجأة عن مخاطبتي بالأسلوب غير الرسمي. وبعد لحظات سادها الصمت، قدّم لي البائع والمصور، حسن ومراد (كان أحدهما ينادي الآخر هكذا)، كرسياً وكوباً من الشاي. أردت أن أسدد لهما المبلغ وأغادر المكان بسرعة، لكنّهما أصرّا على ألّا يأخذا شيئاً مني. في النهاية، أفضى لي الرجلان بأمنيتيهما: فقط كلّ ما يرغبان أن يفعلاه هو أن يسافرا إلى أي بلد آخر - مهما كان - في أوروبا، ولكي يفعلا ذلك، عليهما ملء استمارة للحصول على تأشيرة شينغين. فتح حسن حقيبته وأعطاني استمارتين مطبوعتين باللغة السويدية. قلت لهما إني لا أعرف السويدية، ولا يمكنني قراءة وملء الاستمارة.

فأجابا بصوت واحد: «إذاً املئيها بالفرنسية، لا يهمّ».

أمسكت قلمي ورحت أملأ الفراغات المتعلقة باسميهما. سألتهما عن تاريخ ولادتيهما وفق التقويم الميلادي. مرّر مراد يديه في شعره الطويل بطريقة تدلّ على أنه معتاد على ذلك، وقال إنه لا يعرف تاريخ ميلاده وفق التقويم الميلادي، وكذلك حسن. جوازا سفرهما ليسا موجودين معهما الآن، فقالا إنهما سيحضرانهما إلى بيتي مساء اليوم عندما يجلبان لي الصور ومجفف الشعر.

فقلت لهما: «يجب أن أخرج مع زوجي هذا المساء».

أحسست أنهما لم يكترثا للذريعة التي تذرعت بها وقالا إنهما سيضعان المغلف عند أحد الجيران أو عند المشرف على البناية.

«يمكنك أن تحضري الاستمارتين غداً صباحاً وتزلقيهما من تحت باب الأستوديو، في الوقت الذي ترينه مناسباً».

أحسست بالاطمئنان. فلن يتعين عليّ أن أراهما مرة أخرى. وافقت وأخذت الاستمارتين.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«كم أدين لكما؟» سألتهما في النهاية، وأنا أحمل محفظتي بيدي.

تشاورا، ثم رفضا أن يأخذا مني شيئاً سواء لقاء الصور أم لقاء تصليح مجفف الشعر الذي كانت قطعه لا تزال متناثرة على المنضدة. ألححت عليهما، لكنهما أصرّا على رفض أن يأخذا مني شيئاً:

«لا، لا، إنك لا تدينين لنا بشيء».مكتبة الرمحي أحمد

ألححت، لكن من دون جدوى. في النهاية، رضخت لهما. أعرف أن هناك حدوداً، حتى *للتاروف* الإيرانية «المجاملات». تصنّع رفض الأشياء التي ترغب فيها من باب التأدّب والتهذيب: فعندما يدعوك أحد مثلاً في حفل عشاء إلى تناول المزيد من الطعام، وأنت ترغب باستماتة في ذلك، يجب أن تتمنع وتقول لا، لا شكراً، عدة مرات، ثم تقبل. أعرف أنني يجب ألّا أصرّ عليهما أكثر، وأن المصورين مخلصان «بطريقتهما» في رفضهما. إنها جزء من تربيتهما وعاداتهما.

«لماذا تريدان مغادرة إيران؟» سألتهما قبل أن أودعهما.

مرة أخرى، أزاح مراد خصلة شعره عن جبينه بكلتا يديه، ثمّ رمقني بعينيه السوداوين ورموشه الطويلة، وقال دون أن يرفع صوته: «إن إيران قفص».

من دون أن أجيب، أغلقت باب المحل ورائي ومضيت.

عندما عدت إلى البيت، فتحت دفتر يومياتي وشطبت باعتزاز شديد بندي «الحصول على صور لجواز السفر» و «تصليح مجفف الشعر»، لكني تساءلت هل تم ذلك حقاً. فحتى الآن، لم أحصل على الصور، ولم أصلح مجفف الشعر. بعد قليل، اتصل بي مشرف البناية من الهاتف المرئي، وهو جهاز، مثل البناية، يعود إلى أواخر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سبعينيات القرن الماضي. ففي ذلك الحين، كان وجود هاتف مرئي في شقّة ما يدلّ على رقي ساكنيها ومواكبتهم للعصر، لكنك لا تستطيع الآن الحصول على قطع تبديل لهذا الجهاز من أي مكان، سواء من إيران أم من فرنسا. وإذا أتاح لك سوء الحظ فرصة النظر إلى الصورة البادية على الشاشة، فإنك سترى شكلاً مخيفاً مستطيلاً وشاحباً باللونين الأبيض والأسود، من ذلك النوع الذي يمكن أن يلهم الفنانين المتخصصين بالتجميل في أفلام الخيال عند رؤيتها.

بالرغم من ذلك، فقد ميّزت شيئاً على الشاشة الصغيرة: فقد رأيت خطاً أفقياً أسود يشطر الصورة المشوهة إلى قسمين. إنه المشرف على البناية. ومثل جميع الأكراد، فله شارب ستاليني كثّ، وهذا كلّ ما ميّزته منه على الشاشة. وقال إنه سيصعد إلى شقتي ليسلمني مغلفاً تركه شخصان عنده.

كان السيد إسكندري، المشرف على عمارتنا، قد فقد أيّ صلة بابنه الذي ذهب إلى السويد للدراسة أو للعمل في استكهولم، لكنه التحق بمنظمة مجاهدي الشعب، فرع السويد، وهي حركة مقاومة مسلّحة، ولم يسمع منه أي خبر بعد ذلك. ماذا حلّ به؟ لا أحد يعرف. وكان السيد إسكندري قد طلب من جميع سكان البناية الذين يذهبون إلى السويد أن يبحثوا عن اسم ابنه في دليل الهاتف هناك.

ويرى السيد إسكندري، ربما لسبب وجيه، أن زعماء الحركة كانوا يكرهون ابنه فقتلوه. ويعزّي نفسه باختفاء ابنه بأن مئات آلاف الشباب قُتلوا أيضاً على الجبهة الإيرانية العراقية، لكن ذلك لم يكن يوقف عينيه عن البريق بضوء خاص كلما سمع أن أحداً سيسافر إلى السويد.

دقّ الجرس: باب بيتي مفتوح باستمرار. في الواقع، لا أستطيع

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إغلاقه لأنني لا أزال أتخيّل نفسي في بيتنا القديم الذي يُفتح فيه باب البيت على حديقة. دخل السيد إسكندري وأعطاني المغلف. ولاحظت أنه كان مشرقاً بنفس الأمل العنيد الذي ينعشه كلما سمع أن أحداً سيسافر إلى السويد. وعدته بأن أطلب من الشابين المصورين أن يبذلا كلّ ما بوسعهما للبحث عن ابنه المفقود بعد حصولهما على التأشيرة: دسّ يده في جيبه وأخرج قصاصة مهترئة مجعدة مطوية إلى أربع ثنيات. نفس الورقة التي يخرجها ويريها لأي شخص سيسافر إلى إستكهولم. وعندما لامست أصابعه النحيفة المستدقة سلسلة الأرقام التي كادت تمحى مع مرور الزمن، قال إن بإمكانهما أن يتصلا بهذا الرقم. دوّنته -كما كنت أفعل سابقاً - وطمأنته بقدر ما بوسعي، مستشهدة بالآية التي تقول إن يوسف بن يعقوب عاد إلى كنعان بعد سنوات طويلة من الغياب.

كنا نعرف كلانا أن ابنه ميت.

عاد السيد إسكندري إلى الطابق الأرضي. ومثل جميع الأكراد، فهو يسير منتصب القامة، بقدر من الكبرياء، لا كما يمشي الإيرانيون. توجد لأمّي أصول كردية، وعلى الرغم من صغر بنيتها، فقد كانت تحلّق في الهواء مثل عملاق.

عندما فتحت المغلف، هبّت عليّ مرة أخرى رائحة الشنبلية. وجدت داخل المغلف مجفف الشعر الذي جُمعت قطعه وعاد كما كان. هرعت إلى الحمّام، ووضعته في قابس الكهرباء. إنه يعمل. عدت إلى المغلف لأجد فيه صوري التي أدخلا عليها بعض التعديلات الجميلة، لا بل الرائعة. لقد أصبحت أبدو أصغر سناً بعشر سنوات. فقد أصبح حاجباي اللذان لم أزججهما قط، مقوّسين على نحو جميل، وزالت التجاعيد التي ترتسم على وجهي، واختفى

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

البروز في أنفي أيضاً. أرجو أن يقبل الموظفون في وزارة الداخلية هذه الصورة التي لا تشبهني تماماً.

رحت أقلّب صفحات جوازيْ سفرهما. من الواضح أنهما زارا سوريا التي أصبح الإيرانيون يحجون إليها لزيارة ضريح أخت أحد الأئمة الشيعة التي نسيت اسمها الآن. لم يكن أحد يذهب إلى سوريا قبل الثورة، لكن بعد أن تدنت قيمة العملة، وبرزت مشاكل الحصول على تأشيرات إلى الدول الأخرى، وعملية تحويل البلد إلى بلد إسلامي، أصبحت سوريا وجهة الزيارة المفضّلة للمؤمنين الإيرانيين بعد مكة المكرمة التي يحجّ إليها جميع المسلمين، وكربلاء في العراق حيث يوجد مرقد الإمام الحسين، حفيد النبي.

قبل الثورة، كان الأغنياء يذهبون إلى سويسرا، والأقل غنى يذهبون إلى الولايات المتحدة، أما الطبقة الأقل من الوسطى التي تعرف باسم «أهل البازار»، مثل بائعي الأحذية، فلم يسافروا إلى أي مكان. أما الآن، فقد أصبحت حافلات مليئة بالزوار تذهب إلى سوريا. لقد ذهبت المرأة التي تقوم على رعاية بيتي، موهتارام مع زوجها هاشم إلى سوريا. وعندما عادا، كان كلّ ما تحدّثا عنه هو السرير الواسع الذي ناما عليه لأول مرة في حياتهما. فقد كانا ينامان في غرفة خصصتها لهما في شقّتي، وبما أن السرير الوحيد الموجود في الغرفة كان محجوزاً للزوجة، فقد كان الزوج ينام على أرضية الغرفة العارية. إن الشرف مصان، على الأقل تحت سقف بيتي.

سرير واسع بالقرب من ضريح أخت أحد الأئمة الشيعة. يا لها من مغامرة!

ملأتُ استمارتي الشابين المصورين بدقة شديدة، وتركتُ مكان المعلومات المتعلقة بالأصدقاء والأقارب في البلد (لا يوجد لديهما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أحد) بالإضافة إلى أسماء زوجتيهما وأطفالهما الذين لا أعرفهم فارغاً. حدثت نفسي بأنني يجب أن أدفع لهما: فالمعروف الذي أسديه لهما (كتابة بضع كلمات في استمارة) لا يقارن بتكلفة الصور وتصليح مجفف الشعر. في جميع الأحوال، شطبت من دفتر يومياتي - بصورة نهائية هذه المرة، بنديِ «الحصول على صور لجواز السفر وإصلاح مجفف الشعر».

لقد أنجزت المهمّة. شعرت بالسعادة لأنني أنجزت مهمّتين صعبتين في يوم واحد. عندما اتصلت بأصدقائي وحدثتهم عمّا حصل لي مع المصورين، نصحوني جميعاً بأن أسدد لهما أجرهما بأسرع ما يمكن.

وضعت قرص فيلم رابونزيل المدبلج إلى اللغة الفارسية لتشاهده ابنتي ذات الثلاث سنوات، ثم غططنا في النوم على الأريكة في غرفة المكتبة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الأحد

استيقظت على الواقع الذي لا مناص منه وهو أن عليّ أن أواجه الشابين المصورين مرة أخرى. كنت أعرف أن حرب المجاملات ستندلع بيننا: إصراري على الدفع، وإصرارهم على الرفض. وفكّرت في تفادي مواجهتهما وإرسال السيد إسكندري إلى محلهما مع المبلغ الذي أدين به لهما (أو قريباً منه)، والاستمارتين غير المكتملتين، ورسالة توصية بأن يبذلا كلّ ما بوسعهما للبحث عن ابن المشرف على البناية عندما يحطّا رحالهما على أرض السويد.

نعم، إنها فكرة ممتازة. اتصلت بصديقتي نرجس، مستشارتي الرئيسية في إيران، وسألتها عن كلفة صور الهوية. فذكرت لي مبلغاً فوجئت بأنه أقل بكثير من المبلغ المعتاد. أعرف أن نرجس تنحو دائماً إلى بخس قيمة كلّ شيء، فعندما تشتري شيئاً يعتريها دائماً الشعور بأنها تتعرض للغش والخداع، ولا يكاد البائع يفتح فمه ليقول شيئاً، حتى تبدأ تصرخ في وجهه.

«ما سعر هذه المزهرية؟» تسأل عندما تدخل أحد المحلات، مثلاً.

«أربعون ألف تومان».

«ماذا؟ ماذا يجري هنا؟» تبدأ بالعويل، «هل تظن أننا أغبياء، أو

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

شيئاً من هذا القبيل؟ قولي لي، ألم يشتر شقيقك» - إنها واحدة أخرى بدأت تستخدم صيغة التخاطب غير الرسمية مع جميع الناس منذ بدء الثورة - «نفس هذه المزهرية من أمّي بمبلغ عشرة آلاف تومان؟»

«نعم، لكن كان ذلك منذ عشر سنوات. كان الدولار آنذاك يساوي خمسمائة تومان»، يجيب البائع عادة، وهو محقّ في ذلك.

«تماماً، والآن يساوي ألف تومان. لذلك فإن مزهريتك لا تساوي أكثر من عشرين ألف تومان»، تقول نرجس بصوت مرتفع، يزداد ارتفاعاً أحياناً إلى درجة محرجة.

في أوقات كهذه أتخيّل نفسي وأنا أسير في وول ستريت (مرة أخرى) ويساورني القلق حول سعر الدولار. هل سيجعل هبوط الدولار المفاجئ وغير المتوقّع ثمن المزهرية لصالحي؟

في إحدى المرات، قال أحد الزبائن الذي توقّف ليستمع إلى حديثنا فجأة: «لقد رأيت سعر صرف الدولار اليوم. إنه تسعمائة وخمسة وأربعون تومناً».

لقد نسيت ما كنّا ننوي أن نشتريه، فسألت، «وماذا عن اليورو؟»

«ألف ومائة وشيء».

بدا أنها اقتنعت في ذلك اليوم بالتحديد، أن حياتها تتوقف على سعر صرف اليورو، فصاحت بصوت هادر، «لا، لا، ثمنها ألف وتسعون، لا تومان أكثر».

هكذا هي. تجادل في كلّ شيء وتحارب بأظافرها وأسنانها لتحقق مصالحها ومصالح أصدقائها. لذلك عندما سألتها على الهاتف عن سعر صور الهوية، جاءت نصيحتها بسرعة شديدة: «أربعة آلاف! لا تومان زيادة».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

شكرتها لكني قرّرت أن أستشير شخصاً آخر. فاتصلت بخالتي. ولكي تتكلم مع خالتي على الهاتف عليك أن تمرّ عبر خادمتين أو ثلاث خادمات من سلالة موهتارام وهاشم. وحتى لو كنت قد رأيتهما في اليوم السابق، عليّ أن لا أسأل عن حالهما فقط، بل عن أحوال أطفالهما وأحفادهما كلّ مرّة، ومنذ السنة الماضية، أصبح السؤال يشمل أيضاً أحفاد أحفادهما.

«مرحباً، بلّغي تحياتي إلى سميرة، وتحياتي إلى سميّة، وتحياتي إلى سيما وموجده وحميد ووالي، وبلّغي تحياتي إلى كوروش ومنير وكاظم وطالب. بالمناسبة، هل خالتي موجودة؟»

أخذت خالتي الهاتف أخيراً وأطلقت تنهيدة طويلة (إذا لم تطلق تنهيدة، فإنك تراها تبكي) بسبب زوجها الذي لم يعد قادراً على المشي. سألتها مباشرة عن سعر صور الهوية.

«لا أعرف، ما الذي يجعلك تتوقّعين أنني أعرف؟» قالت باستياء، ثم أضافت، «اسألي نرجس».

بينما كنت أقول لها إنني سألت نرجس، سمعتها تكلّم حميد، ابن موهتارام وهاشم البكر، المتعدد الحرف، الذي قد يكون قد مرّ من أمامها في تلك اللحظة.

«ضع المغلف على الطاولة»، صاحت، «لا، لا، ليس هناك، هناك، هناك».

كنت على وشك أن أغلق السماعة عندما سمعت خالتي تقول: «سيأتي الدكتور بشيري بعد قليل. سأسأله عن تكلفة الصور».

والدكتور بشيري هو إخصائي العلاج الطبيعي الذي يزورهما في بيتهما يومياً ليدلّك عضلات زوج خالتي التي توقفت عن الحركة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وبالإضافة إلى معدات شدّ العضلات، فإنه ينقل إليهما كلّ الأخبار التي تدور في المدينة. وهو الطبيب الرسمي لفريق المصارعة الوطني، وشبابه (فهو لا يزال في الثامنة والعشرين من العمر) مصدر فخر لخالتي. وكلما أتت على ذكره، فهي لا تنسى أن تشير إلى أن عمره كان سنة واحدة فقط عندما غادر الشاه.

والدكتور بشيري الذي يميل إلى البدانة، متخصّص أيضاً في إزالة الشعر الزائد. والشيء الآخر الذي تتحدث عنه خالتي بتباه أنه تمكن من إزالة تسعين في المائة من شعر زوجته الزائد في أقل من شهر. وقد انتقلت سمعة الدكتور بشيري التي لا تكفّ خالتي عن امتداحها إلى واشنطن، فقد قررت إحدى مواطناتنا المنفيات التي كانت قد أرسلت ابنتها ذات الشعر الغزير إلى إحدى أشهر عيادات إزالة الشعر بالليزر في أميركا لكنها لم تتمكن من إزالة شعرها، أن تعهد أمر ابنتها إلى الطبيب الشاب.

هذا هو الرجل الذي يفترض أن يعلمني رسمياً بسعر صور الهوية. لا بد أنه مؤهّل للقيام بذلك. لماذا؟ لا أعرف، حتى أنني لم أسأل.

انتظرت ساعتين، ثم رنَّ الهاتف. إنه حميد، المستخدم الذي يقوم بجميع الأعمال المنزلية في بيت خالتي.

«ألو، مدام، هل أنت على ما يرام؟»

«نعم، وأنت؟»

«شكراً والسيد، هل هو بخير؟»

«شكراً»

«وكيارا المحبوبة، هل هي بخير؟»

«شكراً، إنها بخير».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«تحياتي للجميع».

الآن جاء دوري لأرسل التحيات إلى أفراد أسرته:

«عزيزي حميد، بلّغ زوجتك وأولادك وابنتك وأختك وبناتها تحياتي، وبلّغ تحياتي إلى جميع إخوتك وأولادهم».

«سأخبرهم كم أنتِ امرأة عظيمة ومحترمة. الدكتور بشيري يريد أن يكلّمك».

قبل كل شيء، أراد الدكتور بشيري أن يعرف ما هو المبلغ الذي اقترحته نرجس. من الواضح أنه لا يعرف، وشعرت أنني أضعت فترة الصباح كلها بانتظار المعلومات التي كان من المفترض أن يقدمها لي طبيب لا يزال تحت التمرين، لكنه بدلاً من ذلك، بدأ يستجوبني. أحسّ بالتحفظ الذي أبديته تجاهه، فقال: «لقد أخذت صور هوية في السنة الماضية عندما رافقت فريقنا الوطني للمصارعة إلى البحرين. هل ذهبتِ قط إلى البحرين؟»

قبل أن أدخل في مناقشة لا تنتهي عن سلطنة البحرين والتقدّم الملحوظ الذي شهدته خلال عقدين من الزمن، بينما تخلّفنا نحن في إيران. أذعنت وقلت: «أربعة آلاف تومان. قالت نرجس أربعة آلاف».

«نعم، هذا ما كنت أفكر به أيضاً. حوالي أربعة آلاف. لقد دفعت أقل من ثلاثة آلاف تومان السنة الماضية، لكن مع ارتفاع سعر الدولار والتضّخم...»

بدافع العادة، انتهزت الفرصة وسألته عن سعر صرف اليورو. إنها ردّة فعل، لأن الجميع لا يكفّون عن التفكير في ذلك تلقائياً. حتى حميد الذي لم تطأ قدماه خارج إيران.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«ألف ومائة وأربعة عشر تومانا اليوم».

شكرته.

«بالمناسبة، نهال خانم» قال قبل أن يغلق الهاتف، «هل يمكنك أن تصليني بشركة أديداس؟»

«أديداس؟»

«نعم، سأخبرك بالسبب: أريد شراء حقوق بيع ماركتهم في إيران. وإذا كان الأمر يهمك، يمكننا أن نصبح شركاء».

تناهى إليّ صوت خالتي من خلفه التي لا بد أنها كانت تستمع إلى حديثنا، مبتهجة بأنها ستحصل على حذاء رياضي مجاناً.

من دون أن أبدي دهشة كبيرة، رفضت عرض الدكتور بشيري بتهذيب وأعلمته بأني لا أعرف أحداً يعمل في مجال الملابس الرياضية في فرنسا، لكنه واصل التركيز على هذه النقطة، ملمحاً مرة أخرى إلى إمكانية إقامة شراكة بيننا. رفضت بتهذيب أكثر، وأنا متأكدة من أنه يقترح ذلك لأنني أتكلّم الفرنسية. أما الدكتور بشيري فهو يتكلّم الإنكليزية، الإنكليزية التي تعلّمها في المدارس الإيرانية بعد اللغتين الفارسية والعربية، أو أنه التقطها من الإنترنت ومن القنوات الفضائية الأجنبية. وهو من الذين يتابعون نشرات الأخبار على محطتي السي إن إن والبي بي سي، (باللغة الإنكليزية بالطبع)، لكنه عاجز تماماً عن صياغة أصغر وأبسط جملة ما عدا عبارتي "good morning" و "how are you?".

بتهذيب شديد، تمسكت بموقفي، باذلة كل جهدي لأن لا أجعل الطبيب يشعر بضعفه اللغوي، ووعدته بأنني سأحاول أن أجد له شريكاً يستطيع أن يتحدث بلغتين، لا بل بثلاث لغات. تذكرت نرجس التي كانت قد عملت في الولايات المتحدة في شركة بنيتون.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لا، لا» قاطعني، «هذا عرض سرّي بيني وبينك، قد يكون مربحاً جداً، وقد يثير ذلك اهتمام السلطات. إن التكتم على الموضوع أمر ضروري»، ثمّ خفض صوته وأضاف، «سأقدم لك تفاصيل أخرى لاحقا».

إنه لا يريد أن يتكلم عن هذا الموضوع على الهاتف، ربما يخشى أن يكون الهاتف مراقباً.

قلت: «نعم. حسناً، حسناً، سنتحدّث عن هذا الأمر، بالتأكيد». أغلقت الهاتف أخيراً. لقد أضعت فترة الصباح كلها.

رنَّ الهاتف المرئي ثانية. مرة أخرى ظهر ذلك الخط العريض الأفقي لشاربَيِ المشرف على البناية، السيد إسكندري، وسمعت صوته يعلن عن وصول المصورين. لم أكن أريد أن يصعدا. أتهيأ للنزول إلى الطابق الأرضي وأسدد لهما أجرهما وأعيد لهما الاستمارتين، لكن صوتاً قديماً بدائياً من سلالتي، صوتاً يكلّمني أحياناً لا أعرف مصدره، قال لي إنني يجب أن أطلب منهما أن يصعدا. فهذا ما يفعله الجميع، وهكذا هي العادات. جزء مني لم يشأ أن أدعوهما إلى البيت، وأقدم لهما الشاي، وأدخل معهما في حديث عن الصعوبات التي يواجهها الإيرانيون في الاندماج مع البلدان الأجنبية، وكان جزء آخر مني، يعرف بأنّني لا أستطيع أن أفعل شيئاً غير هذا. الصوت (صوتي) يمليه عليّ.

ضغطت زرّ الهاتف المرئي.

«أطلب منهما أن يصعدا»، قلت لمشرف البناية.

في أثناء ذلك، هرعت إلى الحمّام، ووضعت بعجالة مسحة من أحمر الشفاه، وأدركت أنني أرتدي البلوزة ذات الثنيات. بالنسبة للعيون الإيرانية، فإن الثياب ذات الثنيات والتي تبدو مجعدة توحي

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بأن فيها عيباً فطرياً واضحاً، ولا يمكنها أن تتخيّل أن أحداً يمكنه أن يصنع ثياباً فيها تجعيدات أو ثنيات. لا أهتم بذلك، لعدم توفر وقت لديّ لتغيير ثيابي. ها هما يقرعان الباب. قلت بصوت عال إن الباب مفتوح. .إنه مفتوح باستمرار.

عندما دخل الرجلان شرعا فوراً في خلع حذاءيهما. فمنذ اندلاع الثورة، بدأ الناس يتخذون عادة خلع أحذيتهم ما إن تطأ أقدامهم بيت شخص يزورونه. ويمكن تفسير هذا الأمر أيضاً: فعلى المرء ألّا يطأ أرضية البيوت التي تقام عليها الصلاة بأحذية غير نظيفة. لذلك، كنت أعرف أنني كلما أردت أن أتوجّه إلى مؤسسة حكومية (مثل وزارة العدل المسؤولة عن حلّ النزاعات الناشئة عن مصادرة الأملاك التي كانت أمّي ضحيّة لها - في السنوات القليلة الأولى من الثورة)، كان عليّ أن أخلع حذائي قبل أن أقترب من القاضي أو المستشار الوزاري أو رجل الدين المعمّم. وهذا يعني أنني يجب أن أحرص على ارتداء جوارب سميكة غير شفافة في ذلك اليوم كي لا يقفز الطلاء الأحمر في أظافر قدمي في وجه القاضي، فيلغي أيّ طلب أقدّمه له.

لا أزال أذكر مشهداً حدث لي منذ سنتين أو ثلاث سنوات، عندما كنت أوجّه حديثي إلى مجموعة من سكان قرية في الشمال، وهم رجال استفادوا إلى أبعد حدّ من الثورة الإسلامية واستولوا على أرض أمّي. وعندما وقفت أمامهم من دون حذاء، كما كان من المفترض أن أفعل، كان كلّ ما أمكنني التفكير فيه هو أن أغطي أظافر قدمي المطلية بالأحمر: فوضعت قدماً فوق الأخرى.

قرّرت أن أدع المصورين يدخلان بحذاءيهما. إن مجرد التفكير بأنهما يخلعان حذاءيهما المهترئين اللذين سطّح ظهرهما (إحياء

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لذكرى البابوج القديم الذي لم يكن له ظهر)، ويضعانهما بجانب باب شقّتي عند قدميْ تمثال بوذا حيث أشعل بخوراً يابانياً طوال الوقت. يجعلني أشعر بالغثيان. لذلك فقد فضّلت أن يبقيا بحذاءيهما، حتى أنني ألححت عليهما. ووضعت الأربعة آلاف تومان في مغلف. وهكذا دخل الرجلان إلى غرفة الجلوس في بيتي بحذاءيهما.

دخلت موهتارام، عاملة التنظيف التي تعمل عندنا منذ أيام أمي، وأحضرت لنا الشاي. في شبابها، كانت بشرة موهتارام برونزية اللون، وكان أنفها رفيعاً يكاد يكون يشكل قطعة من عظم أنفها، نحيفة. لكنها كانت تتمنى أن تكون بشرتها بيضاء، ولها أنف مكتنز، وجسم رشيق. وكنت أقول لها أنا وأمّي إنها لو كانت قد ولدت في عائلة أغنى، لساعدتها بنية جسدها العصرية على الزواج من ابن مصرفي وعلى أن تمضي عطلتها في غستاد وليس في قم. لكنها أصبحت الآن أكثر اكتنازاً، وظلت سمراء البشرة، وتقيم في شقّتي، وتفعل كل ما أحتاج إليه أثناء زيارتي إلى إيران. كانت تخفي شعرها تحت غطاء رأس كما كانت تفعل في الماضي، في عهد الشاه، وكلّ ما تغيّر فيها منذ ذلك الحين هو أنها لم تعد ترتدي الشادور (عباءة). ومثل جميع النساء الأخريات اللاتي لا يرتدين الشادور، كانت موهتارام تضع معطفاً بسيطاً يخفي جسمها.

إن وجود عاملة تنظيف في بيتي يدلّ على أنني أنتمي إلى عائلة مرموقة، لذلك توقف المصوران عن مخاطبتي بصورة غير رسمية. شكرتهما على قيامهما بتصليح مجفف الشعر، وأعطيتهما الاستمارتين والمغلف. أخذا الاستمارتين لكنهما تركا المغلف على المنضدة الصغيرة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

هنا بدأ *التاروف*(*) لا، إنهما لا يريدان أن يأخذا أيّ مبلغ. هذا أمر مسلم به. استمرّ الأخذ والعطاء لمدة نصف ساعة كاملة، كنت أحاول خلالها، لأني أعرف أنني سأرضخ في النهاية، أفكّر بطريقة تمكّنني من مكافأتهما. وخلال حديثنا، علمت أن زوجتيهما خياطتان تعملان معاً. فقلت لنفسي لقد وجدت الحل. إذ توجد لديّ بضعة أعداد من مجلة فوغ (*Vogue*)، كنت قد هرّبتها معي من باريس، وجازفت بأن أتعرض للاعتقال من قبل رجال الجمارك. نعم، ففي الجمارك يسألون كلّ امرأة قادمة إلى إيران عمّا إذا كانت تحمل أيّ فيديو أو عدد من مجلة بوردا (*burda*). ففي تعابيرهم فإن كلمة بوردا هي مصطلح عام يشمل كلّ أنواع مجلات الأزياء. وترسل النسخ المصادرة إلى وزارة الثقافة والتوجيه الإسلامي، وتقع في أيدي موظفين يقظين دؤوبين ذوي ضمائر حية يمضون يومهم في تلوين أيدي وسيقان وأذرع العارضات العارية وطمسها لتتطابق مع الصورة الرسمية للمرأة الإسلامية في إيران.

ومكتب التلوين هذا مسؤول أيضاً عن تسويد الكتيبات والأدلّة التي تصدرها المتاحف والكتب الفنّية. إنها عملية تجميل شاملة. وفي الوقت الذي تجد فيه على موقع avizoon.com على الإنترنت فتيات إيرانيات صغيرات ينتمين إلى خلفيات اجتماعية من الطبقة الدنيا - يمكنك أن تعرف ذلك فوراً من بساطة قطع الأثاث الريفية خلفهن - وهن يعرضن أعضاءهن الجنسية أمام أنظار العالم كلّه، يقوم موظف حكومي بطمس صدر أفروديت بقلم أسود عريض في دليل متحف اللوفر.

(*) التاروف: من العربية: التعارف، وتعني المجاملات التي ترافق التعارف بين الأشخاص عادة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إني واثقة من أن أعداد مجلة فوغ الموجودة عندي - التي لم تطمس معالمها - سترضي المصورين وزوجتيهما. لكني عندما عرضتها عليهما أحسست برفض موهتارام التي دخلت لتقدم لنا الشاي للمرة الثانية. فهي تعتبر أن أيّ شيء في بيتي هو لي، وأيّ شيء يخرج منه فهو لها. فإذا تعطلت المكواة، فإن مسألة تصليحها أمر غير وارد لأني يجب أن أعطيها لموهتارام. هذه هي القاعدة المتبعة، وهي قاعدة صارمة: لذلك يعتبر تصليح مجفف الشعر خيانة حقيقية من جانبي، وهو تأكيد على أن هذه الأشياء اليومية لا تزال من أملاكي حتى لو كانت خارج بيتي، وهو أمر غير وارد من الناحية العملية.

إن موهتارام لا ترمي أي شيء. لا شيء على الإطلاق.

فهي تأخذ قناني الشامبو الفارغة من بيتي وتملؤها برغوة الصابون وتصفها حول الحوض في بيتها للزينة.

تخبرها غريزتها (وغالباً ما تكون مصيبة) بأن أعداد مجلة فوغ الثلاثة ستفلت من قبضتها، فتنسلّ عائدة إلى المطبخ مفعمة بالمرارة، ولم تردّ على الهاتف الذي كان يرنّ. كنت لا أزال أمسك بالمجلات الثلاث، عندما حسبت بسرعة أن ثمن العدد الواحد منها، إذا كان من الممكن أن أحدد لها ثمناً، أعلى من تكلفة صور الهوية، وأن إعطاءهما الأعداد الثلاثة، بالإضافة إلى المجازفة بإثارة غضب موهتارم، قد يبدو أمراً استفزازياً متعالياً ويثير الريبة. ومن دون تردد أو تفكير، قدمت لهما عددين فقط، وبابتسامة عريضة، قلت: «نسخة من مجلة فوغ لكلّ زوجة من زوجتيكما».

هنا وافقت موهتارام التي كانت تتنصت على حديثنا من المطبخ، فردّت على الهاتف الذي كان لا يزال يرنّ. وهذا يعني أنها عرفت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أنها تمكنت من إنقاذ النسخة الثالثة التي يمكنها الآن تزيين منضدتها الصغيرة بها - التي أخذتها منّي أيضاً السنة الماضية عندما غيّرت أثاث شقّتي.

قالت موهتارام إن نرجس على الهاتف وإنها تريد أن تكلمني. دخلت إلى المطبخ وأخبرت صديقتي التي كانت تريد أن تعرف عمّا إذا كان المصوران قد رضيا بالأربعة آلاف تومان، بأنّني سوّيت الأمر وأعطيتهما العددين الأخيرين من مجلة فوغ.

«العددان الأخيران من مجلة فوغ!» قالت باحتجاج شديد.

حتى موهتارام التي أحسّت بردّة فعلها العنيفة، أومأت برأسها علامة على موافقتها على انزعاج صديقتي.

«انتظري»، واصلت نرجس، «إنهما سيبيعان المجلتين في الأستوديو بعشرة أضعاف ثمن صورك».

«لن يبيعاها. لقد أعطيتهما لزوجتيهما الخياطتين».

«خياطتان؟ زوجاتهما خياطتان؟»

«نعم، هذا ما قالاه لي. إنهما تعملان معاً».

هنا تغيّرت نبرة صوت نرجس. أعرف أنها بدأت تفكر الآن. ثم قالت: «هل تعرفين ماذا يمكنك أن تفعلي؟ أريهما الكراسي التي تريدين أن تغيري قماشها».

«أتظنين ذلك؟»

«طبعاً. أريهما الكراسي».

في واقع الحال، كان كلّ ما أريده هو أن يغادرا بيتي بأسرع ما يمكنهما بالمجلتين. عدت إلى غرفة الجلوس وهناك، ألقيت نظرة سريعة على الكراسي المكسوة بقماش لا ينسجم، في رأيي، مع باقي قطع الأثاث. مع أنني كنت قد طلبت من عدّة منجّدين أن يأتوا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ويأخذوا الكراسي لتغيير قماشها، لكنهم رفضوا جميعاً لأسباب مختلفة.

«هل تعمل زوجاتكما أيضاً في التصميم الداخلي؟» سألتهما.

«من أي نوع؟»

بلا تردد، أريتهما الكراسي.

«هل تعملان في المفروشات؟ هذه الكراسي، مثلاً، هل تستطيعان تغيير قماشها؟»

تفحصا الكراسي بدقة، ثم نظر أحدهما إلى وجه الآخر.

«طبعاً. لا توجد مشكلة»، قال مراد.

ثم وافقا على أخذ الكراسي. ذهبت أبحث عن القماش الذي اشتريته مؤخراً - قماش بسيط من الجوت. عدت إلى غرفة الجلوس وأعطيتهما القماش.

لم يصدقا: تنجيد كراسي من الطراز الفرنسي في القرن الثامن عشر (قمة الرقي في نظرهما) بقماش خشن رخيص؟ لكني أصرّيت على ذلك. لقد اعتدت على ردّة الفعل هذه. فمنذ بضع سنوات، بعد أن ماتت أمّي، بعت الأثاث من طراز غوستاف الذي كانت قد اشترته من السويد في السبعينيات من القرن العشرين، واشتريت مكانها طاولات من الحديد المطاوع... وما عداي أنا والمصمم، لم يوافق إلّا ثلاثة أشخاص أو أربعة على اختياري هذا، وكانت نرجس واحدة منهم، التي كانت تحب الديكور الداخلي الحديث، لكنها لم تقبل ثمنها.

حاول المصوران اللذان أصلحا مجفف شعري إقناعي بتهذيب شديد بأن أغيّر رأيي، وبذلا كل ما بوسعهما لإقناعي بأنه يجب تنجيد هذه الكراسي بقماش أكثر أناقة وفخامة يليق بي وبشقّتي، لكن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جهودهما باءت بالفشل، وقلت إني أريد استخدام هذا القماش.

عادت نرجس واتصلت. كانت تفكّر في الأمر. نصحتني هذه المرة بأن لا أعطيهما قطعة القماش كلها. فسألتها بهدوء «الماذا؟».

«لأنهما لن يعيدا لك ما سيتبقى منها».

أردت أن أجازف. فلم تعد لديّ رغبة في رؤيتهما هنا، في شقّتي، وهما يحملان المقصّ، ويفرشان قطعة القماش ليشرعا في قصها. «فليأخذا قطعة القماش كلها. من يأبه لذلك؟».

وتابعت نرجس كلامها، «وهناك شيء آخر، فقد أجريت بعض البحوث. بالنسبة لتجديد جواز سفرك فأنت لست مضطرة للذهاب إلى مكتب جوازات السفر المركزي. لقد أنشؤوا مكاتب في كلّ منطقة للقيام بذلك. لقد مررت من أمام المركز في منطقتي وكان مزدحماً جداً. الناس ينامون خارج المبنى طوال الليل لحجز دور لهم ليكونوا أول الداخلين في الصباح».

قلت لها إنني سأذهب إلى هناك وسأتبيّن الأمر بنفسي، لكني لم أر سبباً معقولاً يجعل مكاتب جوازات السفر مكتظة بهذا الشكل.

فأجابت، «لكنهم يعملون على حوسبة العملية كلها. ألا تعرفين ذلك؟ في السنة الماضية، كان تجديد جواز السفر يستغرق يومين، أما الآن فأصبح يستغرق شهراً كاملاً».

إن «هم»، صيغة الشخص الثالث الجمع، تشير إلى الإدارة الإسلامية الحالية، و«هم» هي طريقة للقول إنهم «هم» وليس «نحن».

«هل أنت متأكدة من ذلك؟»

«تماماً».

«وماذا لو كنت لا أريد أن أمضي الليل كله وأنا أنتظر في الشارع؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«في الواقع إنهم يشجّعون الناس على إرسال وثائقهم بالبريد، لكن هذا يستغرق فترة أطول: شهرين أو ربما ثلاثة أشهر».

«إذاً ماذا أفعل؟»

بدأ صبر زوجي، الفرنسي، ينفد. يمكنني أن أسمع ذلك في نبرة صوته كلما خابرني من باريس. تكاد أن تنتهي الأيام الثلاثون من غيابي عنه، وعليّ أن أعود.

«نرجس، لا يمكنني أن أنتظر شهراً لتجديد جواز سفري. هل أنت متأكدة من ذلك؟»

«اذهبي وانظري بأمّ عينك. الناس يمضون الليل كله هناك! الجميع يتصايحون، لكن صياحهم لا يجديهم نفعاً. اذهبي وشاهدي بنفسك إن كنت لا تصدقينني».

لم يكن الانتظار طوال الليل يشكل مشكلة فعلية بالنسبة لي، إذ يمكنني أن أطلب من أحد أبناء موهتارام أن يذهب ويقف بدلاً عني في الدور. لكن كيف يمكنني أن أنتظر شهراً آخر هنا من دون أن يغضب زوجي؟ كيف يمكنني أن أشرح له بأن تجديد جواز السفر - في طهران، في هذا اليوم وفي عصر اليوم بالذات، ولأسباب غامضة تتعلق بجعل العملية كلها محوسبة - قد يستغرق أكثر من شهر؟

سألت نرجس عمّا إذا كانت تعرف أحداً في مكتب جوازات السفر المركزي. بعد صمت للحظات اقترحت أن أسأل الدكتور بشيري، معالج زوج خالتي.

لا أريد أن أعود إلى الدكتور بشيري، وإلى موضوع أديداس، والبحرين وكلّ ذلك... لا!

«ألا يمكنك أن تفكري بشخص آخر؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«سأسأل الحرّاس الشخصيين لمديري في العمل. فهم يعملون في جهاز الأمن»، قالت نرجس، «لعلهم يعرفون أحداً».

أغلقت الهاتف وقد اعتراني شعور بأن لا حول لي ولا قوة. عدت إلى غرفة الجلوس. أخبرني المصوران اللذان سمعا حديثنا (بأدب ولطف شديدين) بأنّهما يعرفان دكتوراً ربما يكون قادراً على حلّ مشكلة جواز سفري.

دكتور؟ لماذا دكتور؟ دون أن يعطيني جواباً مباشراً، أراد مراد أن يعرف عمّا إذا كانت هناك مشكلة لو اتصل بي الدكتور هذا المساء، أو في وقت متأخر. أعطيته رقم هاتفيْ الأرضي والخليوي. يا له من أمر غريب - ففي أقل من أربع وعشرين ساعة، أصبحت لا أستطيع أن أستغني عن مساعدة حسن آغا ومراد آغا.

سار أخيراً حسن نحو المنضدة الصغيرة والتقط الاستمارتين. صافحني. مع أن الثورة حظرت المصافحة: فمنذ قيام الجمهورية الإسلامية، مُنعت مصافحة المرأة منعاً باتاً واعتُبرت شيئاً مذموماً لأن لمس يد المرأة قد يثير شهوة الرجل، ويجعله يفقد السيطرة على نفسه تماماً وينحرف عن الطريق القويم. ومنذ قيام الثورة، أصبح الذكر المسلم إنساناً ضعيفاً ومهدّداً. أتساءل كثيراً عن السبب.

ومثل جميع النساء الإيرانيات، استغرقتُ وقتاً طويلاً لكي أتعود على عدم مصافحة الرجال. ومثلهن، اقتصرت في البداية على عدم مصافحة الرجال من العالم الخارجي: الرجال الذين يعملون في الدوائر الحكومية أو الجامعات أو المستشفيات، لكن سرعان ما بدأت الشكوك تساورني. فهل عليّ، في لقاء عائلي مثلاً، أن أصافح غرباء يدعوهم أبي إلى بيتنا؟ وقد أصبح أحد أصدقاء الطفولة الذي يتحدر من أسرة قاجار - السلالة الملكية قبل الأسرة البهلوية -

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مسلماً متشدداً فجأة وامتنع عن مصافحة النساء. لم أعرف بهذا التحول السريع الذي طرأ عليه، لذلك عندما صادفته في بيت خالتي، اندفعت نحوه للترحيب به وتقبيله كما كنت أفعل دائماً، لكنه خطا إلى الخلف بسرعة، وترك مسافة بيني وبينه. في ذلك الوقت، ظننت أنه أصبح يتفادى تقبيل امرأة غير زوجته بعد أن تزوّج امرأة مسلمة متدينة، لكني عندما مددت له يدي لمصافحته، تراجع مذعوراً.

وهناك أشياء كثيرة أخرى. فلم يعد الإسلام الجديد يحرّم ملامسة رجل غريب، (غير محرم) رجل ليس من أفراد الأسرة -أب أو أخ أو ابن - فحسب بل أصبح كذلك يحرّم النظر إليه مباشرة.

لكني كنت قد اعتدت على أن أبتسم لأيّ رجل وأصافحه، بل ربما كنت أقبّله على الخد وأنظر في عينه مباشرة، لكن بين ليلة وضحاها، أصبح عليّ، مثل جميع النساء الأخريات، ألّا أفعل ذلك: فلم تعد هناك ابتسامة أو مصافحة أو ملامسة خدّ، و(الأصعب من كلّ ذلك) عدم النظر مباشرة إلى الشخص الذي أحدّثه، وتعلّمت أن أشيح بعينيّ عنه عندما يحدثني - من كان يخطر بباله كل هذا.

لكن بعد ثلاثين سنة من فرض القانون الإسلامي، لم يتم التخلص تماماً من هذه «التصرفات المنحرفة»، فقد تناهى إليّ أن منع المصافحة قد رفع مؤخراً عن الدبلوماسيين الإيرانيين. فقد كادت العلاقات بين فرنسا وإيران تُقطع عندما مدت السيدة شيراك يدها لمصافحة السفير الإيراني الذي رفض مصافحتها، لذلك كان على المرشد آية الله خامنئي أن يتدخل بنفسه لحلّ هذه المشكلة. فسمح على مضض بهذا الاستثناء. وبعد كلّ هذه السنوات، فإني أشعر حتى الآن بحرج شديد عندما أمتنع عن مصافحة أحد من أبناء عمومتي، أو لمس شخص غريب، أو الترحيب بأصدقاء مقرّبين، وأصبحت، بدلاً

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من ذلك، أضمّ يدي معاً وأقربهما من وجهي كما تفعل المرأة الهندية.

غادر المصوران وأخذا معهما الاثني عشر كرسياً وقطعة قماش الجوت كلها. غمرتني السعادة، فها أنا قد حصلت على صور الهوية، وتم إصلاح مجفف الشعر، وتم نقل الكراسي (على عدّة دفعات) ووعدني مراد وحسن بأن الدكتور الذي يعرفانه سيوفر عليّ الانتظار طوال الليل في مكتب جوازات السفر.

دخلت إلى غرفة المكتبة التي لم ألمسها بدافع الاحترام لكتب والديّ اللذين كانا كاتبين. إن مجرد النظر إلى كتبهما، الكتب التي قرآها والكتب التي كتباها، كان يعني أنني أنظر إلى والديّ نفسيهما، كما لو كانا لا يزالان موجودين معي في هذا البيت.

تركت ابنتي التي تذهب إلى بيت خالتي عادة أثناء النهار، ألعابها مبعثرة في أنحاء الغرفة. كنت أرتّب الغرفة عندما دخلت موهتارام إلى الغرفة وبيدها عدديْ مجلة فوغ. لقد تعمّد المصوران تركهما، وقد دفعا المجاملات إلى أقصى حد.

جريت إلى الشرفة. كانا لا يزالان يعبران الشارع.

صحت لهما: «لقد نسيتما مجلة فوغ».

كانا يعرفان ما أقصد، لكنهما ظلا يسألان، «ماذا؟»

«مجلة فوغ» صحت وأنا ألوّح بهما، ثمّ ألقيت بالمجلتين. حملتهما الريح في سقوط بهلواني لوّث، لوهلة قصيرة، الهواء المنقّى لجمهورية إيران الإسلامية بصور الفساتين القصيرة والسراويل المثيرة تلك. التقطهما السيد إسكندري بمهارة أسفل البناية. رفع عينيه ونظر إليّ بعنين تشرقان بأمل أن يسمع أخيراً أخباراً طيبة يحملها له هذان

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الشابان اللذان سيبحثان عن ابنه الشبح من السويد. بكل ثقة، أو كعربون على شكرهما، أعطاهما مجلتي فوغ.

لوّحا إليّ ومضيا في طريقهما، يحمل كلّ منهما أربعة كراسي، أما الكراسي المتبقية، فكانت مكومة عند مدخل البناية تحت عينيِ السيد اسكندري اليقظتين. سيعود المصوران لحملها.

أمضيت ذلك المساء في بيت خالتي، محاطة بحاشيتها من الخدم الذين كان كلّ واحد منهم أكثر كسلاً وخمولاً من الآخر. ثلاثة أشخاص يعيشون ويعملون في بيتها لكنهم لا يوفرون لها أدنى درجات الراحة، فهي التي تنظّف وتكوي وتطبخ، يراقبها خلال ذلك حميد وزوجته ماسيرات وأخته سميرة. وهم ابن موهتارام وكنّتها وابنتها على التوالي.

إن خالتي واحدة من أروع النساء اللاتي عرفتهن في حياتي. فقد قرر زوجها الذي كان آنذاك في الأربعين من عمره أن يتوقّف عن العمل ويعيش على دخله الخاص. مأخوذة بعينيه الخضراوين - لأن عيون تسعة وتسعين بالمائة من الإيرانيين بنية داكنة - لم تعترض خالتي على قراره هذا، وقبلت أن تعيش معه على دخل أخذ يتناقص رويداً رويداً، سنة بعد سنة. وعندما تقارن خالتي حياتها الآن بحياة بعض صديقاتها اللاتي أصبحن ثريات، فهي تسارع إلى تذكيرهن بأنه عندما كان أزواجهن يتنقّلون في سيارات مستعملة، كان زوجها ذو العينين الخضراوين يمتلك سيارة ثندربيرد، السيارة البيضاء الوحيدة في العاصمة، السيارة التي كان الشاه نفسه يتمنى أن يحصل على سيارة مثلها. أما الآن، فإن كلّ ما تملكه هو هذه الشقّة الصغيرة الكائنة في عمارة قديمة في طهران، وعندما يذكر لها أحدهم صديقتها

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

جاليه - وهي امرأة تعيش بين أنتيب وغستاد وأسبن - فإنها تسارع إلى تذكيرنا بأنها كانت قد أعارتها ثوب زفافها الفخم في ليلة عرسها لتبدأ حياتها الزوجية.

قرعتُ الجرس وفتحتْ ماسيرات الباب. قبّلتها ثم قبّلت سميرة. ماسيرات امرأة بدينة في الثلاثين من العمر تتبع، بتشجيع من خالتي، حمية لتخفيف وزنها حسب توصية مجلة طبية سويدية. الطريقة بسيطة، يقول المؤلف لكل من يريد أن يطبقها: «البدء بتناول نصف كمية الطعام الذي تتناولينه عادة لمدة عشرة أيام تقريباً، ثمّ تناول نصف الكمية مرة أخرى لمدة عشرة أيام أخرى، وهكذا دواليك». لا أعرف إلى أي مرحلة وصلت ماسيرات حالياً، لكن، بالحكم على العجلتين الاحتياطيتين المنتفختين القابعتين تحت البلوزة البرتقالية المطرزة التي كنت قد أعطيتها لها، فهي لم تتجاوز حتى الآن النقطة التي كانت عليها منذ الأيام العشرة الأولى.

أما كنّتها سميرة، فقد أصبحت جدة وهي لا تزال في الأربعين من العمر، وتحمل حفيدتها اسمي - لذلك فهي تدللها وتسميها موهتارام «خانم» بدافع الاحترام لي. إن سميرة امرأة جميلة لولا اختفاء أسنانها الأمامية لعدم عنايتها الجيدة بها. وقد ساهم حسابي المصرفي الذي تستخدمه خالتي من خلال الوكالة العامة التي أعطيتها لها، في تركيب صفّ أسنان صناعية على يد طبيب أسنان كان صديقاً قديماً للعائلة.

ثمّ صافحتُ حميد. إن مصافحة حميد لي تعتبر وسيلة جيدة لمقاومة النظام الإسلامي. فمع أنه يصوم ويصلّي وفرض على زوجته أن ترتدي الحجاب... فإنه يصافحني. وعلى الرغم من الانتصارات التي حققتها الثورة، فقد نسيت حميد وأمثاله - بمعنى آخر، معظم الرجال في إيران.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

قادتني خالتي لرؤية زوجها الذي يحتل سريره أهم مكان في غرفة الجلوس. وكما قلت سابقاً، فلم يعد قادراً على السير على قدميه. وقبل أن يصبح غير قادر على استخدام ساقيه، لم يكن يجرؤ على مغادرة المدينة، ثمّ أصبح يخشى مغادرة الحيّ الذي يقيم فيه، ثمّ مغادرة بيته. فبعد أن ينهي تناول طعام الفطور، ثم طعام الغداء، كان يأخذ وسادتين ويستلقي على الأريكة ولا يغادرها طوال اليوم. وفي المساء، ينهض ويجلس إلى المائدة، ثم يأوي إلى الفراش ويخلد إلى النوم. في رأيي فإن الشلل الذي أصابه هو عمل انتقامي من جانب الطبيعة: ويخيّل إليّ أن ساقيه كانتا تقولان له: «أنتَ لا تريدنا حسناً، إلى اللقاء، وإننا سنتخلّى عنك أيضاً».

لم ينجبا أطفالاً وطوال حياتها، كانت خالتي تأسف لأنها لم تتمكن من إدامة جينات رجلها ذي العينين الخضراوين النادرة. وعندما تزوّجا أعطته ميراثها، إيرادات بيع مئات الهكتارات من الأراضي في شمال إيران، ولم تخالفه قط في أي قرار يتخذه، فقط من أجل عينيه الخضراوين. وشيئاً فشيئاً، وعلى مرّ السنين، جعلته طفلها. حتى أنها فرحت عندما علمت بأنه أقام علاقة مع امرأة أخرى، لأن ذلك يعني، بالنسبة لها على الأقل، أنه يمضي وقتاً ممتعاً، على حد قولها.

وزوج خالتي لا يتكلّم، أو أنه مقتصد كثيراً في الكلام. فعندما يقول شيئاً، كان يقوله إما لمهاجمة الشخص الذي يكلّمه أو لإهانته. ولا يزورهما أحد إلا بسبب لطف خالتي وحسن معشرها. لكنها تدّعي عكس ذلك تماماً لشدة حبّها لزوجها: «إن فلاناً لا يزورنا إلّا إذا كنتَ هنا كما تعرف، والحلواني صنع قالب الحلوى هذا خصيصاً لك، كما تحبّه، وقطع الجزّار شريحة اللحم التي تحبّها».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بالطبع، لا يوجد شيء من الصحة من كل ذلك. ولا أعرف إن كان يصدّقها أم لا هل يصدّق فعلاً أن أعز صديقات خالتي لا تأتي لزيارتها إلا إذا كان موجوداً في البيت، أو أن الحلواني لا يصنع تلك الحلوى اللذيذة إلّا من أجله، أو أن الجزّار - الذي يهمل كلّ زبوناته الجميلات - يبحث عن الكنوز الخفية في أفضل أنواع اللحوم الموجودة في مجمدته كرمى لعينيه؟

أما حميد، ابن موهتارام، فهو في الثانية والأربعين من العمر. وقبل أن تجعله خالتي مساعداً عاماً لها لرعاية زوجها العاجز، كان يعيش مع زوجته وأطفاله الثلاثة في قبو يسدد أجرته من الأجر الذي تكسبه زوجته التي كانت تعمل مربية عند أحد أقربائها. ومثل معظم الشبان الإيرانيين، كان حميد يتعاطى الأفيون. وقد جلبته خالتي للعمل عندها لأنها لا تستطيع أن تحضر غريباً إلى بيتها، لذلك قررت أن تتجاهل وجه المساعد الجديد المصفرّ الوجه، الغائر الخدين، صاحب الأسنان المنخورة، الذي يعرج في مشيته.

بتدليلها لحميد، كانت خالتي تأمل في أن يتحسن بسرعة. لكن عبثاً. وبفضل مبلغ يتجاوز الأجر المعتاد بكثير، انتقل إلى شقّة في الطابق الأرضي (أول إشارة إلى ارتقائه السلم الاجتماعي)، واشترى سريراً لكبرى بناته التي كانت تطمح إلى الذهاب إلى الجامعة، وفي النهاية، اشترى لنفسه هاتفاً خليوياً. وعندما بدأ يعمل في خدمة خالتي، بينما كانت دموع المرأة المسكينة تنسكب من الصباح حتى المساء، ولم ينته سيل الأطباء المتجمعين حول سرير زوج خالتي، انتحى حميد بي جانباً، وسألني بصوت منخفض هل يمكنني أن أعيره هاتفي الخليوي.

قلت له إنه لا يعمل لأنه وقع من يد ابنتي في المرحاض.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فأجاب، «ليس من الضروري أن يعمل. لا أريد إلّا أن أضعه في جيب بنطلوني الجينز الخلفي».

«جيب بنطلونك الجينز الخلفي؟» كرّرت ما قاله بدهشة.

في تلك الأثناء، راح الجرّاح المشهور الذي كان يفحص زوج خالتي في ذلك اليوم، يسأل جميع أفراد أسرة موهتارام بشكل مسعور عمّا إذا كان هناك تلفاز ليشاهد بوش الذي كان يلقي آنذاك خطاباً على محطة السي إن إن عن قدرات إيران النووية.

بثبات شديد، استدار حميد ودسّ يده في جيبه الخلفي، وقال: «كما ترين فإني أريد أن يبرز الهاتف من جيبي. هكذا. أريده أن يكون بادياً للعيان».

تركته للحظة، وأخذت الجرّاح إلى الغرفة التي يوجد فيها التلفاز. وهناك أخرجت الهاتف الذي كان قد غرق في ماء المرحاض من حقيبتي وأعطيته لحميد الذي دسّه على الفور في جيب بنطاله الخلفي.

لقد طاف هذا الهاتف شقّة خالتي عدة شهور تحت أنوف أشهر الأطباء في العاصمة.

أما الآن، فقد أصبح لديه هاتف حقيقي يبرز من جيب بنطلونه الجينز. ولم يعد هناك داع للتظاهر بأنه يحمل هاتفاً، بل أصبح معه شيء يرنّ في بعض الأحيان.

جلب حميد صينية عليها فنجان قهوة وكأس من البيرة المنخفضة الكحول التي يجلبها عادة بالإضافة إلى بعض المشروبات الممنوعة الأخرى، إلى شقّة خالتي شخص أرمني، عند الطلب.

ويعرف حميد أنني أشرب قهوة ولا أحتسي الشاي مثل جميع

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الضيوف الآخرين عندما أزور خالتي خلال النهار. دفع أمامي الصينية، وقال: «بيرة وقهوة».

هذه القهوة التي لم أطلبها تعني أن حميد يريد أن يطلب مني شيئاً- خدمة أسديها لأخيه أو شهادة تثبت أنه أنهى خدمته العسكرية (لكن في الحقيقة فهو فار من الخدمة العسكرية). ولا يمكن أن يكون لطلبه علاقة بالنقود لأنه عندما يحتاج إلى نقود، فإن خالتي ستعطيها له، منتهكة الوكالة العامة التي أوكلتها لها باستخدام حسابي المصرفي دون الحصول على موافقتي. وبمحض المصادفة، اكتشفت أنني أموّل تدريس إحدى حفيدات موهتارام بهذه الطريقة.

صببت لنفسي قليلاً من البيرة. ظل حميد واقفاً في غرفة الجلوس يحمل الصينية. جلست على حافة سرير زوج خالتي ورحت أشجّعه على أن يشرب منها قليلاً. ظل حميد متسمراً في مكانه. قلت لنفسي لا بد أنه سيطلب مني أن أساعده في استخراج بيان نهاية الخدمة العسكرية.

في تلك اللحظة، خرجت خالتي من المطبخ، وتركت ماسيرات وسميرة، مصدرها المفضّل للثرثرة - فهي لا تتوقف عن التحدث معهما طوال النهار وهما تقومان بعملهما. دنت مني وقالت إنه كما قال الدكتور بشيري، فإن جهاز الكمبيوتر المحمول الذي أعطته لهم إحدى صديقاتي قديم ويجب رميه في سلة المهملات. هز حميد رأسه، لكنّي لم أوافق. فعندما أعطت صديقتي الكمبيوتر لخالتي، أوصت بأنهم يجب أن يصلحوه. من تصليحه إلى الالقاء به في سلة المهملات.

خطرت ببالي فجأة المقارنة بين كبرياء موهتارام التي تعرض قناني الشامبو حول الحوض في بيتها وبين التعابير المرتسمة على وجه حميد الذي يحاول تشجيعي على التخلص من جهاز الكمبيوتر

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المحمول توشيبا المرسل من إنكلترا. أشمّ رائحة مؤامرة. بالتأكيد. لا بد أن خالتي متآمرة مع حميد. فمنذ أن أصيب زوج خالتي بالشلل، كانت هناك فكرة واحدة تهيمن عليها وهي احتمال أن يتركها حميد، فكانت تبذل كل ما بوسعها لتلبية كلّ طلباته. وحتى قبل أن تبدأ الحرارة بإذابة الإسفلت في شوارع طهران - وربما جميع سكّانها - كانت خالتي تفكّر بأن تقدم لحميد مروحة كهربائية. حتى الأقارب الذين يأتون لزيارتها من أميركا كانوا يتنافسون على إدخال السرور إلى نفس خالتي، فيقدمون له قمصاناً من ماركة كالفاين كلاين وقمصان بولو رالف لورين.

يقسّم حميد، النحيف والشاحب والعديم الفائدة، وقته بين صمته وبين فتح الهدايا التي تغدق عليه.

لا بد أن تشخيص الدكتور بشيري لحالة جهاز الكمبيوتر المحمول هي إحدى السبل التي تتبعها خالتي لتبرير كرمها لحميد، بإعطائه كمبيوتر قيل إنه لا فائدة ترجى منه. ظللت أقاوم جهود خالتي وفنجان القهوة الذي قدمه لي حميد. قلت لهما إنني سأذهب إلى مركز إصلاح أجهزة الكمبيوتر في بايتاخت بنفسي لإصلاحه، لكنّي لمت نفسي لأنني قلت ذلك على الفور. كيف يمكنني أن أذهب إلى هناك؟ لأن بايتاخت تقع خارج المدينة حيث تنخفض حركة المرور كثيراً، وقد ساهمت الخطّة المطبقة أخيراً بالسماح للسيارات ذات أرقام اللوحات المفردة والمزدوجة، بين يوم وآخر، في تخفيض الذهاب إلى هناك أكثر.

ومع مَن أذهب؟ لماذا عليّ أن أضيّع فترة قبل الظهر، بل الأكثر من ذلك أن أقوم بتصليح الكمبيوتر بينما يحتمل ألّا تستخدمه أبداً، وأنها ستعطيه لحميد؟

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عزمت على الذهاب إلى بايتاخت، وليحدث ما يحدث. حظّ سيئ.

عاد حميد إلى المطبخ حاملاً صينية القهوة. كنت أعرف أنه لن يجلب البيرة مرة أخرى.

رنَّ هاتفي.

«أنا الدكتور أسكارنيا». أتاني صوت، «مراد آغا أعطاني رقمك. بماذا يمكنني أن أخدمك؟»

أخبرته أنني يجب أن أعود إلى فرنسا بأسرع وقت ممكن لحضور مؤتمر، وأن جواز سفري سينتهي وأنني لا أعرف كيف يعمل النظام الجديد، وقلت له إنني لا أستطيع أن انتظر في طابور طوال الليل أمام مكتب جوازات السفر، ولا يمكنني أن أنتظر شهراً كاملاً.

فأجاب، «إن مراد آغا وحسن آغا أخوان لي. سأبذل كل ما بوسعي لتنفيذ طلباتهما».

عندما بدأ يتحدث عن علاقتهم العائلية، عرفت في الحال أن عليّ أن أدفع له، حتى لو كان مبلغاً كبيراً. لم أجرؤ على سؤاله كم سيكلّف ذلك لأنه سيغلق الهاتف في وجهي حتى لو لم يطلب مني أي مبلغ - وبالتأكيد فقد كان على وشك أن يفعل ذلك.

«انتظريني غداً أمام البوابة الرئيسية للمكتب المركزي لجوازات السفر في شاهرارا عند الساعة التاسعة صباحاً»، قال لي الدكتور أسكارنيا.

فقلت «لكن تجديد جوازات السفر يجري الآن في المكاتب المحلية فقط».

«أعرف، أعرف. لكن الضابط الذي أعرفه يعمل في مركز

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

شاهرارا. يجب أن نذهب إلى هناك. ستعرفينني مباشرة. أنا أشبه داريوش لكني لست طويل القامة مثله»، قال موضحاً.

واو. هذه الإشارة إلى داريوش - المغني والنجم المشهور في السبعينيات، معبود طفولتي - يقصد أن الدكتور أسكارنيا لا ينتمي إليهم، وإلّا لما ذكر داريوش، وقلت في نفسي إنني إذا رأيته غداً، فقد أشعر بارتياح كبير.

شكرته وأكدت له بأنني سأكون هناك عند التاسعة صباحاً.

دخلت إلى المطبخ لأقول لخالتي في المطبخ بافتخار: إنني نجحت أخيراً، بجهودي الخاصة، في تجنب الوقوف في طوابير مستحيلة لتجديد جواز سفري. لكن الصوت الصغير في داخلي - صوتي الداخلي، الصوت الذي يقوم مقام صوت أمّي منذ أن توفيت - يحذّرني من المجازفة بأن أسلّم جواز سفري إلى دكتور يشبه مطرباً، أوصى به مصوران في أستوديو إكباتانا لم يمض على تعرفي عليهما أكثر من أربع وعشرين ساعة، ولا أعرف ما إذا كنت سأنجح أم لا لكن افتخاري بإحساسي باستقلاليتي، والتهرب من أصدقاء ومعارف خالتي والمكائد التي قد ترافق ذلك، جعلتني أتجاهل صوتي الداخلي.

«سأذهب إلى شاهرارا غداً، ثم إلى بايتاخت».

كدأبها تحكي خالتي لزوجها كلّ ما يجري. فعندما كانا يعودان إلى البيت بعد حفل عشاء في المدينة عندما كان لا يزال قادراً على المشي، كانت تصف له بأدق التفاصيل ما جرى في تلك الأمسية التي عادا للتو منها. كانت تذكر له كلّ شيء: أسماء المدعوين، الألبسة التي يرتدونها والأحذية التي ينتعلونها، وكيف كان الطعام... كانت خالتي تعيش دائماً كلّ شيء مرتين. وحتى قبل زواجها، عندما كانت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تعود إلى البيت من السينما مع صديقتها، كانت تحكي لها قصة الفيلم الذي كانتا قد شاهدتاه للتو.

مع أن النعاس كان يغالب زوج خالتي، هرعت إليه خالتي لتحدّثه عن جرأتي. ومنذ أن أصيب بالشلل فقد وضع جميع أحاسيسه في حالة غياب، فقد ارتعش صوته، وزاغت عيناه الخضراوان، ولم تعد أذناه تسمعان شيئاً. لكن ما إن سمع قصّتي، حتى انتصب في جلسته قليلاً، وسعل قليلاً، وقال أخيراً بصوت ثابت إنه يريد أن يعترض على قراري.

زوج خالتي يخاف من كلّ شيء. لقد أمضى عمره خائفاً. وبالرغم من صدقه المتميز - ربما بسبب خموله لأكثر من أربعين سنة - فقد كان يخاف من السافاك، جهاز الأمن السري في عهد الشاه، تماماً كما أصبح يخاف الآن من بطش الجمهورية الإسلامية. فكلّ عملية تجديد جواز السفر كانت تُترجم إلى أسبوع من القلق والأرق وساعات كثيرة يمضيها بين ذراعي خالتي التي تهدهده وتهدئه وتشرح له بصبر شديد بأن أحداً لا يهدده على الإطلاق. وعندما كان يضطر إلى الذهاب إلى مكتب جوازات السفر المركزي - المكان الذي يجب أن أذهب إليه في الساعة التاسعة من صباح يوم الغد للقاء الشخص، الصورة طبق الأصل، لكن على نحو أقل بقليل، للمغني داريوش - كان يصرّ على أن يرافقه أحد الأقرباء أو الأصدقاء. ومع أنهم لم يكونوا ذوي فائدة بالنسبة له، كان يقدم لهم مبلغاً من المال لقاء مرافقتهم له.

إذاً فإن تجديد جواز السفر مسألة في غاية الخطورة بالنسبة لزوج خالتي، بل تكاد تشكل مأساة تقتضي منه أن يستفّ حبوباً منومّة قويّة، وأن يكون برفقته شريك متعاطف وبعض الأصدقاء المخلصين. ولم

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يكن يصدق الفكرة بأنني سأخوض كلّ هذه المعركة وحدي. وبعد ديباجة طويلة لا علاقة لها بالموضوع عن كيف أن الإنكليز لن يتركوا إيران وشأنها، ظل يبدي رفضه التام لما أزمع القيام به. وكانت خالتي تهز رأسها موافقة كلما قال شيئاً.

إن الفصل المتعلق بإنكلترا ضروري لأن زوج خالتي ينتمي إلى ذلك الجيل من الإيرانيين الذين كانوا يرون اليد السرية للتدخل الإنكليزي في كلّ شيء - لا في إيران والشرق الأوسط فحسب، بل كذلك في أوروبا والولايات المتحدة. إن الإنكليز في كل مكان. إنهم يحكمون العالم. وفي رأي زوج خالتي، فليس الرئيس الأمريكي إلا دمية في يد رئيس الوزراء البريطاني يحركها كما يشاء، ولا يتّخذ أيّ قرار إلا بعد استشارته. ولا يتصرّف الكنيست إلّا وفق التعليمات التي يصدرها مجلس اللوردات، كما هو حال حزب الله اللبناني وآيات الله في إيران. لذلك لا جدوى من سؤاله: «في هذه الحالة، لماذا يحارب أحدهم الآخر؟»

فغضب وأجاب بحدة، «أظن أني أتكلّم باللغة الفارسية، أليس كذلك؟»

رافضة إمكانية قبضة بريطانيا الخانقة على مكتب جوازات السفر المركزي في إيران (الذي أعتبره شيئاً لا يحتمل)، أعلنت لزوج خالتي مرة أخرى بأنني يجب أن أجدد جواز سفري.

فقاطعني قائلاً: «أنا ضد ذلك. إني أتكلّم باللغة الفارسية، أليس كذلك؟»

وعادت يداه ترتجفان، وارتخى جسمه وتهاوى. لقد عاد إلى موقعه المشلول. عرفت عندها أن المناقشة قد انتهت.

بغية تحييد التحذيرات الملحّة التي كان صوتي الداخلي يبعثها،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان علي أن أحظى بموافقة أي شخص. ومن المؤكد أنني لن أجدها عند خالتي التي لا تخالف زوجها قط. ومع أن الوقت كان متأخراً، فقد كنت أعرف أن باستطاعتي الاتصال بنرجس. وهذا ما فعلته. كانت في سيارتها: كانت قد اشترت من إحدى المكتبات بعض الكتب التي طلبتها منها صديقة لها تقيم في باريس، وهي في طريقها الآن إلى بيت مضيفة ستسافر غداً إلى فرنسا. تصرّفت بالنيابة عن صوتي الداخلي وشرحت لها باختصار مخاوفي: وجدت نفسي محاطة فجأة بغرباء يحملون كراسيّ، ويرتّبون لي لقاء مع أحد الأشخاص في الشارع في اليوم التالي.

في وسط الشتائم التي راحت تكيلها على المشاة والسائقين الآخرين، وافقت نرجس على خطتي، وقالت: «ليس هناك شيء يمكن الخوف منه.. يا ابن القحبة، أبطئ قليلاً! دعني أمرّ! عندما تذهبين إلى هناك أسألي هذا الدكتور أيضاً عمّا إذا كان بإمكانه أن يساعدك على الحصول على بطاقة الهوية الوطنية».

على الفور رفضت فكرة الحصول على بطاقة الهوية الوطنية الشهيرة. وبحسب الدكتور بشيري وحميد وخالتي، فإن الخطوة الأولى - التي تتضمن الذهاب إلى البنك المركزي لتسديد مبلغ معين لتسجيل بطاقة الهوية هذه - تعني الوقوف في طابور طويل من البشر لمدة لا تقل عن ست أو سبع ساعات. بطاقة الهويةالوطنية، *بعدان*، *بعدان*، كنت أقول لنفسي دائماً، لذلك فإني أكره الحصول على هذه الوثيقة التي من دونها لا يمكنك القيام بأي عمل قانوني في الحكومة. لا، لن أسأل داريوش عن بطاقة الهوية الوطنية. إن ما أريد الحصول عليه هو جواز سفر فقط.

«شيء واحد أخير»، قلت لنرجس.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لا بد أنها وصلت إلى شقّة المضيفة، لأنني أصبحت أسمعها ترحب بها.

«ماذا؟» عادت تكلمني.

«ما المبلغ الذي يجب أن أعطيه إياه؟»

«لا شيء! لا تعطه شيئاً على الإطلاق! عندما يسلمك جواز سفرك الجديد، اسألي المصورين. الآن، لا تدفعي له شيئاً».

أسمعها تقول للمضيفة ولزوج الفتاة بأن شخصاً يشبه داريوش، لكنه أقصر قليلاً، عرض أن يساعدني على تجديد جواز سفري. أردت أن أغلق الهاتف بأسرع ما يمكنني لأنني خشيت من ردّة فعلهما، بل من ضحكاتهما الساخرة.

ودعتها. كانت آخر كلمة قالتها نرجس بحزم: «لا شيء، هل تسمعينني؟ لا تدفعي له شيئاً».

بعد قليل رنَّ أحدهم جرس الباب. إنها إحدى القريبات الشابات. أعادت ابنتي التي كانت قد أخذتها إلى مدينة الملاهي في المساء مع ابنها. يبدو أن كلّ شيء يسير على ما يرام.

أحسست بالإرهاق. أخذ حميد سيارة شقيقه وأوصلنا بها إلى البيت. كانت كيارا تغط في النوم.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الاثنين

ما إن استيقظت على صوت المنبّه في الصباح، حتى رحت أدقق جميع الوثائق لديّ: الصور وفق الطريقة الإسلامية، وكارت ملي (بطاقة الهوية الوطنية) (التي ستصبح قديمة بعد فترة وجيزة) ورقم بطاقة الهوية الجديدة الذي حصلت عليه بأعجوبة على الهاتف بمجرد ذكر تاريخ ميلادي. ارتديت ثيابي وفق الطريقة الإسلامية المفروضة: بنطلون فضفاض، معطف طويل، غطاء رأس واسع، ووضعت مسحة خفيفة من المكياج - أحمر شفاه لا يكاد يكون مرئياً، لإرضاء ذاتي - ثم اتصلت بمكتب سيارات الأجرة وطلبت سيارة.

عندما صعدت إلى سيارة الأجرة، أعلمت السائق بالمكان الذي سيأخذني إليه «مكتب جوازات السفر المركزي في شاهرارا، من فضلك».

أصبح العمل لدى مكتب سيارات الأجرة، أيْ أن تصبح سائق سيارة أجرة، وظيفة ثانية بالنسبة للكثيرين من سكان المدن في إيران. ومن دون أن تعلم، فقد يكون السائق الذي يوصلك أستاذ رياضيات لا يكاد يعادل راتبه الشهري مئتي جنيه بينما يتجاوز إيجار شقّته المؤلفة من غرفة واحدة هذا المبلغ بكثير. وقد يصادفك سائق يكون قد وصل مؤخراً إلى العاصمة ولا يتكلّم إلّا اللغة التركية، وهي لغة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يتحدث بها أكثر من ثلث سكان إيران (مع أن قلة قليلة من الإيرانيين يعرفون ذلك).

في إحدى المرات، عندما كنت عائدة من حفلة، صعدتُ إلى سيارة أجرة لم يكن سائقها مرئياً. فلم يكد رأسه يرتفع عن المقود، لأنه دفع المقعد إلى الخلف كثيراً وخفض مسند الرأس. وكانت رائحة الحشيش تعبق في السيارة. كانت تلك هي المرة الثانية التي يتدخل فيها صوتي الداخلي، محاولاً أن يثنيني عن الصعود، لكنّي كنت قد فتحت باب السيارة وصعدت إليها وحييت السائق المستلقي أفقياً. لقد تغلب الخجل أو المجاملة على صوتي الداخلي، فأخذت مكاني في المقعد الخلفي وأخبرته بالعنوان بسرعة. انطلق من جهاز إم بي ٣ مثبّت على لوحة العدادات في السيارة موسيقى العصر الجديد، وكانت هناك شاشة تظهر عليها خطوط عديدة تفسر الأصوات الموسيقية بصرياً.

«هل تعرفين شيئاً عن موسيقى العصر الجديد؟» سألني السائق المستلقي، دون أن يحاول إخفاء لا مبالاته وفتوره، ولم يستخدم معي أسلوب التخاطب الرسمي. ولكي لا أريق ماء وجهي، أجبت بسرعة، «هل لديك شيء لبيتر غابرييل؟»

ممدداً بهذا الطريقة، تساءلت كيف يمكنه أن يقود السيارة، وبدأ الندم يعتصرني لأن خجلي انتصر على صوتي الداخلي. مدّ يداً وتناول جهاز التحكّم من المقعد بجانبه (لأن وضعيته المسترخية لا تمكّنه من الوصول إلى لوحة العدادات) ووضع على الفور موسيقى لبيتر غابرييل. وفي الطريق رحت أتساءل ترى ما هي الوظيفة الأخرى للسائق: عازف دي جي في نادٍ ليلي سري، أم نادل في مونسون، حانة بوذا المحلية؟

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أما سائقي اليوم، فله شارب كثّ، ولم يحلق لحيته منذ ثلاثة أيام، وهذا يعني أنه يطبق القانون الإسلامي الذي ينص على ألّا يحلق الرجل ذقنه تماماً (لم أفهم سبب ذلك).

«لم يعد بإمكانك أن تجددي جواز سفرك في شاهرارا»، قال محذراً، «يجب القيام بذلك في أحد المكاتب المحليّة».

فقلت: «نعم، أعرف»، ولم أقل شيئاً آخر. كنت أخشى أن أفتح معه حديثاً، لأنني إذا فعلت فقد يقنعني بأن لا أرى داريوش، بل قد يقترح عليّ خدمات شخص آخر. اتصلت بي خالتي التي لا تكفّ عن ندب سوء حظها من سائقي سيارات الأجرة، لتخبرني أنها في سيارة أجرة الآن، وأن جار ابن عم السائق يعمل حارساً شخصياً للمرشد الأعلى، وأنه يستطيع أن يكلّمه عن الالتماس الذي كنت قد قدمته منذ فترة طويلة - بشأن أراضينا المصادرة في مازاندران في شمال إيران، والتي أسعى إلى استعادتها منذ سنوات - وقد يكون بإمكان هذا الرجل، جار ابن عم السائق، أن يتوسط من أجلي.

وهكذا لم أقل شيئاً آخر. عندما وصلنا إلى شاهرارا طلبت منه أن ينتظرني طوال فترة الصباح. ترجلّت من السيارة ورحت أنتظر داريوش، الذي يشبه شبهاً تاماً المغني الأجنبي، أمام بوابة المبنى. لم أكن أعير الناس الذين يمرون أمامي أيّ انتباه. لم يكن أحد منهم يشبه معبود طفولتي. جلست فوق بعض الأنابيب المتبقية من أعمال بناء قريب، ووجدت نفسي أغنّي أشهر أغنية لداريوش.

غنّيت كلمات الأغنية كلها - من بدايتها حتى نهايتها. كنت سعيدة لأنني خنقت صوتي الداخلي مؤقتاً، الصوت العارف والواعي الذي يحذرني من الأخطار.

تأخر داريوش. اتصلت به على هاتفه. أكّد لي أنه سيكون هنا

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بعد عشر دقائق. بعد نصف ساعة رأيت حقاً صورة مشابهة تماماً لصورة داريوش وهو يترجل من شاحنة صغيرة: نفس اللحية الكثّة، نفس الحاجبين المتناثرين، نفس الأنف الأنيق، وهو أمر قلما تراه في شخص إيراني، ونفس الابتسامة الحزينة، لكنه أقصر. لكنّي حُذّرت من ذلك. وقفت وحييته -دون أن أصافحه. راح يتكلّم بتدفق كما لو كان يحدّث صديقاً قديماً، وهو يتناول حقيبته من مقعد شاحنته الخلفي.

«الآن يجب أن نأخذ استمارة»، قال لي.

نظرت عبر السياج إلى الطابور الطويل الممتد حتى الكوة التي يوزعون منها الاستمارات، وعرفت أن علينا الانتظار لساعات طويلة. وحتى دون أن ينظر في ذلك الاتجاه، طلب مني داريوش أن أتبعه. توجّهنا باتجاه باب مصرف غير بعيد رُكنت أمامه سيارات تحت لافتة كُتب عليها **ممنوع الوقوف. سيتم سحب كلّ السيارات.**

هنا يبيع رجلان استمارات بالسر. قال لي داريوش الذي أستخدم اسمه الحقيقي الآن، الدكتور أسكارنيا، أنني يجب أن أشتري منهما استمارة، ثم قال: «عندها لن نضطر إلى الوقوف في الطابور».

دفعتُ ثمن الاستمارة. كان ثمنها أكثر من سعرها القانوني بخمسين ضعفاً، بذريعة أن الرجلين يملآن الاستمارة أيضاً. إنهما يعرفان كيف يملآنها.

ثم طلب مني الدكتور أسكارنيا أن أعطيهما جواز سفري. هذه المرة، لم يتوفر للصوت الداخلي وقت للاحتجاج حتى بالردّ بأنّني أعرف كيف أملأ الاستمارة بنفسي.

يبدو أن داريوش لم يقتنع.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فقال بإصرار «إنهما معتادان على ذلك. وهما يعرفان كيف يجيبان عن الأسئلة بمهنية».

تساءلت عن طريقة الهواة في ملء الفراغات المؤشّر عليها: «العنوان واسم الأب...».

وأضاف «وهما يكتبان بخط واضح»، وأخذ جواز سفري.

أقنعت نفسي. أسند أحد الرجلين الاستمارة إلى صندوق السيارة الخلفي وراح يملؤها. رحت أراقبه لكي لا يرتكب أي خطأ. عندما وصل إلى سؤال «المهنة» كتب الرجل بشكل تلقائي «ربّة منزل»، فقلت محتجة: «إني أحمل شهادة دكتوراه وألقي محاضرات في الجامعة وأحضر مؤتمرات وأنشر كتباً».

فقال داريوش ساخراً: «هذا ما ينقصنا - أن تضعي «كاتبة»»، ثم أضاف، «ألا ترين؟ عندها لن يكون تسريع طلبك مستحيلاً، بل ستضطرين إلى الانتظار لفترة طويلة، طويلة جداً، حتى قبل أن ينظروا في ملفك! فكّري في الأمر».

عنده حقّ. بدأتُ أدرك الآن أن هناك فعلاً طريقة محترفة للإجابة عن الأسئلة التافهة في الاستمارة. وعندما وصل إلى السؤال «سبب السفر» كتب «للسياحة».

«هذا خطأ» همستُ لداريوش، «سبب سفري هو أنني سألقي محاضرة في مؤتمر عن العلاقة بين البوذية والصوفية الإيرانية».

لم يعر داريوش تعليقي أي اهتمام، بل شجّع الرجل وقال له: «صحيح، صحيح، تابع».

ثمّ نظر إليّ فجأة، وحدّق بي لخمس أو ست ثوانٍ، ثم قال بصراحة: «إنكِ مصابة بعوز المغنيزيوم. إنك لا تنامين جيداً، أليس كذلك؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في واقع الحال عندي عوز المغنيزيوم، لكنّي أنام جيداً. من دون أن أرفع عيني عن الاستمارة التي كانت تُملأ بسرعة كبيرة، قلت له إنني أتمتع بصحة جيدة.

فقال بإصرار: «أنا طبيب. من الواضح أنك لا تنامين جيداً».

فجأة، كما لإثبات صحة ما يقوله، شعرت برأسي يدور وضغط دمي ينخفض. لوهلة خيّل إليّ بأنه ربما كان عليّ أن أعترف بأن ضغط دمي ينخفض كثيراً وأصاب في أحيان كثيرة بالدوار.

لكن صوتي الداخلي قاوم هذا الاعتراف. هذا صحيح. يجب ألّا أكشف نقاط ضعفي لهذا الرجل. فلم أنبس ببنت شفة.

انهى الرجل ملء الاستمارة. أصبحت الآن ربّة بيت إيرانية ستذهب إلى باريس للسياحة. ولكي أعالج هبوط ضغط دمي، رحت أفتش في حقيبتي عن حبة سكاكر. هنا تواجهني مشكلة: فليس في حقيبتي سوى قطعتين فقط. فبالإضافة إلى الرجلين، نحن أربعة. فقبل أن تتناول أيّ شيء، تفرض عليك العادات والتقاليد أن تقدم ما يوجد لديك إلى الأشخاص المرافقين لك، وبما أنني لا أستطيع أن أقسم قطعتي السكاكر إلى نصفين، تخلّيت عن الفكرة، وفضّلت أن ينتابني الدوار على أن تتدبق أصابعي.

أخيراً، تركنا الرجلين وعدنا إلى البوابة. لكن ما إن اقتربنا من البوابة حوالي ثلاثة أمتار، حتى ظهر أمامنا فجأة رجل وراح يكلّم داريوش.

«لقد جئت إلى هنا اليوم خصيصاً لأراك».

كان الرجل في الثلاثين من عمره تقريباً، له شارب كثّ. وكانت ياقة قميصه التي لا بد أنها كانت بيضاء ذات يوم، مزررة إلى الأعلى بدقة. كان بنطلونه قصيراً لكن حذاءه يلمع.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أوحى إليّ صوتي الداخلي بأن داريوش يلتقي بزبائنه على الرصيف خارج مكتب جوازات السفر المركزي في الساعة العاشرة من صباح كلّ يوم. هل هذا طبيعي؟ ألا يجب أن أبدي شيئاً من الحرص؟ لكني لم أكترث لأيّ من هذه التحذيرات، مع أن داريوش اندفع نحو الرجل وصافحه بحرارة. اسمه مجيد، هذا على الأقل ما ناداه به داريوش.

قال له: «عزيزي مجيد، لم أعرفك مباشرة. ماذا جرى لك؟ إنك لا تبدو في حالة جيدة».

صوتي الداخلي ضيّق الأشياء قليلاً: لا يرى داريوش زبائنه خارج مكتب جوازات السفر في الساعة العاشرة تقريباً من صباح كلّ يوم، بل يرى مرضاه.

«افتح فمك، مدّ لسانك».

فعل مجيد ما طلبه منه. حاولت عبثاً ألّا أنظر إلى أسنان مجيد المليئة بالحشوات ولسانه الغليظ. بعد هذا الفحص السريع، أمسك المريض بيد داريوش.

«حضرة الدكتور»، صاح «أرجوك ساعدني، أتوسل إليك. ليست صحتي هي المشكلة. أنت كلّ ما أملك. أنت الوحيد من يمكنه مساعدتي».

طلب مني داريوش، الاسم المستعار للدكتور أسكارنيا، أن استميحه عذراً وقال إنها *Force majeure* (ظروف قاهرة) لفظها بالفرنسية لكن بلكنة فارسية ثقيلة.

عدت وجلست فوق الأنابيب، ورغماً عني استمعت إلى الحديث الدائر بينهما. وبالرغم من عدم معرفتي بأي منهما، لم أتمكن من أن أتركهما قبل إكمال حديثهما.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«حضرة الدكتور، استمع إليّ. . . إني بحاجة ماسة إلى عين».

يبدو أن داريوش لم يفاجأ بما قاله.

«هل معك قلم وورقة؟» سأله على الفور.

استلّ مجيد من جيب سترته دفتر ملاحظات مهترئاً وأعطاه له. خربش داريوش بضع كلمات، ثم قال له: «اذهب على الفور لرؤية الدكتور ساهابي وقل له إنك من طرفي. ساهابي. هذا هو عنوانه. لا يوجد معي رقم هاتفه. إذا لم تسمح لك سكرتيرته بالدخول، فاطلب منها أن تتصل بي. لقد دوّنت رقم هاتفي هنا. هل يمكنك أن تفهم خط يدي؟»

أبعدت عملية البحث عن العين حذر صوتي الداخلي. بدأ عقلي يعمل بسرعة، وراح يتساءل من هو داريوش هذا. هل هو طبيب حقيقي؟ أم مهرّب أعضاء؟ أم مجرد نصّاب يحاول أن يبهرني بهذه التمثيلية ليرفع ثمن الخدمة التي سيسديها لي؟

تملكتني الرغبة في أن أتصل بنرجس، لكني قاومت هذه الرغبة.

نظر مجيد إلى داريوش الذي كان لا يزال يخربش في دفتر الملاحظات. بدا أنه لم يكن مقتنعاً. فأشار داريوش إلى اسم الدكتور ساهابي الذي دوّنه وراح يشرح له، «لا تنس أن تخبره بأن المشرحة سترسل له عينين جديدتين صباح الغد، وأن يعطيك عيناً من تلك الموجودة عنده. تأكد من أن تقول له ذلك. فهمت؟ إني على يقين من أن لديه عيوناً. بالتأكيد، بالتأكيد. إني أكفل ذلك بنفسي».

كنت لا أزال جالسة فوق الأنابيب المتبقية من عملية بناء سابقة. كان كلّ ما عليّ أن أفعله هو أن أنهض وأبتعد وأترك الرجلين وحدهما، وأصعد إلى سيارة الأجرة التي تنتظرني على الجانب الآخر من الشارع، وأعود إلى العالم العاقل، العالم الطبيعي الهادئ، العالم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الذي لا يمكنك أن تتفاوض فيه على عينين - كاملتين بالإشارة إلى المشرحة -خارج مكتب جوازات السفر المركزي. لكن بالرغم من ذلك، لم أتزحزح من مكاني.

«هل أنت واثق من أنه سيعطيني العين، هكذا من دون وصفة طبية؟»

«نعم. لكن يجب أن تقول له إنك تعرفني. اطلب منه أن يتصل بي إذا كان قلقاً من أيّ شيء»، أضاف ثمّ التفت إليّ وكرّر عبارة *ظروف قاهرة*.

بدأت أتوق لمعرفة ماذا يريد مجيد أن يفعل بالعين. لعل داريوش كان أيضاً يريد أن يعرف السبب لأنه سأل في النهاية «بالمناسبة، لمن تريد هذه العين؟»

«حضرة الدكتور، قبل أسبوع أحضرتُ اثني عشر شخصاً من اللور لإنهاء بناء السقف في البناية التي أشيّدها». واللور هم سكان إقليم فقير في شرق إيران يدعى لورستان، وتتدفق منهم أعداد كبيرة إلى العاصمة للعمل فيها، وهم على استعداد لأداء أي عمل يطلب منهم.

«أهنئك من كل قلبي يا مجيد. إنك تبني عمارة إذاً؟»

«نعم».

«وعمارتك هذه أين موقعها؟»

«أوه، إنها ليست من النوع الذي يناسبك يا دكتور. إنها ليست جديرة بمقامك. إنها عمارة صغيرة مؤلفة من ستة طوابق فقط في منطقة مجيديه».

«لا يهم... جيد، جيد، أكمل».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«أحد أولئك العمال اللور لم يكن يعرف كيف يتعامل مع الإسمنت فقرّب وجهه كثيراً من خلاطة الإسمنت، فاحترقت كلتا عينيه. نقلته مباشرة إلى قسم الإسعاف لكنّهم قالوا إن الأوان قد فات. وهو يطلب مني الآن تعويضاً بمبلغ اثني عشر مليون تومان، وعين واحدة على الأقل».

حوّلت المبلغ في رأسي إلى يورو. يبلغ حوالي اثني عشر ألف بسعر اليوم.

بما أن معرفتي الطبية محدودة فلم أكن أعرف إن كانت هناك إمكانية لزرع عين لشخص احترقت عينه وفقد بصره. لم أتحرّك من مكاني. قد يتهاوى العالم وأنا لا أقوى على أن أتركهما. كان كلّ ذلك يجري في هذه اللحظة بالذات على هذا الرصيف، خارج مكتب جوازات السفر المركزي، بين طبيب ومتعهد بناء يناقشان مسألة إعطاء عين. لم أشأ أن أفوّت أي شيء. لن أتصل بنرجس. بالتأكيد.

«لقد تمكنت من جمع الاثني عشر مليون تومان»، تابع مجيد كلامه، «كان ذلك أمراً في غاية الصعوبة، لكني تمكنت من جمعها الآن. لكن يا حضرة الدكتور، هل لي أن أضحّي بنفسي من أجل وجهك الجميل وحده - فلولاك ولولا هذه العين لدخلت السجن».

«أيها المحتال، مجيد آغا. أحسنت أيها المحتال. فأنا أقتل نفسي في العمل وأكافح للحصول على كسرة خبز وأنت، يا بني، تستطيع أن تجمع اثني عشر مليون تومان في أقل من أربع وعشرين ساعة؟»

«لقد اقترضتها! لقد رهنت بنايتي المسكينة، لا بل بعتها سلفاً».

«بكم طلبت سعر المتر المربّع؟»

«مليون ومئتا ألف تومان».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«كلّ هذا المبلغ؟ في مجيديه؟»

«حضرة الدكتور، لقد اشتريتها وهي لا تزال على المخطط من ابن عم لي، هل ترى ذلك؟ وكلفت مهندساً معمارياً لبنائها، رجل مؤهل من إسبانيا؟»

«وماذا يعني ذلك؟»

فجأة، لم يعد الأمر يتعلق بالعين، أو بعامل البناء اللوري الذي أصيب بالعمى والذي جاء من بلدته التي تعيش ظروفاً قاسية للغاية حالماً بحياة أفضل. بل أصبح الحديث كله يدور حول أعمال البناء.

«عندما ينتهي العمل»، قال مجيد، «سأدعوك لرؤية البناية. أنا لم أزر إسبانيا في حياتي، لكن بعض الذين ذهبوا إلى هناك، مثل أمير آغا، الجزّار، يقولون إنهم شاهدوا فيها بنايات تشبه البناية التي أبنيها؟»

لا أعرف المكان الذي زاره الجزّار أمير آغا في إسبانيا، أو أي شيء يشبّه بناية مجيد: معبد العائلة المقدسة في برشلونة؟ قصر الحمراء؟ متحف بيلباو؟ وهنا أتخيّل ظهور عمارات طبق الأصل لمبنى *بيدريرا* للمهندس المعماري أنطونيو غاودي في شوارع مجيديه التي تقطنها الطبقة العاملة. صدقاً لن يفاجئني ذلك الآن، لأن طهران أصبحت مزيجاً من البنايات التي يلقي بها هنا وهناك مهندسون معماريون لا يتمتعون بأدنى شعور بالمسؤولية. عرض مزيج لا يتمتع بأي قدر من الإلهام من أسوأ المباني المتناثرة هنا وهناك. فعلى سبيل المثال، تنتصب قبالة العمارة التي أقيم فيها بنايات من طابقين شُيّدت كل منها بتصميم مختلف، ونُحتت على أعمدة البنايتين الأولى والثانية، على غرار بيرسيبوليس (مدينة في فارس القديمة، شمال شرق شيراز)، أشكال (في غاية البساطة) لجنود من الدولة الأخمينية

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المكرّمين بشعرهم المجعّد وأنوفهم المعقوفة. أما الطابقان الثالث والرابع، فقد زُينا بشرفات خشبية تستحضر الشاليهات في سويسرا أو النمسا، وتتدلى من النوافذ أحواض من نبات إبرة الراعي، تشكّل تهديداً مستمراً للمشاة في الأسفل الذين لا حول لهم ولا قوة. أما الطابقان الخامس والسادس، فإنهما يشبهان غرفة علوية في ناطحات السحاب في نيويورك، ويشبه الطابقان السابع والثامن معبداً يابانياً. وأخيراً، يُتوّج الطابق التاسع بهرم يشبه الهرم المصري على نحو مشوّه.

وحتى في عهد الشاه، لم تكن طهران عاصمة تلفت الأنظار. إذ يعود تاريخ المدينة إلى القرن الثالث عشر وسلالة قاجار - عهد أصبح من الواضح أن الفنّ والحضارة الإيرانيين قد بدآ يتهاويان خلاله. ولا يوجد حتى في المباني القليلة القديمة المتبقية في طهران، شيء مميز بالمقارنة مع الصروح الرائعة والخالدة في أصفهان وشيراز ويازد، وهذا غيض من فيض. وفي إحدى المرات، أراني مهندس معماري عصري آخر إبداعاته - عمارة عالية بثلاثين طابقاً - وأذكر أنني لاحظت بقدر من الدهشة أن جميع الغرف تنتهي بزوايا حادّة: مما يجعل من المستحيل وضع سرير أو أريكة إزاء أيّ جدار. واعترف، بإحساس لا يخلو من الكبرياء، بأنه واجه صعوبات جمة لبناء - بل استخدم كلمة «خلق» - تلك البناية.

وقال لي: «لم يأتني أيّ إلهام حقيقي إلا بعد أن خطرت لي فكرة فراشة. كما ترين، يا عزيزتي نهال، فقد صُمِّم البرج على شكل جناحي فراشة».

«حقا؟»

شعرت بالأسف، لكني لم أقل له ذلك، بأنه لم يستلهم تصميمه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بكل بساطة من المساكن البشرية، مهما كان شكلها. ولا أظن أن الفراشات جاءت لترى هذا المكان.

ومع أنها كانت قبيحة الشكل، لم يكن ارتفاع المباني التي شُيّدت في عهد الشاه يزيد على عشرة طوابق، وكانت البيوت في المناطق السكنية، المدفونة في حدائق واسعة، متحفظة وعادية. وكانت المنطقة الجنوبية من طهران فقيرة، تقع الدوائر الحكومية والإدارية في وسطها، أما المنطقة الشمالية فكان يقطنها الأغنياء. ولم تغير الثورة هذا التوزيع السكاني، بل جاء التغيير نتيجة ازدياد عدد السكان: فقد ارتفع عدد سكان العاصمة من ثلاثة ملايين نسمة إلى اثني عشر مليون نسمة خلال ثلاثين سنة. ونتيجة لذلك، فما كان يسمى الشمال أصبح المركز تقريباً. وامتد الشمال اليوم حتى جبال ألبرز التي تطل على المدينة وأصبح الإسمنت يتسلّق إليه الآن، وامتزجت المنطقة الغربية عند منتجع قره داغ تقريباً، واتجهت المنطقة الجنوبية مباشرة نحو بوابات مقبرة بهشت الزهراء التي دفنت فيها جثامين شهداء الحرب الإيرانية العراقية، والأهم من ذلك، التي يقام فيها ضريح الإمام الخميني.

يندر حالياً أن تصادف في الأحياء الشمالية ذلك النوع الحقيقي من الحدائق التي كانت منتشرة عندما كنت طفلة، تلك الحدائق ذات الممرات الواسعة المليئة ببرك الماء. وقد صادر النظام الإسلامي تلك البيوت البيضاء الكبيرة التي شيّدت في أربعينيات القرن الماضي أو التي بيعت إلى متعهدي بناء قطعوا الأشجار القديمة الضخمة، ثمّ أقيمت في مكانها - في فضاء كانت تعيش فيه أسرة مؤلفة من خمسة أشخاص وخادمين أو ثلاثة - بناية مؤلفة من عشرين طابقاً يقطنها أربعمائة شخص. أما الشوارع الضيّقة التي كانت تتسع في الماضي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لسيارات أفراد الأسرة الأربعة أو الخمسة، فقد أصبح عليها أن تستوعب الآن أكثر من ألفيْ سيارة في اليوم (إلا إذا كنت مخطئة في حساباتي) ويأتي هذا فقط من حساب عدد البيوت في كلّ شارع. وإذا قرر أحد هؤلاء السكّان المحظوظين أن يقيم حفلة في بيته مساء يوم الخميس (الذي يشبه مساء يوم السبت في الغرب)، فيجب مضاعفة عدد السيارات المركونة وزيادة حركة المرور بخمسة أو ستة أضعاف.

وفي خضم هذا الجنون الفوضوي في البناء، ساهم كلّ شخص في تقديم ذائقته الرديئة. ولن أنسى قط التعليق الذي قالته أمّي ذات يوم: «لقد أصبحت طهران جميلة أخيراً لأنه أصبح فيها الآن على الأقل *انسجام* في بشاعتها. لقد أصبح كلّ شيء بشعاً لكن على نحو متجانس». كانت محقة في كلامها. فقد كانت نادراً ما تخطئ.

تقع منطقة مجيديه في شرق طهران. كان السائق الذي يعمل عندنا آنذاك يعيش في تلك المنطقة، والمرة الوحيدة التي زرتها فيها كانت لحضور عرس أخته. كان ذلك في الخريف. كانت الشوارع ضيّقة تعجّ بفتيان ذوي رقاب نحيلة هشّة، وسيقان رفيعة، وشعر مجعّد متشابك، على حد قول شاعرتنا العظيمة فروغ، وبنساء يتلفعن في عباءات وهن عائدات إلى بيوتهن من السوق، يحملن في أيديهن سلالاً بلاستيكية حمراء، وبفتيات يرتدين لباساً موحداً أزرق بشعورهن المسدلة على أكتافهن، يقرعن أجراس بيوتهن بعد عودتهن من المدرسة. أما مجيديه اليوم، وبيدريرا غاودي في وسطها (ولمَ لا؟)، فربما أصبحت تنافس «هرم» ببي وبيانو ومركز «بومبيدو»، والله أعلم ماذا أيضاً.

«عندما تكون قد أنيهت بناء العمارة»، قال داريوش للرجل الذي

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يبحث عن عين، «أرجو أن أكون قد تمكنت من جمع مبلغ كاف لأشتري منك شيئاً بحجم بيت كلب».

«كلّ ما أملكه هو لك يا دكتور، لكن البيوت التي بقيت لا تناسب مقامك. مساحتها تتراوح بين مئة ومئتي متر مربّع؟»

«إذاً لا يوجد لديك دوبلكس؟»

«حضرة الدكتور، عندي واحد فقط، لكنه للأولاد».

عندما يقول «أولاد» فإنه يقصد زوجته، لأن من غير اللائق أن يذكر مسلم ملتزم من طبقته اسم زوجته، لذلك، عندما تسمع كلمة «أولاد» فهي تعني الزوجة.

«باشا، باشا، طبعاً. لكن عندما تبني بناية أخرى، تذكّر طبيبك المسكين الفقير الذي يكافح لكسب رزقه».

«أطفالي خدامك المتواضعون. إنهم تراب تحت قدميك. حضرة الدكتور، أرجوك دبّر لي عيناً، أتوسل إليك».

نظر داريوش إليّ مرة أخرى، لكني استبقته خطوة إلى الأمام وقلت: «*ظروف قاهرة*».

أشار إليّ بأن أتبعه إلى السيارة التي كان الرجلان يستخدمانها لملء الاستمارات وطلب منهما ورقة ليكتب عليها. فردّا بأنه ليس لديهما أوراق، فطلب من مجيد أن يشتري استمارة من استمارات تجديد جوازات السفر - غالية الثمن أيضاً - وطلب من أحد الرجلين أن يكتب على ظهر الاستمارة طلبه إلى الدكتور ساهابي. وقّع الوثيقة وأعطاها إلى مجيد الذي كاد ينحني على الأرض ويقبّل يد الرجل صاحب الفضل عليه. تساءلت في سريرتي هل تساوي هذه الرسالة ثمن الدوبلكس في منطقة مجيديه.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بهذا الثمن، كم سيكلفني تجديد جواز سفري؟ شاحنة صغيرة جديدة؟ أو لمَ لا بيت متنقل؟

ذهب مجيد، وخرجت أنا وداريوش من البوابة. كانت الساعة الحادية عشرة. توجّهت إلى مقصورة تفتيش النساء: فمنذ قيام الثورة فُرض تفتيش إلزامي على ملابس النساء عند مدخل جميع المباني الحكومية. وعادة ما تكون هناك امرأتان أو ثلاث نساء محجّبات يجلسن بانتظار النساء القادمات لتفتيش محتويات حقائبهن، ويتفحصن وجوههن ويدققن في أيديهن بدقة شديدة (يجب ألّا تكون هناك أي مسحة من المكياج على وجوههن أو طلاء أظافر على أيديهن)، بل إنهن يدقّقن في طول سراويلهن ومعاطفهن وطول أكمامهن.

في بداية الثورة، كان اجتياز هذه المقصورة يشكل محنة حقيقية. فقد كانت لدى المفتشات سلطة منعنا من الدخول، وهن ينتمين إلى أدنى طبقات المجتمع، وقد منحتهن الثورة امتيازاً كبيراً من أجل إذلالنا وإهانتنا. وأصبح بإمكانهن الانتقام من أفراد المجتمع الأخرين. إن مجرد وضع حزام حول الخصر فوق المعطف يجلب للمرأة وابلاً من الإهانات والشتائم، «من أين أنت؟ من ربّاك؟ ألم يعلّمك أحد كيف تتصرّفين؟»

في الواقع، كان ذلك كلّ ما تعلمناه، لكننا لم نكن نستطيع الردّ عليهن، بل كان علينا أن نطرق برؤوسنا ونخفض أبصارنا، ونفك حزام المعطف ونغادر بأسرع ما بوسعنا. وشيئاً فشيئاً، ومع مرور الزمن، بدأت المفتشات يمضين وقتاً أطول في تفتيش حقائبنا اليدوية وإبداء اهتمام بمحتوياتها أكبر من الاهتمام بمكياج الزائرات.

«أوه، إن لون أحمر الشفاه لديك رائع»، قالت إحداهن ذات مرة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وعلى الفور أعطيتها قلم أحمر الشفاه، وأحسست أن هذه البادرة أعادت إليّ جزءاً -جزءاً ضئيلاً جداً - من سيادتي المفقودة.

الآن، بعد مضي حوالي ثلاثين سنة على قيام النظام الإسلامي، لا تزال المفتشات يعملن هنا. ومن الواضح أنهن ينتمين إلى جيل آخر: فقد فقدت المفتشات السابقات إخوتهن في الحرب الإيرانية - العراقية، وتزوجن رجالاً يتعاطون الأفيون وأصبح طموحهن الوحيد الحصول على صحن لاقط ومشاهدة مسلسلات هندية. أما المفتشات اليوم فقد أصبحن أكثر ابتساماً، وكذلك نحن. ولم يعدن يبدين غضبهن علينا، لأنهن أدركن أننا لسنا المسؤولات عن مصاعبهن الحياتية، وأصبحنا نكلّم بعضنا بطريقة طبيعية، من دون مشاعر عدائية، وحتى إذا طلبن منا أن نزيل طلاء أظافرنا - باستخدام قليل من الأسيتون وقطن طبي يحتفظن به في أحد الدروج - فهن يفعلن ذلك رغماً عن إرادتهن، لأنهن يتقاضين رواتب لقاء هذا العمل، ولأن تكاليف الحياة مرتفعة، ولأن أطفالهن حفاة ليس في أقدامهم أحذية، ولأن ثمن الدجاجة لا يقل عن ثلاثة آلاف تومان، ولأنهن نسين طعم اللحم.

تلك الفترة، تلك الدقائق القليلة التي تستغرقها عملية تفتيش ملابسي التي يمكن أن تجمعنا معاً، تمنحنا إحساساً غريباً بالتضامن - فهن يكافحن بجنون ليجمعن نقوداً كافية لتعليم أطفالهن، وأعود مرات ومرات إلى أماكن مختلفة كهذه، أحاول عبثاً استعادة مئات الهكتارات من الأراضي المصادرة.

في هذه اللحظة، كانت المفتشات الثلاث منهمكات مع امرأة أُغمي عليها.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«لقد اتخذوا قراراً بتسوية الأمور وهذا ما حدث. امرأة يغمى عليها ورجل مسن يحتضر»، قالت إحداهن.

لاحظت الآن أن تلك النساء يقلن أيضاً «هم» عندما يشرن إلى «هم».

«اشربي يا عزيزتي. اشربي جرعة ماء»، اقترحت مفتشة أخرى ورفعت رأس المرأة بينما أشارت إليّ المرأة الأخرى برأسها بأن أرخي غطاء رأسها.

هل يُسمح لي أن أفعل ذلك؟ سألت المفتشات.

«طبعاً! أزيلي غطاء رأسها، إنه يخنقها. إنه يخنقنا جميعنا» أضافت الثالثة.

لم أنبس ببنت شفة. فأنا في مكتب جوازات السفر المركزي. وأي إيماءة أو حركة تبدر مني قد تكلّفني أن أُمنع منعاً باتاً من مغادرة إيران. بحذر شديد، أرخيت غطاء رأس المرأة (لم أزله بالكامل) وتمنيت لها الشفاء العاجل، ثمّ فتحت حقيبتي وأريتها لإحدى المفتشات التي لم تكلف نفسها عناء النظر فيها أو تدقيق مكياجي وثيابي بل تركتني أنتقل إلى عالم الرجال، ورفعت الستارة التي تفوح منها رائحة الشنبلليه.

التقيت بداريوش في الباحة الداخلية. في طريقه نحوي رفع أصابعه وأنزلها على مستوى عينيه إشارة إلى أن أسدل غطاء رأسي قليلاً. فعلت ما طلبه مني.

«ألا تشعرين بشيء من الاكتئاب؟» سألني.

«أشعر بأني على ما يرام. لا تقلق عليّ. لا يوجد شيء من هذا القبيل».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«يجب أن أفحصك في وقت ما، ألا تعانين من ألم في أسنانك؟»

«لا كلّ شيء على ما يرام».

«سأشرح لك: كنتُ أول البارحة مع صديق يعاني من وجع أسنان فظيع. أرسلته ليجري تخطيط قلب وأنقذته من الإصابة بنوبة قلبية».

فكرت بأنه يجب على جميع الذين أعرفهم والذين يعانون من مشكلات في أسنانهم أن يهرعوا لإجراء فحوصات في أقسام أمراض القلب. كم حياة يمكن إنقاذها!!

صعدنا درجات المبنى «ألف» وتوقّفنا عند الكوة في الطابق الثاني. على الجانب الآخر من حاجز زجاجي كان يجلس ضباط شرطة برتبة ملازم ببدلاتهم الرسمية وقبعاتهم وتزين صدورهم أوسمة. وأمام كلّ كوة من جانب المواطنين، يوجد مقعد مدرسة وضع بطريقة يضطر فيها المواطن إلى أن يدير رأسه باستمرار للتكلم مع الضابط. كانت هناك امرأة بدينة تجد صعوبة في حشر كتلة جسدها في منحنى المقعد الضيّق فأقلعت عن محاولتها المضنية. كانت الكوى الممتدة على طول المكتب واطئة، ولكي تتمكن من التحدث إلى الضابط كان عليها أن تنحني حتى مستوى الركبة، عارضة مشهد ردفين مكتنزين ضخمين أمام الجميع - وهو مشهد يقضي بسجن مرتكبه وفقاً للقانون الإسلامي.

على مسافة أبعد قليلاً، كان هناك رجل في حوالي الأربعين من عمره، يهين إيران، بلده. فقد كان يصرخ بصوت عال: «لقد عدت إلى الوطن بعد خمس وعشرين سنة. إني أحمل ثلاث شهادات دكتوراه، وتركت ورائي كلّ شيء - الفيللا التي كنت أملكها

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وسياراتي وعملي كمستشار في شركات الأدوية - لأعود وأخدم بلدي. وهكذا «هم» يرحبون بنا. أما الآن! فما إن أضع قدمي خارج هذا البلد، فلن أفكّر بهذا المكان اللعين. سأمحوه من ذاكرتي».

عندما مرّ من أمامنا، دمدم داريوش، «لقد أفرغتَ ما في جعبتك».

طلبت المرأة البدينة التي كان ردفاها مكشوفين للهواء الآن، وهي تسند يداً على ظهرها، وتضع اليد الأخرى على ركبتها، من الضابط أن يكرر الجملة نفسها ثلاث مرات.

قال لها الضابط: «صورتك لا تشبهك بأي شكل من الأشكال».

فردّت عليه: «ماذا؟ لكنني أخذتها الأسبوع الماضي».

قرفصت على الأرض، وأخرجت صورة هوية ملونة من محفظة بلاستيكية وأرتها لي.

وسألتني، «انظري، ألا تشبهني؟»

لقد أدخلت رتوش كثيرة على الصورة إلى حد أن الظلال المرسومة على وجه المرأة جعلتها تبدو ناتئة العظام. لم أقل لها شيئاً، بل ساعدتها على النهوض، ورحت أفكّر بصورتي - صورة امرأة تصغرني بما لا يقل عن عشر سنين.

أشار إليّ داريوش بأن أتوجّه إلى كوة شاغرة: جاء دوري. جلست على المقعد أمام الكوة وقلت للضابط: صباح الخير. إنه برتبة عقيد. كان عليّ أن أدير رأسي باتجاهه خمساً وأربعين درجة. تملكني قلق لما سأعانيه من عذاب تشنج الرقبة إذا استمر ذلك طويلاً. ظل داريوش واقفاً، كان حجمه الضئيل يتناسب مع قطع الأثاث المتناثرة في الغرفة. حيّا العقيد وقدّم له تعازيه. لم يدهشني ذلك: ففي إيران فإن جميع الناس حزينون باستمرار على أحد ما. ثمّ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

شرح له حالتي. نطق العقيد الذي كانت لحيته تكاد تصل إلى عينيه، جملة واحدة فقط وهي:

«اذهب إلى مكتب جوازات السفر في يافت أباد واسأل عن الملازم موختاربور».

حيّاه داريوش تحية عسكرية كرّد على ما قاله. لكننا قبل أن نغادر، سأل العقيد الذي كان يبدو أنه يختنق في لحيته، داريوش: «حضرة أسكارنيا، أين وصلت في موضوع الجثة؟»

اقترب داريوش من الكوة وهمس شيئاً لم أسمعه.

استنتج صوتي الداخلي ونفسي العقلانية (اللذان يعملان عادة بالتناغم) إلى أن داريوش يعمل في المشرحة. إنه طبيب بالفعل. هذا أمر مؤكد، لكن ربما كان إخصائياً في علم الأمراض، لذلك فلا بد أنه يعمل مع الشرطة، ومن هنا، فهو يعرف هؤلاء الضباط في وزارة الداخلية.

مكتبة الرمحي أحمد

لكن ما علاقته بمكتب جوازات السفر المركزي؟ سأل صوتي الداخلي. منذ متى يحتاج الأموات إلى جوازات سفر؟

لم أنصت له على الإطلاق - أستطيع إسكات صوتي الداخلي بسهولة. انخفض ضغط دمي مرة أخرى. وبما أننا اثنان هذه المرة، فبإمكاني أن أتناول قطعة السكاكر. قدمت واحدة إلى داريوش فقبلها بلهفة شديدة.

نزلنا إلى الباحة وغادرت عبر مقصورة تفتيش النساء. لوّحت بيدي للمفتشات الثلاث اللاتي كن يأكلن خبزاً وجبناً، وللمرأة التي كان قد أغمي عليها وأصبحت تبدو الآن في وضع أفضل. دعتني المفتشات إلى مشاركتهن في ما يأكلنه. بدافع العادة، وتمسكاً بالتاروف قلت: لا، لكنني أبطأت قليلاً وقلت إنني أودّ أن أشاركهن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بتناول لقمة لأنني أعاني من مشكلة انخفاض ضغط الدم، فأسرعن وقدمن لي كرسياً. صبّت لي إحداهن كأساً من الشاي، وقدمت لي أخرى لي قليلاً من الخبز والجبن.

جلست بينهن. دخلت امرأة وفتحت حقيبتها اليدوية لتريني ما بداخلها: ألقيت نظرة عليها وتركتها تذهب.

شعر داريوش بالقلق لأنني لم أخرج، فناداني من الخارج. جرعت كأس الشاي بسرعة وشكرت المفتشات وغادرت.

«سنذهب إلى يافت أباد»، قال الطبيب عندما قابلته.

كلّ ما أعرفه عن منطقة يافت أباد هو أنها تقع جنوب طهران، وأنه كان يعيش فيها في عهد الشاه أفقر الفقراء في بيوت من الصفيح. ويعتبر الوصول إلى هذه المنطقة الآن، في وسط كلّ هذا الازدحام، معجزة. عندما عرض عليّ داريوش أن يوصلني بشاحنته الصغيرة، قلت له إنني طلبت من سائق سيارة الأجرة أن ينتظرني وأنه سيوصلني إلى يافت أباد.

دخل داريوش الذي اعتبر أن إبقاء سيارة الأجرة طوال هذه الوقت تبذير وتبديد لنقودي، في حسابات لانهائية ليبرهن لي أن أخذ ثلاث سيارات أجرة أرخص من إبقاء سيارة واحدة طوال النهار. تركته يواصل حساباته، فلكلّ شخص طريقته في إنفاق نقوده. سرنا إلى شاحنته جنباً إلى جنب. ألقى بحقيبته الدبلوماسية في المقعد الخلفي، ثمّ جلس وراء المقود ووضع حزام المقعد لكنه لم يثبّته. أوضحت له أننا لسنا في عجلة من أمرنا، وأن لديه وقتاً كافياً لتثبيت الحزام.

فقال: «أنا لا أثبّت الحزام، بل أضعه بين ركبتي فقط».

«لماذا؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لأنهم إذا أوقفوني، سيظنون أنني أضع الحزام. إنه أمر قابل للتفاوض، خاصة مع معارفي».

«لكن لماذا لا تثبّته جيداً؟» سألته بإلحاح.

«عزيزتي، عندما يأتينا الموت فلا شيء يمكن أن يوقفه، ومن المؤكد أن حزام مقعد، يعلم الله أين صُنع، لن يمنعه من المجيء».

«لكنك قد تصاب بجروح، وقد يُكسر ضلعك أو أنفك...»

أراني داريوش جبهته، وقال: «هذا يتوقف على ما كتبه القدر هنا. فإذا كان مكتوباً عليك أن تُبتر ساقك، فإن ذلك سيحدث هنا أو في أي مكان آخر».

تحرّك وقد وضع حزام المقعد بين فخذيه وراح يقود ببطء باتجاه سيارة الأجرة ليرشد السائق إلى مكتب جوازات السفر في يافت أباد، وطلب منه أن يتبعه.

انطلقنا. رأيت سائقي يقضم أطراف شاربه بعصبية، وبين الحين والآخر يحرّك كتفه اليمنى. لا بد أن شيئاً يشغل تفكيره.

بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق، لم يعد يحتمل، فقال: «أنا أعيش في يافت أباد، وكما تعرفين فمن المهين أن أسير وراء هذا الرجل الذي يقود شاحنة مهترئة للوصول إلى هناك».

«لا أبداً. إن الدكتور أسكارنيا (أردت أن أؤكّد له بأنه طبيب) لا يقصد أن يزعجك. إنه لا يعرف أنك من يافت أباد. كيف له أن يعرف؟ إنه يريد مساعدتي لتفادي الازدحام فقط».

لم يتوقف السائق عن قضم شاربه.

«حسناً، إن كنت قد وافقت على أن أسير وراءه» قال متنازلاً، «فهذا من أجل خاطرك فقط».

شكرته على نكران الذات. ثم غصنا في محيط من السيارات

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

التي يشبه بعضها تلك السيارات في فيلم ماكس المجنون (*Mad Max*). فخلال فترة حياة تلك السيارات، يغيّر أصحابها حجمها وارتفاعها وشكلها عدّة مرات، والنموذج الأكثر شيوعاً هو نموذج السيارة الوطنية «*بيكان*»، فأينما توجّهت فإنك لا تسمع الناس إلّا وهم يقارنون ثمنها في الماضي وثمنها في الحاضر: ففي الماضي، في عهد الشاه، كانت سيارة *بيكان* تكلف ثلاثين ألف تومان، أما اليوم فهي تكلف ستّة ملايين ونصف المليون تومان، وبعد أن ارتفعت الضرائب المفروضة على السيارات الجديدة ارتفاعاً كبيراً - قد تصل إلى تسعين في المائة - بدأ الناس يغيّرون سياراتهم ويشترون سيارات مستعملة. وحسب علمي فإن إيران البلد الوحيد الذي يمكن أن تباع فيه سيارة مستعملة مضى عليها أكثر من عشر سنوات وقطعت مئات آلاف الكيلومترات بأضعاف سعرها الأصلي، حتى أنني رأيت سيارة مهشمة كان قد سقطت في أحد الأودية بيعت بأعلى من ثمنها الأصلي.

لم تتوقّف نرجس التي تعرف أشياء كثيرة أكثر منيّ عن حثّي على الاستثمار في السيارات.

«اشتري سيارة بيجو مصنوعة في إيران. اركنيها في موقف السيارات تحت بنايتك لمدة سنة، ثمّ بيعيها بربح يزيد على ثلاثين في المائة من ثمنها الأصلي. ألا تدعين هذا استثماراً جيداً؟» كانت تردد ذلك على مسامعي على الأقل مرة في الأسبوع.

إني سعيدة لأن المضاربين في وول ستريت (لا يزال اسمه وول ستريت) لا يسمعون ما تقوله نرجس وإلّا لهرعوا جميعهم إلى إيران واشتروا سيارات بيجو «الإيرانية»، وتركوها ثم باعوها بعد سنة.

في السنوات الأخيرة، وصلت إلى طهران أيضاً سيارات

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مرسيدس (يطلق عليها الإيرانيون بنز)، وسيارات فراري وبورش يشتريها أصحابها - يجب أن أكرّر - يدفعون ضريبة تزيد نسبتها على تسعين في المائة - وعندما تمرّ هذه الكنوز المتجوّلة في الشوارع، أينما يصادف أن تكون، فلا بد أن تسمع هذه العبارة المتكررة: «انظر إلى أبناء آيات الله في سياراتهم البورش، انظر كم أصبحوا أغنياء».

إذا أمعنت النظر فيهم، فلن تجد شيئاً يدّل على أنهم «أبناء آيات الله»، بل إنهم يشبهون الشباب الذين ولدوا وفي فمهم ملاعق من ذهب في أيّ بلد آخر، ترافقهم حسناوات (تنسلّ بضع خصلات من شعرهن الأشقر من تحت أوشحتهن) ويستمعون إلى أحدث الأغاني، أحياناً موسيقى غربية منحطة، الممنوعة رسمياً. ومع ذلك، فإن كلّ من تسأله يؤكد لك بأنهم أبناء أو أحفاد آيات الله، وبأنهم أصبحوا مصدر عذاب فظيع لأجدادهم الشرفاء الأتقياء، وتنتشر إشاعات في المدينة بأن حفيدة أحد كبار المسؤولين المعمّمين اعتقلها الحرس الثوري مرات عديدة لعدم التزامها بالزي الإسلامي.

نسلك عدة طرق سريعة مختلفة متعاقبة على امتداد طهران. وجميعها يحمل أسماء جنرالات قتلوا في الحرب العراقية - الإيرانية، أسماء لا يعرفها أحد إلا القيادة العسكرية التي تثير خلافات مستمرة بين أنصار الشاه، وبين الذين يدافعون عن الجمهورية الإسلامية والمتشككين فيها. إذ تدّعي المجموعة الأولى بأن النظام الإمبراطوري هو الذي وضع مخططات الطرق السريعة هذه، بينما تدّعي المجموعة الثانية بأن الملالي الذين يتبوؤون السلطة حالياً هم الذين وضعوا تلك المخططات، في حين تصرّ المجموعة الثالثة على أنه سواء أكان الشاه أم الملالي هم الذين وضعوا تلك المخططات، فإن هذه الطرق لا تساهم بأي شكل من الأشكال في

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تخفيف حدة الازدحام وكثافة السيارات التي تشلّ طهران، وتحوّل المدينة إلى موقف سيارات هائل عند ساعات الذروة كلّ يوم.

بعد ساعة ونصف الساعة أمضيناها في استنشاق ثاني أكسيد الكربون أكثر من الكمية المسموح بها عالمياً، وصلنا إلى يافت أباد. كنت أتوقّع رؤية أحياء فقيرة، أكواخ من الصفيح، بيوت متداعية، صناديق كرتون تستخدم للسكن، لكن لدهشتي، وجدت منطقة أجمل من شمال طهران، فيها شوارع تحفّها الأشجار، وساحات خضراء، بل حتى توجد فيها مراكز ثقافية. كانت نرجس وأصدقاء آخرون قد أخبروني بأن جنوب المدينة أصبح منطقة جميلة جداً لكنّي لم أصدقهم. وكان هذا التحوّل قد نجم عن تخصيص ميزانية استثنائية، بذلت السلطة الحاكمة جهداً غير عادي لتحسين ظروف معيشة السكان في هذه الضواحي، لأن أهالي هذه المنطقة هم الذين قدموا النصيب الأكبر من الشهداء في الحرب العراقية الإيرانية.

كنت أختلس النظر إلى سائق السيارة، الذي بدا أنه مضغ شاربه فأصبح أقصر مما كان عليه. وبالرغم من حكمته الأفضل، فقد رضخ لأن يتبع ذلك الرجل الضئيل الذي يقود الشاحنة الصغيرة، مع أنه لم يكن يحتمل ذلك.

ضغط على المكابح فجأة وأمسك المقود بقبضتيه بقوة، وقال: «خانم، سأتوقّف هنا. لقد دار حول هذه الساحة مرتين، وعليّ أن أتبعه. إن الناس هنا يعرفونني، أتفهمين قصدي، إنها إهانة لي أن أدور حول الساحة مرّتين في هذه المنطقة التي أعيش فيها».

لاحظت أن الجزء الأعلى من سبابته مبتور. هزّ كتفه وانتظر ردّي.

لقد دعاني *خانم*، وهو أسلوب مهذب في مخاطبة امرأة. بقوله

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هذه الكلمة البسيطة، أصبح يحق له أن يجتاز جميع السيارات الأخرى، لا في شطر المدينة الذي يعيش فيه فحسب، وإنما في إيران كلها وفي باريس أيضاً. فمنذ قيام الثورة فرضت العادات الإسلامية على الرجال أن يخاطبوا النساء الشابّات بلقب «خواهر» أي أختي، والنساء الأكبر سناً بلقب «حاجة خانم»، وهو لقب فخري يعني أن شخصاً ينتمي إلى الجنس الأنثوي قد أدى مناسك الحج في مكة المكرمة.

لذلك، أصبحت تُخاطب أمّي وجميع النساء من جيلها بكلمة «مادر» (أمّي) في أيّ مكتب أو دكان أو مطعم. وفي إحدى المرات، قدم نادل لأمّي قائمة الطعام وقال لها «مادر» فردّت عليه قائلة: «لكنني لم أنم مع أبيك قط! فكيف يمكن أن أكون أمّك؟» فألقى النادل نظرة مليئة بالدهشة على هذه المرأة التي لم تنم مع أبيه، مع أنه يجب عليه أن يناديها الآن «أمي»، ثم انسلّ عائداً إلى المطبخ من دون أن ينبس بكلمة.

كانت أمّي ترفض كذلك أن يناديها أحد «حاجة خانم»، وبما أنها كانت متعمقة في دراسة التاريخ والمصطلحات الإسلامية، فقد كانت تردّ على الشخص الذي يناديها، مثل بائع الحلويات «حاجة خانم»، باللغة العربية وتقول له إنه يجب ألا يسيء استخدام هذا اللقب بإطلاقه على امرأة لم تر الكعبة في حياتها، ولم تزرها بعد، فانتاب الحرج بائع الحلويات التعيس الذي كان يسلّمها حلوياته المكسوة بالقشطة.

أما نرجس التي تكبرني ببضع سنوات، فكانت تجزع عندما ستنتقل من لقب «خواهر» (أختي) إلى لقب «مادر» (أمّي). وأشاطرها هذا الخوف وجميع النساء ممن هن في عمري.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اتصلت بداريوش على هاتفه الخليوي. توقّف وقال إنه يبحث عن محطة بنزين وهذا هو السبب الذي جعله يدور حول الساحة. طلبت من السائق أن يدلّنا على محطة بنزين. هزّ كتفيه، لكنه هذه المرة، فتل شاربيه بين أصابعه و- كاشفاً عن سنّ ذهبي - قال بزهو: «بلّغيه أن يتبعني يا مدام».

درنا حول الساحة مرّة ثالثة. أنزل السائق زجاج نافذته ونادى أحد المشاة وقال له: «هذا الرجل الضئيل الحجم الذي يقود الشاحنة الصغيرة هناك يظن أنه يستطيع أن يسخر مني في الحيّ الذي أقيم فيه. لو لم تكن المدام هنا....»

قلت لنفسي لا بد أن السائق عضو في *لوتي*، وهي منظمة غامضة لها ميثاق شرف خاص بها، ولها لغتها الخاصة وأساليبها المميّزة. وفي عهد الشاه كان يطلق عليهم «كلاه مخملي» أي ذوو القبعات المخملية، وكانوا يرتدون بدلات سوداً فوق قمصان بيض مفتوحة عند الرقبة، وبالطبع، كانت القبعات الشهيرة تسمى *كلاه مخملي*. وكانت الأفلام الشعبية قبل الثورة تقلّد السينما الأمريكية بعصابات المافيا الإيطالية، وتجعل أفرادها أبطال تلك الأفلام. أما في الحياة الحقيقية، تماماً كما في الأفلام، فقد كان لهؤلاء الرجال أسر، لكن ما كان يميّزهم ويمنحهم سحراً لا يقاوم هو التدمير الذاتي لحبّهم لبعض المومسات الجميلات اللاتي كانوا يرافقونهن إلى الملاهي التي كانت منتشرة آنذاك، بينما كانت زوجاتهم يبقين حبيسات في البيوت. وكانوا يقاتلون بشجاعة من أجلهن، ويحملون طوال حياتهم آثار اللكمات التي كانوا يتلقونها دفاعاً عن شرف امرأة منبوذة.

كانت لديّ دائماً نقطة ضعف إزاء مفرداتهم. فما كان على الرجل إلّا أن يحدّثني بالطريقة التي يتكلّمون بها، وبتلك النظرات في

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عينه، وتلك النبرة، حتى أذوب. لكن الثورة ألغت الملاهي الليلية وجلسات الشراب، والشجارات التي كانت تنشب من أجل شامة فوق شفة فتاة الليل تلك، لكني لست متأكدة كذلك لماذا كان أعضاء *الكلاه مخملي* يحتسون الكحول ويرقصون بخلاعة، مع أنهم كانوا مسلمين مواظبين على أداء فرائضهم، ولضمان المغفرة لهم، فقد كانوا يضاعفون من صلواتهم ويحرصون على صوم شهر رمضان، ولم يكونوا يستسلمون أبداً - حتى بعد هبوط الليل - أمام قطرة واحدة من المشروب الخطير الذي كانوا يطلقون عليه «*أراك ساغوي*» أي «عرق الكلب».

أخبرني صديق رسّام من الحرس الثوري عرف باهتمامي بمعرفة سبب اختفائهم المفاجئ، بأن الحرب هي التي قضت عليهم. فبما أنهم كانوا رجالاً شرفاء، فقد تطوّعوا جميعاً للقتال على الجبهة، ولم تعد منهم سوى حفنة قليلة. وبما أن أسلافهم يتحدرون من شرائح المجتمع البائسة، فقد وجدوا شيئاً مماثلاً من التضامن الذي وحّدهم في صفوف *البسدران*، الحرس الثوري - والفرق الوحيد هو أن *البسدران* هؤلاء الذين أصبحوا يمثّلون القانون الإسلامي، قد فقدوا أيّ قدر يتعلق بالمخيلة. ولدى صديقي العديد من تلك القبعات المخملية، يعلّقها في غرفته. بقايا زمن أصبحوا يشعرون الآن بأنه ولّى منذ زمن بعيد.

كان صديقي الرسام يشبه تماماً تلك المجموعة التي اندثرت، هؤلاء البلطجية والمجرمون الذين تحوّلوا بقدرة قادر إلى حرس ثوري. شعرت أن صديقي كان يحاول أن يحافظ على آثار تلك المغامرات الطائشة في الماضي في لوحاته.

انتظرنا داريوش خارج محطة البنزين. لم يكد يسدد ثمن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

البنزين، حتى قال لي السائق الذي طرف أصبعه مبتور (لا أعرف ما إذا كان ذلك البتر ناجماً عن مشاجرة بالسكاكين أم عن الحرب؟): «جاء دوره الآن ليتبعني».

لا يمكن الجدال في هذا الأمر. أعرف ذلك. مددت رأسي من النافذة وناديت داريوش وقلت: «دكتور، أرجوك اتبعنا! إن سائقي يعيش في يافت أباد، وهو يعرف أين يقع مكتب جوازات السفر».

فردّ داريوش، «ولماذا لم تقولي ذلك منذ البداية؟ كنت سأتبعكما وأنا مغمض العينين».

فَتَل السائق شاربيه بين أصابعه، ورفع كتفه اليمنى، ثم أجاب: «أنا تحت تصرّفك. أنا خادمك. يجب أن أنفذ ما تأمرينني به».

أحسست بخفة في رأسي وبالرضا. لقد تفاديت مشاجرة متوقعة وأنقذت كبرياء رجل.

توقّفت السيارة فجأة في منتصف الشارع.

«انزلي يا مدام»، قال لي السائق دون أن ينظر إليّ، ثم أضاف: «لا يمكنني أن أمضي أكثر من ذلك. سأنعطف وأنتظرك في أحد تلك الشوارع هناك».

انتصبتُ في جلستي من على المقعد ونظرت إلى الخارج. يبدو أن هناك قطعة قماش سوداء ضخمة تغطي الشارع - قطعة قماش يتخللها عدد كبير من الفتحات، تبرز منها لمحات من أذرع ووجوه. لكني سرعان ما تبينت إنها مئات من النساء المتلفعات بعباءات سود، يتربعن بصمت على أرض الشارع. خطرت ببالي على الفور مظاهرة معادية لأميركا أو لإسرائيل.

نقر داريوش على النافذة بضع نقرات وطلب مني أن أترجّل من السيارة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«إلى أين سنذهب؟»

فقال: «مثلهن، هذا هو مكتب جوازات السفر في يافت أباد».

«هل ينتظرن جوازات السفر؟»

«طبعاً».

حتى الآن كان مصدر رضائي الوحيد هو أنني كنت متيقنة من أن سكان منطقة يافت أباد - وهم أناس فقراء كادحون - ليسوا بحاجة إلى جوازات سفر، وكان يخيّل إليّ أننا لن نضطر إلى الانتظار في طابور لانهائي هنا، كما هو الحال في المكاتب الأخرى.

لكن سرعان ما أوضح لي داريوش الأمر.

«هذا أسوأ مكتب من بين كلّ المكاتب الأخرى».

«أسوأ؟ لماذا؟»

«لأنهن جميعهن يرغبن في الذهاب إلى كربلاء».

تقع كربلاء في العراق، وهي مدينة مقدّسة للشيعة لوجود مرقد الإمام الحسين، حفيد الرسول فيها. ويجسد الحسين في الأسطورة الشيعية ملك الشهداء الذي لم يتردّد في تعريض حياته وحياة أسرته وحاشيته الإثنين والسبعين، إلى خطر سيوف الظالم المتوحشة، وقد تعرضوا للخيانة وقُتلوا جميعاً في كربلاء. وتشكل مأساة موتهم النص المؤسّس للعقيدة الشيعية.

انهارت الإمبراطورية الساسانية الفارسية التي كانت تمتد من الهند حتى مصر في القرن السابع على يد العرب، واعتنق الإيرانيون الذين كانوا يؤمنون آنذاك بالديانة الزرادشتية، الإسلام. وأقيمت الخلافة في بغداد على أنقاض قطيسفون، عاصمة الساسانيين. واعتمدت الحضارة الفارسية التي لم تُدمَّر بالكامل الزي الإسلامي،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وأثرت ثقافة غزاتها بماضيها العريق وبرعت في تحقيق ما يدعى بالإنجازات الإسلامية: العلوم والفلسفة والهندسة المعمارية والرسم.

وتقوم العقيدة الشيعية التي يعتبرها السنّة ضرباً من الهرطقة، على أساس رفض قبول أبو بكر، الخليفة الأول، خليفة للنبي. فاختار الشيعة علياً، صهر النبي، واعتبروه خليفته الحقيقي، واعتبروا أحفاد علي - الأئمّة - الممثلين الوحيدين للسلطة الدنيوية. وهم يعتبرون أن أي سلطة ليست في أيدي الأئمّة، سلطة غير شرعية، أو سلطة ظالمة أو فاسدة أو سيئة، ويجب محاربتها، كما فعل الحسين عندما ثار على الخليفة. هذا هو الموضوع المتواتر في حياة الشيعة. وتنتهي دورة الأئمّة، المطالبين الشرعيين بالسلطة التي أساء الخلفاء ممارستها، بالإمام الاثني عشر، الإمام المخفي، المهدي الذي انسحب طوعاً من المشهد، لكنه سيُصلح الكون ويشيع العدل فيه بعد قرون من الظلم، عندما سيظهر مرة أخرى.

ولتمييز أنفسهم عن العرب، اعتمد الإيرانيون المذهب الشيعي، واعتبروه بصمة الإسلام الخاصة بهم، واختاروا الإمام الحسين، حفيد النبي، بطلاً لهم.

وفي شهر محرم من كلّ سنة، وهو الشهر الذي مات فيه الحسين، تعلن إيران الحداد. ويحتفل الإيرانيون بهذه الذكرى الحزينة بإقامة احتفالات ومراسم تشمل جلد الذات، وترتيل أناشيد حزينة، وتقديم الطعام، وإقامة مواكب ليلية، وتقديم عروض مسرحيّة (تعزية) تقام معظمها خارج البيوت. وحتى في عهد الشاه، يمكنني أن أتذكّر أمّي وهي تجرّنا إلى سرمه في طهران القديمة، الحيّ الذي نشأتُ فيه، حيث تحتفل العائلة التي لا تزال تلتزم بالتقاليد بموت الإمام وفق العادات القديمة. كانت حديقتهم الصغيرة تعجّ بحشود من

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

النادبين. ويملأ قِدران ضخمان بطون التائبين بالرزّ وأفضل «قيمه خورشت» أتناوله في حياتي. ويتلو رجل دين قصة آلام الحسين، وينوح ويندب السامعون الذين يتحلقون في مجموعات منفصلة من الرجال والنساء، ويخمش بعضهم وجوههم، ويضرب آخرون صدورهم. ويدرك كلّ واحد منهم، في استشهاد الإمام، الظلم الذي لحق بحياته أو حياتها، وبالإضافة إلى الظلم الفردي، يدرك كل واحد منهم مأساة الوضع الإنساني.

وكان يقام وراء البيت معبد صغير، لا تزيد مساحته على ثلاثة أمتار بمترين، يُنزل إليه ببضع درجات، يدعى هافت دوختاروم، يكون عادة مظلماً ومهجوراً، لكنه يضاء في ذلك اليوم بعدد كبير من الشموع التي يوقدها الناس متمنين الصحة الجيدة لأحد أبنائهم، أو التخفيف من ديون الزوج، أو إطلاق سراح أخ، وكل ما هنالك من أمنيات دنيوية أخرى.

وقد استغلت الثورة الإسلامية عبادة الشهداء وأساءت إليها كثيراً حتى تدعم أسسها ثم لتدافع عن إيران ضد الاحتلال العراقي. فلولا الإمام حسين، وعبادة الشهداء الراسخة عند الشيعة، لما تطوّع الشبان الإيرانيون في الجيش للقتال، ولولا الإمام حسين، لتمكن صدام من احتلال إيران. وبعد سقوط صدام، أصبح بإمكان الإيرانيين الذهاب إلى العراق بحرية وزيارة مرقد الحسين في كربلاء. ويخيّل إليّ أحياناً، أنه إذا خُيِّر الإيراني بين الحجّ إلى مكة المكرمة أو إلى كربلاء، فإنه يفضّل الحجّ إلى كربلاء، لذلك ترى هنا هذا المدّ الشاسع والهائل من السواد الذي يغطّي الآن إسفلت شارع الشهداء في يافت أباد.

لكي تتمكن من الدخول إلى مكتب جوازات السفر، عليك إما أن تسير فوق تلك النساء المتلفعات بعباءات سوداء، أو أن تقفز

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بينهن مثل راقصات الباليه لتفادي أن تطأهن، لكني اخترت أن أدوس فوقهن، وكنت أعتذر مع كلّ خطوة أخطوها. كان بعضهن ينهضن ويقفن على أقدامهن ويعترضن بالقول إنهن ينتظرن هنا منذ أربع وعشرين ساعة. لكن داريوش الذي تمكّن من شقّ طريقه بينهن والوصول إلى الشرطي الواقف عند الباب الذي همس له بضع كلمات، أشار إليّ وطلب من النساء أن يفسحن لي الطريق لكي أمرّ. لقد أعطى الشرطي موافقته، فعادت النساء وجلسن في أماكنهن ودخلنا إلى المبنى.

كانت المقاومة في داخل المبنى أعتى وأشدّ خطورة. كان الرجال والنساء يشقون طريقهم بصعوبة وهم يصعدون الدرجات إلى الطابق الثاني حيث توجد المكاتب. وبالرغم من ضآلة حجمه، لم يتمكن داريوش من شقّ طريقه في خضم هذا البحر من النساء.

«يجب أن أرى الملازم موختاربور شخصياً»، قال بصوت عال لشرطي يسدّ الطريق بين الطابقين الأول والثاني، «الملازم موختاربور».

لم يسمعه الضابط. تمكّن داريوش من شقّ طريقه رويداً رويداً لمجرد أنه كان يكرر اسم الضابط. ظللت متسمرة في مكاني. من الأسفل رأيت داريوش يجادل شرطياً آخر تبين أن إقناعه كان أصعب من إقناع الشرطي الأول. لكن بإصرار داريوش وتلاطم الناس، استسلم الشرطي في النهاية وتركه يدخل. لوّح لي داريوش بأن أصعد. بسرعة! لكن كيف؟ هنا، حتى قفزات راقصة الباليه لن تجدي نفعاً. ولكي أصل إلى الطابق الأول كان عليّ أن أقفز قفزة كبيرة خطيرة أو أن أنساب في الهواء كما يحدث في أفلام فنون الدفاع عن النفس. محاولاً أن ينتشلني من الأعماق، مدّ داريوش يده نحوي.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

اندفعتُ عبر البحر المتلاطم من الناس، ورحت أعتذر وأشير إلى داريوش وأصعد الدرج ببطء وبصعوبة، حتى وصلت أخيراً إلى الطابق الأول.

«كأنك لا تملكين يدين أو قدمين! إنك ضعيفة جداً! صدقيني، يجب أن تجري فحصاً للدم. إني أنتظرك هنا منذ نصف ساعة! لن تحرزي شيئاً إذا كنت خجولة هكذا».

بدأت أشعر بضغط دمي ينخفض مرة أخرى. أعرف أنه لا توجد معي قطعة سكاكر أخرى. لم أقل شيئاً. دخل داريوش القاعة الكبيرة في الطابق الأول، وتوجه إلى مكتب الملازم موختاربور، وطلب رؤيته.

«الجميع هنا يريدون رؤية الملازم موختاربور»، أجاب سكرتيره من دون أن يرفع عينيه: «عد إلى الطابق الأرضي وانتظر دورك».

التفتُّ خجلة حتى أعود إلى الطابق الأرضي. لا يستطيع داريوش أن يمسك يدي (لأن أي اتصال جسدي محرّم) فراح يصرخ، «أين تظنين أنك ذاهبة؟ لا تحرّكي أي عضلة! أوه، هؤلاء الكئيبون! لا تتحرّكي!»

دار حول الشرطي وهمس شيئاً في أذنه. ثمّ كتب اسمه بوضوح شديد على صفحة دفتر كبير مفتوح على المنضدة، وانتزع الصفحة وأعطاها للرجل.

زأر: «على رأسي! خذ هذه إلى الملازم! بسرعة».

نهض السكرتير من وراء طاولة مكتبه (لاحظت خُفَّين من البلاستيك للأطفال تحته)، وسار ببطء نحو مكتب الملازم، ثم عاد بعد بضع دقائق وأخبرنا بأننا يجب أن ننتظر هناك. كان باب مكتبه يُفتح ويُغلق باستمرار. كان الناس يدخلون ويخرجون. باءت جميع

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

محاولات داريوش بالدخول بالفشل. في النهاية، مع أننا لم نعرف السبب، أبلغَنا السكرتير أننا نستطيع أن نجتاز الحاجز الذي طال انتظاره.

قبل أن ندخل إلى مكتب الضابط، أشار إليّ داريوش بأنني يجب أن أسدل غطاء رأسي الذي انحسر قليلاً. ففعلت ما طلبه مني. فتح الباب على الفور، وحقيبته لا تزال في يده، وحيّا الضابط تحية عسكرية. تمالكت نفسي فلم أرفع ذراعي كردّ فعل وألصق كعبيْ حذائي معاً. لكني تمالكت نفسي في الوقت المناسب، وانتظرت حتى انتهى داريوش من صلاته السرية، الصلاة التي كان يبدو أنه يهمسها في أذن كل مسؤول. هنا انتقل من همسة إلى صيحة عندما اقترح كبير المحققين، موختاربور، بأن نجلس.

لم يكن في مكتبه سوى ثلاثة كراسي، كان يجلس عليها كلها، امرأة عجوز ترتدي عباءة، وشاب حليق الوجه، وامرأة تضع على رأسها وشاحاً أحمر. نهض الشاب وقدم لي كرسيه الذي قدمته لداريوش، لكنه طلب مني أن أجلس وقال مبرراً: «إنها مصابة بانخفاض شديد في ضغط الدم».

على الفور فتح الضابط درج مكتبه وأخرج علبة حلوى «نوغا أصفهان» بالفستق - التي يوصى بها كثيراً للمصابين بانخفاض ضغط الدم. تناولت منها قطعة، ثمّ، وبإصرار شديد منه، تناولت قطعة ثانية. استمتع الزائرون الثلاثة الآخرون بنفس المتعة (حتى لو كان ضغط دمهم قد بلغ السقف).

راحت المرأة العجوز ذات العباءة التي لم تتوقّف عن التململ، تشيد بالضابط، وقالت موجهة كلامها إليّ: «لو لم يكن هنا، لظل اسمي مدرجاً على قائمة الأشخاص الممنوعين من السفر».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عادة ما يكون «الممنوعون من السفر»، أشخاصاً رفيعي المقام من النظام السابق، أو أشخاصاً يعارضون نظام الجمهورية الإسلامية. وبينما رحت أمضغ قطعة النوغا تساءلت عن السبب الذي يمكن أن تمنع فيه امرأة عجوز ترتدي عباءة من مغادرة إيران.

«ابني» قالت تنوح أمام الضابط، باسطة يديها نحوه، «أطال الله في عمرك! وإن شاء الله ترى أطفالك يكبرون أمام عينيك! لقد أنقذتني. فمن دونك، هل كان بإمكاني أن أحصل على جواز سفر للسويد؟ هل كان بإمكاني أن أرى ابني؟»

قلت لنفسي لو كان السيد إسكندري، المشرف على بنايتنا، هنا لأخرج من جيبه قصاصة الورق المجعّدة وأعطى المرأة العجوز آخر رقم هاتف لديه لكي تتصل بابنه المختفي في السويد.

لماذا هذا الطلب الكبير للسفر إلى السويد؟ لأنه البلد الذي اختاره المهاجرون الإيرانيون. إذ يوضع هؤلاء السيّاح الذين لا يعودون إلى بلدهم بعد انتهاء صلاحية تأشيراتهم في بيوت مسبقة الصنع تطلّ على البحر أو على بحيرة، على أقل تقدير، وتقدم لهم الحكومة السويدية أيضاً بطاقة هاتف مجّانية للاتصال بذويهم في الوطن كما يشاؤون، وتفتح لهم بطاقة خاصّة الأبواب إلى إيكيا (Ikea) ليزينوا بيوتهم المؤقتة بحسب ذائقتهم، ويزورهم طبيب نفساني بانتظام، بدون مقابل، كي لا يؤرقهم الحنين إلى وطنهم فيفسد عليهم وقتهم الممتع في الدول الاسكندنافية.

وبناء على نصيحة بعض الأصدقاء المطّلعين، قالت امرأة إيرانية معمّرة من خلفية متواضعة للطبيب النفساني إن أكثر ما تفتقده في السويد هو سيارتها وسائقها، وفي اليوم التالي، وضعت الحكومة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

السويدية سيارة من طراز «ساب» تحت تصرّفها يقودها كارل، سائق أشقر بعينين زرقاوين، لمدة ساعتين يومياً، على نفقة الحكومة.

وخلال فترة انتظارهم ريثما تنتهي أوراقهم، تكافئ وزارة التعليم «العمال غير الشرعيين» بتعليمهم اللغة السويدية. ولتجنب هذه المحنة، ادّعت المرأة العجوز - بناء على نصيحة أصدقائها أيضاً - بأن أعراض الزهايمر تنتابها بين الحين والآخر. وأنها تستطيع تذكّر أحداث الماضي بسهولة وقيادة سيارتها على طول ساحل البحر الأسود، أما الحاضر والسائق كارل وسيارة «ساب» والرحلة اليومية التي تقطعها من سفيا فاغن إلى غاملا ستان فإنها لا تعني لها شيئاً على الإطلاق. وسمح لها الأطباء النفسانيون، باعتبارها حالة خاصة، بعدم حضور دروس اللغة السويدية.

وعندما تنتهي أوراقهم الرسمية، يتقاضى المهاجرون راتباً، هذه المرة لتعلّم مهنة أو لتحسين المهارات التي كانوا يزاولونها في وطنهم الأمّ. وفي حالة المرأة العجوز، قررت «الإدارة الاجتماعية» (المؤسسة المختصة التي تتسلم المسؤولية من وزارة التعليم) أنه نظراً «لحالتها العقلية»، يمكنها أن تحصل على راتبها دون الحاجة إلى التدريب. وهكذا كانت تتلقى تعويضات باستمرار. لكنها كما كانت تفعل طوال حياتها، بدأت تعدّ الطعام - ليس بدون مقابل - لسائقها، ثمّ لأصدقائه، ثمّ لأصدقاء أصدقائه. وبعد ذلك الفيض من تلك النماذج الجميلة الراقية من اتحاد عمّال النقل، اعتُبرت ملاكاً حارساً، فاضطرت، بشديد الأسف، أن ترفض هذا الدخل المربح، وبمساعدة كارل، أقامت مطعماً إيرانياً للوجبات السريعة في وسط المدينة. وفي فترات الغداء، أصبح طابور الزبائن يلتف حول المبنى. ثم تبين أن ملك السويد نفسه لم يتمكن من مقاومة سحر كوكو

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سابزي، العجة اللذيذة المعدّة من الأعشاب، وبناء على توصيات أصدقائها العارفين، كتبت على باب مطعمها العبارة التالية باللغة السويدية: *الوجبات السريعة المنتظرة منذ أمد بعيد*.

نظرتُ إلى المرأة العجوز الجالسة بجانبي وتصوّرتها تعيش في السويد، شريكة صاحبة مطعم الوجبات السريعة. وبغتة، ومن دون سابق إنذار، فتحت عباءتها وأخرجت دجاجة حيّة ووضعتها على طاولة الملازم موختاربور. كانت قد ربطت ساقي الدجاجة وجناحيها ومنقارها، وراحت الدجاجة تتدحرج فوق أوراق الضابط، تكافح بكل ما أوتيت من قوة، تزعق مرعوبة (لكن بصوت لا يكاد يُسمع لأن منقارها كان مربوطاً) وريشها يتطاير، وعندما سقطت الدجاجة على الأرض أخيراً، تراجع الضابط خطوتين إلى الوراء.

«ماذا تظنين أنك تفعلين؟»

كانت لهجته شمالية، من راشت. أردت أن أقول له بأنني من مازانداران، المحافظة المجاورة لراشت، حتى أقيم معه شيئاً من التضامن الإقليمي. لكن يبدو أنها ليست اللحظة المناسبة. لم يرفض الملازم هدية المرأة العجوز، بل نادى سكرتيره وأمره بأن يأخذ الدجاجة إلى سيارته المركونة عند موقف السيارات المخصصة للضباط. أتخيّله وهو ذاهب إلى البيت بعد انتهاء الدوام متأبطاً دجاجة حيّة. إنه من الشمال، إذاً فهو يحبّ المنتجات الطازجة، ولا يمكنه أن يقاوم طعم دجاجة حقيقية لم تربَّ في الأقفاص. كنت أتمنّى أن أقول له إنه محقّ تماماً، فربما كان طعم هذه الدجاجة لا يماثل طعم طير يباع ملفوفاً في ورق سيلوفان، لكنّي أمسكت لساني ولم أقل شيئاً: فقد يفسر هذه الملاحظة بأنها محاولة للرشوة. احذري.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ودعت المرأة العجوز جميع الحاضرين، وتضرعت إلى لله بأن تُحلَّ جميع مشاكلنا كما حُلَّت مشكلتها. فأجاب داريوش «اللهم آمين».

جلس داريوش على الكرسي التي غادرته المرأة العجوز، وأشار إلى المرأة التي ترتدي وشاحاً أحمر وهمس في أذني، «إنها تعمل قوادة. إنها ترسل فتيات إلى دبي».

تدلّت من تحت وشاح المرأة خصلة شعر شقراء، وبرزت أظافر قدميها المطلية بالأحمر من صندلها الذي نُقش عليه وجه رجل وامرأة. كانت شفتاها محقونتين بالسيليكون، وجبينها محقوناً بالبوتكس لاستكمال المشهد.

فور قيام الجمهورية الإسلامية، أزيلت منطقة المباغي والنوادي الليلية التي تدعى «شهر نو» في شمال طهران، المبغى المخصص لإشباع شهوات الذكور من الطبقة الثالثة. فقد رأيت مؤخراً مجموعة من الصور عن ذلك الحي كانت قد التُقطت في السبعينيات من القرن العشرين. وفي صورة بالأسود والأبيض، تجلس امرأة ذات بطن كبير بتثاقل على كرسي مائل وقد لفّت عباءتها حول خصرها، تنسلّ بجانبها قطّة تسير إزاء حائط متداع، وفي وسط الغرفة توجد عربة يد مليئة بالتراب. إن هذه الصورة تبرز كلّ صور القذارة والفاقة التي تتسم بها تلك الحياة.

وكان الرجال من الطبقة الراقية يفرغون شهواتهم مع فتيات شقراوات فاتنات ترسلهن المدام كلود من باريس، أما الرجال من الطبقة الوسطى، فلا أعرف كيف كانوا يُفرغون شهواتهم.

وبعد هدم «شهر نو» من أجل انتصار الفضيلة، وبعد توقف سيل الطائرات المستأجرة التي كانت تعجّ بالشقراوات القادمة من باريس،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان على الرجال من الطبقتين الراقية والدنيا - سرّاً كما يخيّل لي - أن يفعلوا ما كان يفعله الرجال من الطبقة الوسطى. . . مهما كان ذلك.

وفي فترة ما من تسعينيات القرن العشرين، بدأت تظهر فتيات ذوات عيون لوزية، وحواجب مقوّسة، وشفاه مثل براعم الورد، على أرصفة الشوارع الراقية في طهران (عاصمة الجمهورية الإسلامية). وكان يصعب على المرء تمييزهن عن الفتيات الأخريات اللاتي ينتظرن سيارة أجرة، إلا عندما تراهن ينحنين أمام نافذة إحدى السيارات «لإعطاء عنوان» بينما لم يكنّ يعطين إلا سعرهن. وكما هو الحال في أي مكان آخر، فإن ذلك يتباين بحسب الطقس والأداء المطلوب. وقد تناهى إليّ أن عطلة نهاية أسبوع في الشمال قد تكلف ألف دولار.

كم يساوي ذلك باليورو؟ تساءلت بيني وبين نفسي. لم أتمالك نفسي، لكني لم أمنح نفسي الوقت الكافي لحسابها.

تأتي معظم تلك الفتيات من الطبقة الدنيا وكذلك من الطبقة المتوسطة أو الطبقة الراقية. وكان بعضهن يرغبن في الالتحاق بالجامعة لكنهن لا يملكن النقود الكافية للقيام بذلك، وثمة أخريات ينحصر اهتمامهن في الحصول عل سيارة خاصة بهن، سيارة فخر - المجمّعة في إيران والتي تباع بضعف قيمتها الأصلية - حتى لا تضطر أمهاتهن إلى انتظار الحافلة في الساعة الخامسة من صباح كل يوم ليذهبن إلى العمل. وهناك فتيات أخريات تجعلهن رغبتهن القوية للسفر إلى أوروبا تستحق كلّ تضحية.

لا أعرف إلى أي طبقة تنتمي الفتيات اللاتي يعملن لدى المرأة ذات الوشاح الأحمر، وبالطبع لم أجرؤ على السؤال عمّا إذا كان سبب وجودها هنا هو الحصول على جوازات سفر لهن. لكلّ شخص همومه الخاصة به.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تسند مرفقيها على طاولة المكتب، وتنظر مباشرة في عيني الضابط (لا بد أن هذا السلوك محرّم) وتمط كلماتها عندما تتكلّم وتجرّها كأنها بطانة ثوب.

«عزيززززززي الملازززززززم، أوعددددددددددككك بأن أشعل ماااااائة شممممعععة إذا قلت لي إن مشـــاكلي قد حلت اليوم».

أجرى عدة اتصالات، وراجع ملفاً ملقى على طاولة مكتبه (كانت لا تزال عليه بضع ريش من الدجاجة التي كانت تتلوى فوقه) وأطلق تنهيدة. لن تُشعل الشموع المائة اليوم. مرة أخرى، قال إنه سيرى. تسحب الشابّة مرفقيها من فوق الطاولة.

«غدددداااااً هل يمكنني أن أعود غدددددداااً؟»

«اتصلي قبل أن تأتي. ها هو رقم المكتب».

«شكككككرررراً لك من صميم قلبببببببي».

يمكنني تخيّل الملازم - والدجاجة الحيّة تتلوى تحت ذراعه - وهو يركب سيارة فخر التي تقودها هذه المرأة ذات الوشاح الأحمر. يمكنني أن أراها تشعل مائة شمعة غداً، وما إلى ذلك.

ثم غادرت المكتب وبقينا مع الشابّ الحليق الوجه (غير راغب في إطلاق لحيته حتى لو سُهِّلت له أموره).

«حسناً، جاء دورك. هل لديك شهادة إنهاء خدمتك العسكرية؟» سأله الملازم.

إن هيئة الخدمة العسكرية في إيران هي مؤسسة لا تشبه أي مؤسسة أخرى. فهي ليست فاسدة. ولم تكن كذلك قط. ففي عهد الشاه، كما هو الحال اليوم، كان من النادر أن يتمكن شاب في سن التجنيد من السفر إلى خارج البلاد قبل أن يؤدي خدمته العسكرية. وأذكر أنه في ظل النظام الإمبراطوري، كان الشبان العزاب - الذين

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان يتعين عليهم إبراز شهادة الخدمة العسكرية قبل أن يتزوّجوا - أكثر سعادة وكانوا يكبرون وهم بعيدون عن أحبائهم، في سويسرا أو في أي مكان آخر، ولا يعودون إلى إيران كي لا يُرغموا على أداء خدمتهم الوطنية التي تعتبر التزاماً مطلقاً.

لكن الحرب مع العراق فاقمت الوضع. فقد كان جميع الشبان يرسلون إلى الجبهة. وكان آباؤهم، لحماية أبنائهم، يبيعون جميع ممتلكاتهم: بيوتهم وسياراتهم وسجاجيدهم ومجوهراتهم، ويهرّبون أبناءهم إلى الخارج، عبر الجبال التركية أو السهول الباكستانية. أما في وقتنا الحالي، فإن الشباب من الطبقة الراقية - بمعنى آخر الأغنياء، سادة الجمهورية الإسلامية - قد حددوا سعراً لتصاريح الدخول إلى البلد والخروج منه، وهم يعرفون تماماً أنه بدون شهادة الخدمة العسكرية، لا يستطيع أي شاب مغادرة التراب الإيراني. وأصبح أبناء الأغنياء المتمردون يضطرون إلى دفع خمسة آلاف دولار إلى هيئة الخدمة العسكرية حتى تفتح لهم أبواب مطار مهر آباد ومطار الإمام الخميني كما لو كان ذلك ضرباً من السحر.

«أرني إياها»، طلب الملازم.

«ليست معي»، أجاب الشابّ الحليق.

«حسناً، اخرج من هنا وعد عندما تصبح أوراقك جاهزة. إنه يظن أن كلّ شيء مقبول هنا»، أضاف الملازم وهو ينظر إلى داريوش.

«اذهب إذن»، قال ملتفتاً إلى الشاب، «لا يمكنني أن أفعل أي شيء من أجلك».

زمّ الشابّ شفتيه وغادر المكتب بخطى وئيدة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«الآن، جاء دورك يا حضرة الدكتور. كيف يمكنني أن أساعدك؟»

«جئت للتو من عند العقيد آزارديل في مكتب جوازات السفر المركزي. إنه يبلغك تحياته».

«إنه رئيسنا الكبير».

قرع أحدهم الباب. قال الملازم: ادخل. أبدى شيئاً من الانزعاج عندما ظهر الشاب نفسه عند الباب وسأل، «وماذا لو أنني لم أجد شهادة خدمتي العسكرية؟»

«هل أديت خدمتك العسكرية أم لا؟» سأله الملازم بصوت مرتفع.

«طبعاً، أديتها».

«حسناً، أحضر لي الشهادة».

أغلق الشاب الباب.

«لعلك يجب أن تتصل بالعقيد آزارديل وتقدم له تعازيك»، استأنف داريوش كلامه، «كما تعرف لأن ابن عمه. .»

«حضرة الدكتور، كنت على وشك أن أطلب منك رقم هاتفه الخليوي، لكن هذا الفتى التافه العنيد الذي لم يؤد خدمته العسكرية لم يترك لي الوقت لعمل ذلك».

أعطاه داريوش رقم هاتف العقيد على الفور. فُتح الباب مرة أخرى، وظهر الشاب الحليق دون أن يؤذن له بالدخول.

«من أين أستطيع أن أحصل على نسخة من شهادة الخدمة العسكرية؟» سأل الملازم بصفاقة.

«جرب قطّة عمّة أمك»، صاح فيه الملازم، «أغلق الباب. لا أريد أن أرى وجهك ثانية».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اختفى الشاب من دون أن ينبس بكلمة أخرى. أخبر داريوش الملازم موختاربور بأن مؤتمراً سيعقد قريباً في فرنسا مما يعني أنني لا أستطيع الانتظار شهراً حتى أجدد جواز سفري، وهو مؤتمر في غاية الأهمية. وأن هذا... وأن ذاك...

«اصعد إلى الطابق الثاني بسرعة»، قاطعه الملازم، «لقد أصبحت الساعة الثانية تقريباً بعدها تُغلق المكاتب».

«عزيزي الملازم، هل يمكن أن تتكرم وتطلب من سكرتيرك أن يرافقنا؟»

«حضرة الدكتور، سوّد الله وجهي! لا يمكنني أن أفعل ذلك. كما ترى، فإن جميع هؤلاء الناس المصطفين بين الطابقين الأول والثاني ينتظرون منذ أول البارحة».

«لن أسأل ثانية. لكن، إذا كان هذا هو الحال، فهل لديك قطعتان أخريان من النوغا من أجلها؟» سأل داريوش.

قدّم لي الملازم العلبة. ثمّ، بدفق من اللطافة، نادى سكرتيره وأمره بأن يسهّل صعودنا إلى الطابق الثاني.

وأضاف، «عندما يصلان إلى هناك، يمكنهما أن يصطفّا أمام الكوة».

إن هبوط ضغط دمي ودهاء داريوش وفّرا لنا ساعة من الزمن على الأقل، بل ربما يوماً كاملاً. وفي ومضة عين، وصلنا إلى الطابق الثاني حيث كان علينا أخيراً أن نحترم نظام الانتظار في طابور مثل الآخرين. كان أمامنا ثلاثة أشخاص. جلسنا على مقاعد، وللمرة الأولى في ذلك اليوم، أتيحت لي أخيراً فرصة التحدث مع داريوش - أو الدكتور أسكارنيا. بدأنا الحديث لكن هاتفه أخذ يرنّ.

«نعم، لا يهمني ذلك على الإطلاق، ليس ذنبي» قال للشخص

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المتّصل، «كان يجب أن يدرس بشكل أفضل» ثمّ التفت إليّ، وقال: «هل تعرفين مراد آغا منذ فترة طويلة؟»

لم يكن مراد آغا سوى المصور في استوديو إكباتانا، الشخص الذي أوصلني بهذا الدكتور الذي يشبه داريوش. لا أعرف ماذا أقول. أقرّ بالحقيقة - عندما أصبح قريبة من مكتب إصدار الجوازات - قد تكون خطأً قاتلاً.

«إن مراد آغا وزميله حسن آغا مفيدان ولطيفان كثيراً»، قلت بحذر، «جميع من في حيّنا يتحدّثون عن لطفهما».

«شقيق مراد آغا زميل لي في كلية الحقوق».

رنَّ هاتفه مرة أخرى.

«أكبري؟ انتظر وسأدقّق في الأمر»، ردّ داريوش.

فتح حقيبته وتصفّح بعجالة دفتر ملاحظاته، وقال: «لم يصل أكبري إلى علامة النجاح، عليه أن يعود في أيلول».

أنهى داريوش الاتصال.

«إني أعطي دروساً في كلية الحقوق في الساعة الثانية».

«أوه حقاً؟ ماذا تدرّس؟»

«علم الجريمة. لكن حبّي لشقيق مراد آغا ولمراد آغا يعني أنه لكي أساعدك، لم أتمكن من الذهاب لإعطاء دروسي. لذلك كما ترين فلا يتوقف طلابي عن الاتصال بي. إنهم يريدون أن يعرفوا الدرجات التي حصلوا عليها».

شكرته وتساءلت في سريرتي كم ستكلّفني هذه «المساعدة»، وتساءلت أيضاً عن نوع الأجر الذي يتقاضاه إخصائي بالأمراض إذا تغيّب عن دروسه لمرافقة أحد معارف شقيق صديق له إلى مكتب جوازات السفر في يافت أباد.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رنَّ هاتفه مرة أخرى. أنصت الطبيب قليلاً ثم صرخ بشيء من الغضب، «لقد قلت له مائة مرة ألّا يتغيب عن الدروس، لكنّه لا يصغي إليّ، إنه لا يحضر أبداً! نعم، نعم، أعرف، أعرف. كان شقيقه شهيداً، وماذا يعني ذلك؟ هذا لا يعني أنني يجب أن أغدق عليه الدرجات».

يبدو أنه كان غاضباً، استوى واقفاً، واتجّه نحو المكتب، وواصل مقاومته اللفظية. شعرت بالرغبة في أن أقول له إنه يجب عليه إرضاء شقيق الشهيد وإعطاؤه علامات جيدة على الرغم من مساوئه. من يعرف، فقد يؤدي ذلك إلى التعجيل في طلبي للحصول على بطاقة هوية وطنية أو (وما أدراك) يساعدني على استعادة أرضي في الشمال ذات يوم. حسناً، لدينا كلنا أحلامنا.

عاد داريوش وجلس.

«لن يستسلموا»، قال موضحاً، «لنعد إلى مراد آغا. هل تعرفين شقيقه؟»

«لا، لم ألتق به قط».

«لقد أضعتِ نصف حياتك. إنه واحد من أولئك الفتيان خوش تيب، الوسيمين الذين لم يعد يوجد مثلهم الآن. يطلقون عليه في كلية الحقوق ألان ديلون. هل تعرفين من هو ألان ديلون؟»

هززت رأسي باستحياء، ولم أقل له إن زوجي كتب فيلمين من أفلامه، *بورسالينو* و*المسبح*.

«يبدو أنه طلّق بريجيت باردو».

«حقاً؟ لم أعرف شيئاً عن ذلك».

ولم أقل له إن زوجي كتب فيلم *فيفا ماريا* وأنه كان يعرف بريجيت باردو. لقد مضى على ذلك زمن بعيد. يبدو أن النجوم

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يتقدمون في السنّ هنا أبطأ من أي مكان آخر. لكن من الأفضل ألّا أتحدّث عنهم، ففي ذلك خطر أن نبتعد عن موضوعنا.

«كما تعرفين، إن شاء الله، سأقول لك شيئاً. عندما تحصلين على جواز سفرك وتسافرين إلى الجانب الآخر من العالم، فلا تعودي إلى إيران. اسمعي نصيحة طبيبك. مع أنني لست أكبر سنّاً منك كثيراً».

أخذ جواز سفري، فتحه وقرأ تاريخ ميلادي.

«كما ظننت. الفرق بيننا خمس سنوات. نعم، كما كنت أقول، عندما تصبحين هناك، لا تعودي، اطلبي الجنسية. عندي جنسية رومانية، كما تعرفين».

لم أقل له إن لديّ الجنسية الفرنسية أيضاً، بل لديّ جواز سفر فرنسي لكني أفضّل عدم استخدامه هنا. رنَّ هاتفه مرة أخرى. لم يعد يردّ.

«لقد أرسلت زوجتي وأطفالي - فتاتان صغيرتان، جميلتان كدميتين - إلى رومانيا»، ثم أضاف، «وأنا أرسل لهم كلّ ما أكسبه. لا أبقي أيّ شيء أكسبه هنا. لا شيء».

«هل تتحدث اللغة الرومانية؟»

«بالطبع لا لكن زوجتي وأطفالي يتحدثون بها بطلاقة، يمكنكِ أن تكوني واثقة من ذلك».

جاء دورنا. توجّهنا إلى الكوة. دقق وثائقي رجل يرتدي بدلة رسمية. شعرت بالقلق بأنه لن يقبل صوري، لكن بدا لي أنها لن تكون مشكلة. حتى أنه لم ينظر إليّ. وفجأة أعاد لنا الطلب، وقال: «عودا غداً، لا توجد لديكما نسخ من الصفحات من واحد إلى عشرة».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«سأنسخها في الحال»، أجابه داريوش.

«لا، سنغلق الآن. أصبحت الساعة الثالثة. كان يجب أن أغادر في الساعة الثانية».

«لن يستغرق ذلك أكثر من دقيقة. سأنزل وأنسخها في مكتب الملازم موختاربور».

«آلة النسخ عنده معطّلة».

«لكن لدى السيدة توصية من الأعلى. أوه، ليتني مت! فقط أعطني دقيقة واحدة لأذهب وأنسخ صوراً عنها».

«أسرع إذاً. هيا أسرع».

أخذ داريوش جواز سفري ولوّح لي بأن أتبعه. اندفعنا نهبط الدرج بسرعة، ربما ليس أربع درجات دفعة واحدة، بل درجتان معاً على الأقل.

كان الشرطي في الطابق الأول منهمكاً في دفع الناس إلى الخارج. خرج معهم وطلب داريوش من الشرطي في الطابق الأرضي أن ينتظرنا قبل أن يقفل الباب.

«لن تنسى قالب الحلوى»، همس في أذنه. هذا يعني أنني يجب أن أدفع مبلغاً معيناً للشرطي. هززت رأسي موافقة. اقترحت أن نطلب سائق سيارة الأجرة لمساعدتنا في عملية النسخ.

«إنه من هذه المنطقة. يستطيع أن ينسخها بسرعة».

رفض داريوش وأجاب، بشيء من الكبرياء، «لا يمكنني أن أئتمن أحداً بجواز السفر».

مرة أخرى داس فوق عشرات النساء الجالسات على الأرض اللاتي ينتظرن دورهن حتى الغد أو بعد غد. أعطاني حقيبته، وأمسك جواز سفري بين أسنانه، ربما لكي لا يضيّعه في الطريق، وصعد إلى

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

شاحنته الصغيرة. انطلق ورحت أراقبه وهو يبتعد. تمكنت من رؤية جانب وجهه وجوازِ السفر يبرز بين أنفه وذقنه. أصبحت الآن أقف وحدي خارج مكتب جوازات السفر.

كان الشرطي يراقبني، منتظراً قالب الحلوى. ما المبلغ الذي عليّ أن أعطيه له؟ أردت أن أتصل بنرجس. أخرجت خمسة آلاف تومان من حقيبتي ودسستها خلسة في يده. تلامست يدانا، وبذلك وضعنا القوانين الإسلامية على المحك. بسرعة كبيرة دسّ النقود في جيبه دون أن يعدّها وشكرني.

ثم أضاف، «ستصبح درجة الحرارة أربعين مئوية قريباً، ولا أستطيع أن أشتري مروحة لأسرتي».

اعتراني شعور بالخجل. كان بإمكاني أن أعطيه مبلغاً أكبر، أكبر بكثير. خمسة آلاف تومان لا تكفي لشراء مروحة.

فقلت له: «إن شاء الله، عندما أعود لآخذ جواز سفري، سأعوضك عن كلّ الإزعاج الذي سببته لك»، وهذا يعني باللغة الفارسية الفصيحة أنه يجب أن ينتظر حتى يشتري مروحة.

مرّ وقت طويل ولم يعد داريوش. انتظرت بنفاد صبر. بدأ الشرطي يتململ. فإذا تأخر داريوش أكثر، فإنه سيطلب مني ثلاجة، مجمّدة، مايكرويف، واللّه أعلم ماذا. أبدى صوتي الداخلي الذي خنقته حتى الآن مخاوفه بصوت مرتفع وواضح وقال: لقد أخذ أحدهم جواز سفري دون أن يعطيني إيصالاً أشار الشرطي إلى ساعته.

فقلت له: «سيعود الدكتور في أيّ دقيقة»، ثمّ رددت اللازمة التي تعلّمتها من داريوش «لقد طلب الملازم موختاربور منه أن ينسخ رسالة لأقدمها بنفسي إلى العقيد آزارديل».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

للأسماء تأثيرها. هزّ الشرطي رأسه. ابتعد قليلاً ومنع امرأتين أو ثلاث نساء كنّ يحاولن الدخول.

قال لهن: «ارجعن غداً. لم نعد نقبل طلبات أخرى اليوم، ألا ترين».

أشارت واحدة منهن نحوي وصاحت، «وماذا عنها؟ ماذا تفعل هناك؟ لماذا لم تطلب منها أن تذهب هي الأخرى؟»

«لقد أرسلتها جهات عليا».

دنت مني المرأة مباشرة كما لو أنها ستضربني. تراجعتُ بضع خطوات.

وقالت: «لم نقم بالثورة حتى تأتي نساء من أمثالك ويدخلن قبلنا. سأريكِ. سأريكم جميعاً أن هذه الأمور قد انتهت. انتهت منذ زمن بعيد».

أردت أن تبلعني أمعاء الأرض. أردت أن أختفي من على الوجود. أردت أن أتجوّل بسعادة في مخزن كبير، أردت أن أشتري جاكيت مارني، أردت أن...

فجأة رأيت داريوش ممسكاً بجواز السفر والنسخ بين أسنانه، وقال: «لقد حصلنا عليها. أصبح الطلب كاملاً». ثم ترجل داريوش من شاحنته الصغيرة، وتوجّه نحوي. وعندما سمع احتجاجات المرأة، قال يوبّخني: «ماذا فعلتِ الآن؟»

لم أقل شيئاً. أعطاني الوثائق، وأخرج بطاقته الطبية من جيبه وأراها للمرأة المشاكسة.

«إنها تعاني من اكتئاب شديد»، قال لها بثقة، «وأنا طبيبها. يجب أن تذهب إلى الخارج للعلاج. لقد غبت عنها دقيقتين لأفاجأ بامرأة مثلك تهاجمها».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بالرغم من القيود الإسلامية، أمسك يدي (تماماً كما يفعل الطبيب لأنه - كما أظن - يُسمح لهم بإعطاء امرأة تحتضر قبلة الحياة)، وجرّني بعيداً عن ذلك المكان الخطر.

عدنا إلى الطابق الثاني. كان الدرج الآن خاوياً ماعدا حفنة من الناس يهبطون من الطابق العلوي. توجّهنا إلى المكتب وأصبح علينا أن ننتظر دورنا مرة أخرى.

«لو لم أصل في الوقت المناسب لكانت تلك المرأة السليطة قد أكلتك وأنت على قيد الحياة».

تملكني خوف شديد من أن أرى تلك المرأة ثانية. رحت أتلفّت بحثاً عنها. دخلت فجأة امرأة عجوز ترتدي عباءة إلى الغرفة، وتمتمت ببضع كلمات غير مفهومة، ثم تهاوت على الأرض. تركني داريوش على الفور وهرع نحوها. عندما جاء دوري قدّمت ملفي للضابط، ورحت أرمق داريوش بعينين قلقتين. إني أحتاج إليه الآن أكثر من أي وقت مضى، وإلى الكلمات الماكرة التي يهمس بها بمهارة في آذان رجال الشرطة. رأيته جاثياً على الأرض، حقيبته مفتوحة، يعطي المرأة دواء.

مرّة أخيرة. .راحت تصرخ، «دعوني أذهب إلى كربلاء آخر مرّة. .»

لا يوجد عندي وقت لألوّح باسمي العقيد آزارديل والملازم موختاربور. وضع الضابط الملف فوق كومة من الوثائق وراءه، وثقب جواز سفري بثقابة ليبطل مفعوله، وختم على ورقة وأعطاني جواز السفر المثقوب والإيصال، ثمّ، ومن دون أن ينبس بأي كلمة، نهض واقفاً وأسدل الستارة على كوّته وغادر.

انتهى اليوم. عدت إلى داريوش الذي طلب مني أن أجلس حتى

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تسند المرأة رأسها على حضني. لم تكن رائحة الشنبللية تفوح منها، تلك الرائحة التي تنبعث من أحجار الصلاة، ومن المكتبات الصامتة والدرج المظلم. أردت أن أمسّد جبهتها لكني قاومت هذه الرغبة. عندما رفعت رأسها ورأت الكوة مغلقة راحت تنشج.

«أريد أن أذهب إلى كربلاء وأموت هناك»، أخذت تنوح.

لم أكن أتوقّع ذلك. أحسست بالدموع تسيل على خدي. تمكّن داريوش من رفع المرأة وأجلسها على كرسي وسألني، «حسناً؟ حسناً؟ متى سيعطونك جواز سفرك؟»

قلت له إني أعطيت الملف إلى الضابط.

«و؟»

«ولا شيء».

استدار داريوش عن المرأة ونظر إليّ، وبشيء من الغضب، قال: «يجب ألّا تبكي عليها بل يجب أن تبكي على مستقبلك. إنها ستذهب إلى كربلاء، لا شكّ في ذلك، أما أنتِ، فأنتِ قضيّة خاسرة، والآن لا أعرف متى ستذهبين إلى فرنسا. لا يمكنني أن أعدك بأيّ شيء».

بالإضافة إلى المرأة العجوز ذات العباءة، لم يبق أحد في المكتب إلا أنا وداريوش. ساعدنا المرأة على الهبوط إلى الطابق الأرضي وهي لا تكفّ عن ترديد عبارة «أريد أن أذهب إلى كربلاء للمرّة الأخيرة. إلى كربلاء. دعوني أذهب إلى كربلاء، ثمّ أموت...»

عرضتُ عليها أن أوصلها بالسيارة إلى بيتها لكنها رفضت. قالت إنها ستنتظر دورها حتى يوم غد، في المكان الجالسة فيه.

«ماذا سنفعل الآن؟» سألتُ داريوش.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«سأذهب إلى المشرحة، لكني سأتصل بك بالهاتف هذا المساء لأخبرك إلى أين وصلنا».

شكرته. عاد إلى شاحنته وغادر بعد أن وضع حزام مقعده بين ساقيه. كانت الساعة الرابعة والنصف. مضى عليّ الآن سبع ساعات مع إخصائي الأمراض هذا الذي يعمل في المشرحة، وأستاذ مادة علم الجريمة في كلية الحقوق، الرجل الذي لا يستطيع أن يرفض طلب المصور الشاب.

توجهت عائدة إلى سيارة الأجرة. عندما وجدت السائق يغط في النوم، صعدت إلى السيارة راجية أن يوقظه صوت فتح باب السيارة. لكن لم يجد ذلك نفعاً. سعلت، ثمّ خرجت من السيارة وصفقت الباب بقوة، ومع ذلك لم يستيقظ.

«اعذرني! اعذرني! أرجوك استيقظ!»

لم ينفع أي شيء. شغّلت هاتفي الخليوي وأطلقت سلسلة من الرنات في أذنه، فأجفل وجلس. لقد نجحت. صعدت إلى السيارة ثانية وطلبت منه أن يوصلني إلى البيت. انطلقت السيارة، لكن لم تكد تمضي خمس دقائق حتى توقّف أمام دكان صغير عليه لافتة تقول: *السندويتشات أولاً، ثم السينما*. ترجّل السائق وقال: «آسف مدام. يجب أن أحتسي كأساً من الشاي. لا أريد أن أبدو وقحاً لكني لم أتناول شيئاً منذ الصباح».

هززت رأسي.

ثم أضاف، «وأنتِ كذلك. انزلي وتناولي معي كأساً من الشاي. هذا لن يضرك بشيء. سنستغرق أكثر من ساعة حتى نصل إلى المدينة، لذلك ارحمي نفسك. لا ترفضي كأساً صغيرة من الشاي».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إنه محقّ. نزلت من السيارة ودخلنا معاً إلى المقهى الصغير الذي تعبق فيه رائحة البصل والكباب. طلب طبق عجة وكأس شاي، طلب مني أن أجلس إلى طاولة، وذهب وجلس إلى طاولة أخرى بعيداً عني. نهضت ودعوته لأن يجلس معي إلى طاولتي. رفض (المجاملات المعهودة) ثمّ قبل. أحضر النادل الشاي وقليلاً من الخبز الذي تناثرت عليه بذور الخشخاش وطبقاً من البيض المقلي.

«تفضلي»، قال لي السائق، «ستكون خطيئة إذا رفضت».

عند ذاك توقّفت شاحنة صغيرة أمام المحل، وترجّل منها رجلان ضخمان يرتديان سترات سوداً وقمصاناً بيضاً مفتوحة الرقبة. كانا يلفّان حول رقبتيهما خرقتين طويلتين من القطن لونهما أحمر وأسود، يستخدمانها لمسح الزجاج الأمامي للشاحنة. طلبا نرجيلة. ليس هناك أية مشكلة.

رنَّ هاتفي وظهر على الشاشة رقم زوجي في باريس. ضغطتُ على الزرّ الأخضر ورحت أستمع إلى صياحه: «أين أنت بحق السماء؟ إني أحاول أن أجدك منذ الصباح! اتصلت بموهتارام ألف مرة وهي لا تكف عن ترديد الكلمتين نفسهما: تيليفون لاتير».

معه حقّ. فعبارة «تيليفون لاتير» هي المعلومة الوحيدة التي يمكن أن تقدمها موهتارام للأجانب الذين يتصلون بي في طهران. رحت أشرح لزوجي بهدوء بأنني أمضيت اليوم كله في مكتب جوازات السفر. فأخذ سائقا الشاحنة وسائقي والنادل يراقبونني وينصتون بدهشة.

«و؟ هل حصلت على جواز سفرك أخيراً؟» سأل زوجي.

ماذا يمكنني أن أقول له؟ هل أخبره بأنني الآن بصحبة سائق سيارة الأجرة وأننا جالسان أمام طبق من البيض المقلي في مقهى

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

صغير في جنوب طهران بعد أن أمضيت اليوم كله في مكتب جوازات السفر؟

«إذاً هل أنهيت جوازك؟ متى ستعودين؟»

لم أقل له إنهم ثقبوا جواز سفري القديم وإنه لم يعد صالحاً للاستخدام.

«بعد فترة. لقد قدمت لهم طلب تجديد. لقد تم كلّ شيء».

«ومتى ستحصلين عليه؟»

«لا أعرف الآن».

كان سائقا الشاحنة وسائقي والنادل لا يزالان يحدّقان بي. فجأة خشيت أن يبدؤوا يلوّحون باستمارات التأشيرة تحت أنفي.

«لا أستطيع أن أتكلم الآن»، قلت لزوجي.

«أين أنتِ إذاً؟»

«سأتناول طبقاً من البيض المقلي».

«لا تنسي أننا مدعوون لحضور مهرجان (كان) السينمائي الذي سيقام قريباً».

بدا لي أن مهرجان كان السينمائي يبعد مسافة تزيد على مليون ميل. وعدتُ نفسي بأن أتذكّر سائقي الشاحنة وسائقي والنادل وأنا أصعد الدرجات الحمراء المفضية إلى قصر المهرجانات. وعدتُ نفسي بأن لا تجعلني دبابيس شعري ذات النهايات المدبّبة ولا كعب حذائي من ماركة برونو فريسوني أنسى هؤلاء الرجال الذين التقوا بالمصادفة حول طبق بيض مقلي ونرجيلة، والذين دهشوا عندما سمعوني أتكلّم فجأة باللغة الفرنسية على الهاتف.

سدد السائق الفاتورة التي قد يكون مبلغها ضئيلاً. ثم عدنا إلى

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

السيارة، ووصلنا أخيراً إلى العمارة التي أسكن فيها بعد ساعة ونصف.

سألته كم يجب أن أدفع له.

فأجاب بأنني ضيفته. هنا عدنا مرة أخرى إلى المجاملات (تاروف). فمن المألوف أن يرفض سائق التاكسي أن يأخذ الأجرة في البداية على حين يصرّ الزبون على الدفع. بعد محاولتي الثالثة، ذكر لي مبلغاً فدفعته له وشكرته على طبق البيض المقلي قبل أن أنزل من السيارة.

عند مدخل البناية نهض السيد إسكندري واقفاً.

سألني: «أين كنتِ طوال النهار؟»

«في مكتب جوازات السفر»، قلت له وأنا أضغط على زرّ المصعد.

لم يبد أنه قد تفاجأ وحاول انتهاز الفرصة إلى أبعد حد ليعرف كيف سارت الأمور.

سألني، «كم يستغرق تجديد جواز السفر الآن؟»

«أكثر من شهر».

لم يبد أنه فوجئ أيضاً.

عندما دخلت إلى البيت، نبهتني موهتارام التي أنهت صلاتها للتو، بأن زوجي اتصل أكثر من عشر مرات. ثمّ راحت تتلو قائمة طويلة من الأسماء تلفظها بطريقة خاطئة. كنت متعبة جداً ولم أرغب في تصحيح أخطائها، ألقيت بنفسي على سريري. رغبت بالاتصال بنرجس لأخبرها عن مغامرتي، لكنّي قاومت هذا الإغراء أيضاً. كنت متعبة حقاً، منهكة لا يمكنني أن أفعل شيئاً آخر.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خرجت بعد ساعتين وذهبت إلى شقّة خالتي. فتحت ماسيرات الباب وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة. قبّلتها، ثمّ قبّلت سميرة التي بدت متجهمة أكثر من كنّتها. لم أر حميد. لم يأت لمصافحتي. خمّنت أنّهم يشعرون بالامتعاض مني بسبب الهاتف.

قفزت ابنتي، فحملتها بين ذراعي وهي تقهقه. سمعت همساً، فذاب قلبي من الخوف، وشعرت بالقلق على زوج خالتي. خشيت أن يكون قد أصيب بمكروه لكنني عندما دخلت إلى غرفة الجلوس، رأيته مستلقياً على سريره. شعرت بالاطمئنان عندما رأيته لا يتحرك. بحثت عن خالتي فوجدتها في غرفة نومها، مكوّمة على أريكة صغيرة وقد وضعت رأسها بين يديها.

«لقد اعتقلوا حميد»، قالت وهي تنشج (إن خالتي لا تتوقف عن البكاء) «لقد ذهب صباح اليوم ليرتاح قليلاً ثمّ اتصل بنا الدكتور بشيري في الساعة الثالثة تقريباً وأعلمنا أنه تم القبض على حميد وبحوزته أفيون».

عندما قلت لها إنني لا أفهم لماذا تبكي، قالت: «أوه، لا يمكن لأحد أن يضع نفسه في مكاني! لا أحد يفهمني! إذا حميد...» وصمتت لتجفف دموعها، ثمّ استمرّت بأنين: «... إن لم يكن حميد هنا فمن سيغسل زوج خالتك وينظف نونية سريره؟»

«ممرض، حميد آخر»، قلت لنفسي وأعطيتها علبة مناديل ورقية، «سأتصل بنرجس الآن وأطلب منها أن تجد أحداً».

«لا أحد يمكنه أن يحلّ محل حميد»، ردّت وهي تمخط بصوت مسموع، «يبدو أنك لا تفهمين. كيف يمكنني أن أنام في غرفة مجاورة لناريه خار، شخص غريب؟»

الحديث منته. إنها على حقّ. من وجهة نظرها، إنها محقّة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

طلبت منها أن تشرح لي كيف ألقي القبض على حميد. أخذت قطعة قماش ومخّطت فيها.

قالت: «كان في سار أسياب مالارد، وداهمت الشرطة المكان واعتقلت جميع الموجودين. قال الدكتور بشيري إن جميع من في ذلك الحيّ مشتبه فيهم في نظر القانون، بل من الممكن أن يُعتقل هو نفسه إذا ذهب إلى هناك».

قاومت الرغبة في القول إنه لو كان الدكتور بشيري هناك لما تجوّل وجيوبه مليئة بالأفيون.

«اتصل حميد بالدكتور بشيري فوراً»، تابعت خالتي، «وذهب فوراً، أطال الله عمره، إلى مركز الشرطة ليكفل حميد».

«إذن هل سيطلقون سراحه؟»

«لا، سيحتجزونه ليوم أو يومين. وقبل أن يطلقوا سراحه يطلبون أن يقدم لهم شخص قريب منه سندات ملكيّة لكفالته. سيعود الدكتور بشيري، كيف يمكنني مكافأته، مع سندات شقّته».

رنَّ هاتفي. كانت نرجس التي عرضت أن تأخذني لزيارة معرض، معرض عن فوانيس السكة الحديدية. إنها جنة الشخص الذي جمعها. لقد حوّلت الثورة كلّ إيراني إلى رجل أعمال صغير. فعندما قامت الجمهورية الإسلامية أُلقي بزعماء النظام السابق - الذين لم يهربوا من البلاد - في السجن وصودرت جميع ممتلكاتهم وأموالهم. لكن زوجاتهم كنّ على مستوى التحدي: فبعد أن سُلبن كلّ شيء (السيارات والبيوت والسائقين والخادمات وعمال الحدائق) بدأن يعملن في الحياكة ورحن يبعن كنزات صوفية. وعندما شجّعتهن النجاحات المبكّرة التي حققنها، اشترت بعض تلك النساء ماكينات خياطة، ووظفّن خياطات - نساء من الطبقة الفقيرة اللاتي يحارب

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أزواجهن في الجبهة - ورحن يصنعن ملابس أطفال ويبعنها بالجملة إلى مراكز التسوّق في الإمارات العربية المتحدة. أعرف امرأة جمعت مبلغاً كافياً وكان زوجها لا يزال يرزح في السجن، وبعد سنتين تمكنت من شراء سيارتها المصادرة، وبعد ستّ سنوات، تمكّنت من استعادة بيتها المصادر. وعندما أُطلق سراح زوجها الذي كان محافظاً لإحدى المحافظات في المنطقة الوسطى، كان قد استرجع جميع وسائل الراحة التي كان ينعم بها أيام زمان لكن بفارق وحيد وهو أن زوجته هي التي استعادتها كلها.

وتعرفت زوجات أخريات أقل حنكة وجرأة على خيّاط مغمور وقدمن له آخر نسخ من مجلات الأزياء من باريس وميلانو، وأقمن معارض أزياء - واستخدمن بنات أخواتهن وصديقاتهن للعمل كعارضات أزياء - وحصلن على عمولات من بنات أخواتهن وبنات أخوات صديقاتهن. وبعد موسمين اثنين، ذهبت مصممات الأزياء الناشئات (اللاتي لم يلمسن حتى الآن خيطاً وإبرة) إلى باريس، وبدأن يتصرّفن باعتبارهن مصممات أزياء محترفات، وانتقدن بقوة المنطقة بين الساقين في بناطيل «أرماني» وطريقة تصميم الأكمام عند «ماكس مارا».

وحوّلت نساء أخريات شققهن إلى صالات عرض، وملأنها بالبضائع من سوق الجمعة (جمعة بازار) وهو السوق الذي تباع فيه ألبسة رخيصة يوم الجمعة - وصرن غنيات بعد أن قمن ببيعها بعشرة أضعاف ثمنها للعاملين في السلك الدبلوماسي في العاصمة. أما النساء الأخريات، الأكثر حنكة وخيالاً، فرحن يقمن معارض خاصة بهن.

إلى معرض كهذا ستذهب نرجس لزيارته هذا المساء. أحد تلك

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المعارض، لأن إحدى الصديقات (دائماً صديقة إحداهن) قد جمعت أكثر من مائة فانوس من فوانيس السكة الحديدية وستعرضها للبيع - من ذلك النوع الذي كان الحمالون يحملونه ذات يوم وهم يسيرون على رصيف محطة القطار لكي يرى الركاب طريقهم عند نزولهم من القطار.

رفضتُ دعوتها. فلا أستطيع أن أترك خالتي وعلبة المناديل الورقية في حضنها. لتذهب الفوانيس إلى الجحيم.

«سآتي وأخذك بعد المعرض»، قالت نرجس، «أنت على طريقي».

أعرف تماماً أنني لست على طريقها لكن بالرغم من كل هذا الازدحام في حركة المرور، فإنها ستضطر إلى القيام بدورة كبيرة لتأتي إليّ.

لكي أصرف انتباه خالتي، حدثتها عن اليوم الذي أمضيته مع إخصائي الأمراض الذي يدرّس علم الجريمة في كلية الحقوق، وعن متعهد البناء الذي يبحث عن عين، وعن المرأة التي ترسل فتيات إلى دبي، وعن العجوز المتلفعة بعباءة والتي رشت السلطات بدجاجة حيّة، وعن السائق ذي الإصبع المبتور الذي شاركته في تناول أفضل طبق بيض مقلي في حياتي. فتركت علبة المناديل الورقية تسقط على الأرض وراحت تضحك.

ثمّ سألتني فجأة، «هل تظنين أنك تستطيعين أن تطلبي من دكتورك أن يذهب ويُخرج حميد من مركز الشرطة هذا المساء؟»

«لا لا أستطيع أن أفعل ذلك، أقسم لك. لا أستطيع أن أفعل ذلك».

أعادها رفضي إلى المتاهة اللانهائية لمدى احتياجها إلى حميد،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وإلى إدمانه، وعيوبه، وكسله وضعفه. التقطت علبة المناديل الورقية مرة أخرى وتشبثت بها هذه المرة. حتى أنها لم تجرؤ على إخبار زوجها عن الأحداث التي جرت لي اليوم لكي لا تؤدي سلسلة الأحداث السيئة التي مررت بها إلى موته. لعلها للمرة الأولى في حياتها لم تهرع فيها لإخباره بما سمعته.

في هذه الأثناء، كانت زوجة حميد وأخته ماسيرات تتجادلان في المطبخ.

«لو أمسكت به»، قالت ماسيرات، «لقطعته إرباً إرباً، تيكه، تيكه».

«اخرسي! لقد حصل له كل ذلك بسببك. قبل أن يتزوجك لم يكن يدخن سجائر».

«أوه، هذا صحيح، هذا صحيح. لقد تزوجتُ قذّيساً وحوّلته إلى نفاية».

نهضت خالتي لتستعيد موقعها كقائد، فوبختهما بحدة وقالت: «اسكتا الآن، أنتِ وهي، هذا يكفي. اسكتا وإلا تخلّصت منكما».

صمتتا في الحال، مع أن هذا التهديد يخلو من أي مضمون. عندما مررت أمام المطبخ بعد قليل، رأيتهن يبكين ثلاثتهن.

عادت نرجس واتصلت: قالت إنها تنتظرني في مرآب السيارات. ذهبت لأودع زوج خالتي الذي كان غافياً أمام قناة يورو نيوز التي تكرر نشرة الأخبار نفسها كلّ ثلاثين دقيقة. ودّعت النساء اللاتي كن لا يزلن يجهشن بالبكاء، وألقيت الغطاء على رأسي وحملت ابنتي النائمة بين ذراعي.

فتحت نرجس باب السيارة لكني لم أستطع أن أجلس بجانبها لأن المقعد الأمامي كان مليئاً بالفوانيس. حاولت لوهلة أن تفك

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سلاسلها لكنها لم تتمكن من ذلك، فاقترحت أن أجلس في المقعد الخلفي.

«اشتريت ثلاثة»، قالت وهي لا تزال تتصارع مع السلاسل.

«وماذا ستفعلين بها؟»

«إذا لم أتمكن من تعليقها في البيت فإني سأضعها في القبو عند أمّي. أتعرفين، لقد اشترت زوجة توتال عشرة فوانيس».

عندما استقرّ بي المقام في المقعد الخلفي، أشرت إلى نرجس بأن غطاء رأسها قد انسدل قليلاً كاشفاً عن شعرها.

فقالت: «لا يهم. إني أترك رأسي يتنشق بعض الهواء المنعش في الليل».

عادة ما تقص نرجس شعرها الأبيض قصيراً جداً، وهي مقتنعة بأنها تبدو رجلاً وراء المقود.

«كل من يراك جالسة في المقعد الخلفي سيظن أني سائق سيارة أجرة»، وأضافت بشيء من الزهو، «في الشتاء الماضي أوصلت امرأة وجلست في المقعد الخلفي. لم أفهم سبب ذلك لكننا عندما وصلنا إلى المكان الذي أشارت إليه سألتني كم الأجرة. لقد ظنت حقاً أنني أحد أولئك الرجال الذين يوصلون الناس لقاء أجر وهم في طريقهم إلى البيت من المكتب».

بالرغم من ذلك فقد ألححت عليها بأن تغطي رأسها. فلم أكن أرغب في أن أختتم يومي وأنا ماثلة أمام لجنة ثورية مع الفتيات اللاتي اعتقلن في مراكز التسوق في المدينة لعدم التزامهن التام بوضع حجابهن بصورة صحيحة. وقد يصل ذلك إلى حدّ العقاب الجسدي، والجلد بالسوط.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في الطريق حدثتها عن يومي. فهي الوحيدة التي يمكنني أن أخبرها بكلّ شيء من دون أن تؤنبني.

فقالت نرجس: «أحياناً يبدأ العرق يتصبب مني ما إن أنزل إلى الشارع».

«لماذا؟»

«لأن ذلك الشارع بالذات يذكّرني بلقاءات مع أناس لا أعرفهم، لكن كان عليّ أن أعمل على إنقاذ مصنعنا من الإفلاس. إذن رأيتِ داريوش ويافت أباد. .»

«لقد أنقذتِ مصنعكِ وأنا لم أحصل على جواز سفري بعد».

إنها تشير إلى مصنع لصناعة قطع تبديل السيارات الذي صادرته الثورة من عائلتها. لا أعرف تماماً ما هي القطع التي كانوا يصنعونها. وبفضل إصرارها وعنادها - بعد أكثر من عشر سنوات من اتباع شتى السبل والحيل وأشكال النفوذ - انتصرت نرجس أخيراً، وأُعيد لهم المصنع.

تجاوزنا استوديو إكباتانا. بصيص ضوء من الداخل أظهر الكراسي الاثني عشر مصفوفة ومغطّاة بقماش الجوت. حسناً، لقد أُنجز أحد الأعمال، على الأقل.

«لا تدعي الأمر يزعجك»، قالت نرجس عندما وصلنا، «في جميع الأحوال فقد وفرّت على نفسك يوماً أو يومين. ابقي وراء داريوش، لا تتركيه».

«قال إنه سيتصل بي هذا المساء».

«خابريه عندما تصلين إلى البيت، لا تنتظريه».

لا، لا يمكنني الاتصال به بعد منتصف الليل. لقد تعب الرجل المسكين كثيراً من أجلي طوال النهار. لا بد أنه مرهق الآن.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أفضّل أن أتركه ينام، لكنني لم أقل ذلك لنرجس لأنها لو كانت في مكاني لما تردّدت بإيقاظه من النوم.

عندما دخلت إلى البيت وابنتي نائمة على ذراعي، وجدت موهتارام تصلي *نماز قضائي حاجات*، وهي الصلاة التي يتوجّه فيها المرء إلى الله بطلب يريد تحقيقه.

عندما أنهت صلاتها لم تكلّمني. لم أنبس بكلمة واحدة أيضاً. في بعض الأحيان، من الأفضل أن تظل صامتاً. في هذا المساء، لا يعرف أحد إلا ربها ماذا تريد، وإني أحترم رغبتها.

حاولت أن أنام وأنا أفكر أين يمكن لنرجس أن تعلّق فوانيسها.

بغتة انطلق رنين الهاتف. أجفلت. إنه داريوش.

«السيدة نهال، هل أيقظتك؟» سأل.

«لا» قلت بصورة آلية.

«جيد. إذاً، قابليني غداً صباحاً في الساعة العاشرة خارج مستشفى فيروزغار».

«لماذا؟»

«للحصول على جواز سفرك، طبعاً».

حاولت أن أدوّن الزمن والمكان على أحد كتب ابنتي «دورا المستكشف».

وأضاف، «خذي نسخة من إيصالك لإعطائه للعقيد آزارديل».

«في مستشفى فيروزغار».

«نعم. سأكون هناك، قبلك بقليل. لتشريح جثة. جثة ابن عم العقيد في الواقع. الآن، تصبحين على خير ونامي نوماً هنيئاً».

اتصلت بنرجس على الفور.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«أترين، لقد اتصل بك. كنتِ قلقة على لا شيء. أوه، بالمناسبة، يجب أن نعود إلى بائع التسجيلات الذي اشترينا منه مجموعة ديلكاش في العلبة. إنها تتقافز في كل مكان. قلت يجب ألّا نثق بذلك الرجل».

لقد وعد بأن يبدّلها إن كانت هناك مشكلة.

«اسمعي إلى هذا»، قالت ورفعت سماعة الهاتف. سمعت أغنية ديلكاش *أشوفتيه هالي*، الأغنية التي كانت تحطم قلب أمّي دائماً: «أدين لك بمخاوفي وبكلّ ضعفي، أنتِ يا من ينسدل شعرها على كتفيها. إليك أدين بابتسامتي لهذه الحياة الصاخبة، أنت بشعرك الأسود، وعينيك السوداوين، السوداوين».

أتذكّر أمّي وابتسامتها لهذه الحياة الصاخبة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الثلاثاء

أيقظتني ابنتي في الساعة الثامنة عندما سلّطت ضوء المصباح اليدوي على عينيَّ. وبالرغم من أنني شعرت بخوف مما سيحدث في هذا اليوم الجديد، فقد كنت مشدودة أيضاً إلى عالم داريوش كأن قوة مغناطيسية غريبة تجذبني إليه. اتصلت بوكالة سيارات الأجرة وطلبت سائقاً راجية في سريرتي أن يكون سائقاً من كولاه مخملي، وقد أتناول معه طعام الغداء في مطعم كباب رخيص وبهيج بعد أن أنتهي من زيارة مستشفى فيروزغار.

لم يكن السائق اليوم هو نفس سائق البارحة. ربما كان سائق اليوم موظفاً في أحد المصارف. أقصد أنه قد يكون ذلك حقاً: فقد كان يرتدي قميصاً تحت سترته الرمادية الرسمية لكن بلا ربطة عنق (لم تنظر الثورة الإسلامية إلى ربطة العنق باحترام شديد، لذلك قرر المسؤولون الإيرانيون في الأمم المتحدة والمشاركون في المؤتمرات الدولية ارتداء قمصان بلا ياقات على الطراز الماوي). ومع ذلك، فقد أخبرته عن المكان الذي سنذهب إليه بشيء من الثقة بالنفس. ولعل سبب هذه الثقة هو أن أحد أصدقاء جدي هو الذي أسس مستشفى فيروزغار، لذلك، أحسست بأن هذا المكان لا يمكن أن يكون عدائياً نحوي.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أجد الراحة أينما أستطيع.

اختار السائق أن يسلك أكثر الطرق سوءاً وبطئاً وازدحاماً. أردت أن أدلّه على الطريق الذي كان عليه أن يسلكه، لكني لم أتذكر اسم ذلك الطريق الذي تنساب فيه حركة المرور بسهولة، وترددت في رأسي أسماء مختلف الجنرالات الذين قضوا في الحرب. في النهاية، تخلّيت عن فكرة إخباره حتى لو وصلت متأخرة.

انطلق من جهاز التسجيل في السيارة صوت فتاة صغيرة تتحدث بحماسة شديدة وبنبرة خطابية واضحة تندب فيها أغاني وقصائد الحبّ، وقالت إنها قد خُدعت وهُجرت. سألتُ السائق بحذر، هل هذه محطة إذاعية وطنية أم أنها مسجلة على قرص سي دي. لم أشأ أن أعطيه انطباعاً بأنني أعيش خارج البلد، لأن ذلك سيضاعف الأجرة في الحال.

فقال: «إنه قرص سي دي»، وأضاف، «إني مقتنع تماماً بكلّ ما تقوله».

وقعت في حيرة من أمري. فلو كانت الإذاعة المحلية تبث هذه الأغنية لتجرأت وطلبت منه أن يغلقها، لكن بما أنها تسجيل على قرص سي دي، فهذا يعني أنه اختيار شخصي للسائق، لذلك كُتب علي أن أسمعها حتى النهاية المرّة. راحت الفتاة الآن تشتكي وتندب (لم يكن يبدو أنها صادقة) بأن قلب حبيبها المتقلّب استبدل بها فتاة أخرى. سرت قشعريرة في جسدي. وتساءلت كيف يمكن منع النساء من الغناء والسماح لطفلة (في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر؟) أن تطلق هذا السيل من الكلمات المشحونة بالعواطف على الملأ؟ قلت لنفسي لا بدّ أن هذه الأغنية سُجّلت في لوس أنجلوس من قبل الجالية الإيرانية التي تعيش في المنفى. فمن خلال الأقمار

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الاصطناعية، غمر هؤلاء الإيرانيون إيران بتلك الأغاني القديمة التي تغنيها فتيات إيرانيات صغيرات السن ذوات أرداف رشيقة ونهود مشدودة، تدور كلها حول الفراق والهجران بالفارسية. ويقدمون لنا أيضاً ما يسمّى بالبرامج العلمية التي يجيب فيها محلّل نفساني عن أسئلة يطرحها على الهواء مباشرة مواطنون عصابيون من أبناء جلدتهم يشتكون ويتحسرون فيها على بقائهم في إيران. ويمكنك أن تسمع أيضاً يومياً المناقشات السياسية التي تعيد وتكرر منذ حوالي ثلاثين سنة العدّ التنازلي لسقوط الجمهورية الإسلامية.

أعطاني السائق علبة السي دي. قرأت اسم المغنية، مريام هيداريان، فوق صورة فتاة شابّة تحجب عينيها نظارات سوداء.

«لكن كم عمر هذه المغنية؟» سألته.

«ألا تعرفينها؟»

«لا».

استخدمَ عبارة حضرتكِ التي يستخدمها السائقون في معظم الأحيان عندما ينحو الركاب إلى الحفاظ على مسافة معينة.

«كيف لا تعرفينها؟ إيران كلها تتحدث عنها. إنها فتاة ضريرة. أظن أنها في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من عمرها، لكن صوتها لا يزال صوت طفلة».

لقد كشفتُ نفسي. لعله عرف الآن أنني أعيش خارج إيران. لا بد أن الأجرة تضاعفت على الفور. لعلها تضاعفت ثلاث مرات.

كان الصوت الطفولي لا يزال يواصل النحيب على قَدَرِها البائس، وكنت لا أزال أجد غناءها لا يطاق وأتوق إلى صمت كولاه مخملي.

وصلنا أخيراً إلى مستشفى فيروزغار متأخرين ربع ساعة. اتصلت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بداريوش الذي طلب مني أن أترجّل من التاكسي وأنتظر بضع دقائق بجانب كشك بائع الزهور. ترجّلت من السيارة وأنا سعيدة لأنني هربت من تلك الابتسامة المتكلفة الحلوة لتلك الفتاة الكفيفة التي يشبه صوتها صوت دمية. انتظرت على الرصيف ربع ساعة، ثمّ نصف ساعة. بدأ القلق يساور حارس المستشفى عندما رآني أتسكّع هناك. من أنا؟ ماذا تفعل هنا امرأة في الساعة الحادية عشرة صباحاً؟ أجهضتُ أسئلته وأوضحتُ له بأنني أعرف الدكتور أسكارنيا وأنني أنتظره. عندما سمع ذلك لاحت عليه علامات الرضا وعاد إلى موقعه بينما عدت أتمشى جيئة وذهاباً على الرصيف.

مرّ رجل وتمتم من زاوية فمه بسرعة، «هل تنيكين؟»

هذه هي أشدّ العبارات بذاءة في إيران التي يمكن أن تقال لشخص. أشدّها إهانة؟ هممم...

لم أردّ على ما قاله، بل لم أعره أي انتباه وعدت إلى السيارة لسماع الصوت الطفولي للمغنية العمياء التي لم تنته بعد من شكواها من القدر. جلست في المقعد الخلفي واسترخيت. بعد ربع ساعة عدت واتصلت بداريوش. لم يردّ. خرجت من السيارة *بيكان* الإيرانية الصنع، وتوجّهت إلى باب المستشفى واتصلت به مرة أخرى. هذه المرة ردّ، بل مدّ رأسه من نافذة في الطابق الثاني، ولوّح لي بيده ممسكاً بمبضع جراح وصاح، «لا تتحرّكي من مكانك، إني على وشك أن أنتهي. بقيت لي الأمعاء! الأمعاء فقط»، كرّر ذلك وهو يلوّح بالمبضع في الهواء.

أشحت بوجهي. كان الرجل الذي تحرش بي بفجاجة شديدة لا يزال واقفاً على الرصيف المقابل. كان لا يزال ينتظر ردّي. توجّهت إلى كشك الأزهار و- ببطء شديد، شديد جداً - اخترت أصيصين

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من الياسمين. دفعت ثمنهما وحملهما بائع الزهور إلى السيارة. تبعته وأنا أكاد ألتصق به، خائفة من أن يدنو مني الرجل المنتظر على الرصيف الآخر ويتحرّش بي ثانية.

رنّ هاتفي الخليوي: إنه داريوش.

«إيه بابا، أين أنتِ؟» سألني، «ألم أطلب منكِ أن تنتظري بجانب كشك بائع الأزهار؟»

ألتفتُ ورأيته. كان يقف أمام بعض أصص زهرة إبرة الراعي، محاطاً بخمسة رجال ضخام الجثة، بمن فيهم العقيد أزارديل. قلت له إنني واقفة على الطرف المقابل من الشارع، على مسافة خمسة أمتار فقط. عندما رآني، همس لي، «لا تنسي أن تقدمي تعازيك للعقيد».

بالتأكيد لن أنسى. توجّهت نحو العقيد وحييته ثم أضفت، «أرجو أن تكون خاتمة الأحزان».

شكرني بإيماءة برأسه، ونظر إلى داريوش الذي همس شيئاً في أذنه، ثم سألني عن إيصال البارحة. أخرجته من حقيبتي. ثمّ سألني عن رقم هاتفي الخليوي، فأعطيته له بالرغم من صيحات صوتي الداخلي الممانعة الذي أسكتّه على الفور. دوّن العقيد رقمي فوق الآية القرآنية المكتوبة في أعلى شهادة وفاة.

ألقيت نظرة تساؤل على داريوش.

فقال لي: «لا داعي للقلق. فعلى الرغم من كلّ ما يمرّ به العقيد الآن، فإنه سيهتم بجواز سفرك شخصياً».

أعرف أنني يجب ألّا أفعل ذلك وأنني يجب أن أحترم الفاجعة التي أصيب بها مؤخراً، لكنّي أريد أن أعرف أكثر.

«متى سيصبح جاهزاً؟» سألت داريوش.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«أسبوع على أبعد تقدير. سأتصل بك. لا تقلقي، كلّ شيء تحت السيطرة».

شكرت العقيد وداريوش والرجال الآخرين وعدت إلى السيارة. أغمضت عيني - لم يعد الصوت الطفولي للفتاة العمياء يضايقني الآن.

عندما عدنا ووصلنا إلى مدخل عمارتي، بدأت عملية التاروف مع السائق.

«كم الأجرة؟»

«كوني ضيفتي هذه المرة».

فتحت محفظتي وأخرجت بضعة أوراق نقدية.

«شكرا جزيلاً. كم هو المبلغ؟»

التقط دفتراً صغيراً، ووضع نظارته على عينيه، ودرس سلسلة الجداول المليئة بالأرقام.

«عشرة آلاف تومان»، أنهى كلامه.

دفعت له المبلغ على الفور دون أن أقول له إن توصيلة كهذه لا تكلف أكثر من ستّة ألف تومان.

في مدخل البناية وجدت السيد إسكندري والكراسيَ الاثني عشرة مصفوفة في صفّين.

قال: «جاء المصوران منذ قليل».

«لماذا لم يصعدا إلى البيت؟»

«لا يوجد أحد في البيت. لقد غادرت السيدة موهتارام البيت بسرعة وأخذت معها الصغيرة».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لكن لماذا غادرت بسرعة؟»

«لا أعرف».

تركت الكراسي في البهو واتصلت بخالتي في الحال. رجوتها ألّا تخبر زوجها بما حدث لي. لحسن الحظ أجابت هي نفسها، ووفّرت عليّ التعداد اليومي لكلّ فرد من أسرة موهتارام. لم يخفِ صوت خالتي آثار وقوع كارثة جديدة.

فقالت: «قبل أن يطلقوا سراح حميد، أرادوا أن يتحدثوا إلى والديه، فجاءت موهتارام، وتركت كيارا هنا، ثمّ ذهبوا إلى مركز الشرطة مع الدكتور بشيري، *زاد الله مقامه وشرفه عشرة أضعاف*».

انتهزت الفرصة لأطمئن خالتي عن جواز سفري الجديد، وكررت ما قاله لي داريوش حرفياً: «سيعتني العقيد أزارديل بطلبي شخصياً».

بدت راضية. عقيد، الآن هذا أمر يدعو إلى الاطمئنان.

ثم أضافت، «شيء أخير. سيأتي السيد سابيتي وهو يريد أن يراك».

«لماذا؟»

«لأنه لم يعد بإمكان كيارا أن تشاهد أيّ قناة من قنوات الأطفال».

السيد سابيتي هو الشخص الذي يركّب لي الطبق اللاقط. إن مسألة تركيب صحن لاقط في إيران تشبه لعبة القط والفأر بين السلطات وملايين السكان. فمن الناحية الرسمية، كلّ شيء ممنوع، أما في الممارسة العملية، ففي كلّ عمارة سكنية صغيرة، توجد خمسة أو ستّة أطباق لاقطة مخفية بدقة في الزوايا وعلى الأسطح. وتتوقف عملية مداهمة الحرس الثوري لهذه الأطباق على علاقات

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إيران الدولية. فمنذ نشوء قضية الأسلحة النووية، شددت الحكومة الإسلامية عمليات المراقبة والمصادرة، وبدأ السكان يُنزلون أطباقهم اللاقطة من الأسطح، ثم يعيدونها عندما تستتب الأمور. وكانوا يعيدونها إلى صناديقها الأصلية بدقة (في إيران يحتفظ الجميع بصناديق التعبئة الأصلية، حتى أنني رأيت في السوق قسماً كاملاً مخصصاً لبيعها).

أعرف أن خالتي ستخفي صحنها اللاقط أيضاً بعد بضعة أيام، راجية أن يكون ذلك لفترة مؤقتة. بينما سأجازف أنا وأبقي صحني اللاقط على السطح، بل إني سأبرمجه لاستقبال قنوات الأطفال. ويجد الأشخاص الذين يركّبون هذه الصحون اللاقطة متعة في استخدام الكلمة الإنجليزية (*upgrade*) لوصف هذه العملية، وتتخلل عبارات السيد سابيتي ما لا يقل عن ثلاث مرات كلمة *upgrade*، فيقول: «أولاً يجب أن نجري *upgrade* على قنواتك الفرنسية يا مدام. وهذا الـ *upgrade* وحده يستغرق ساعتين، وإذا كنت تريدين إجراء *upgrade* لقنوات أخرى فيجب أن تنتظري إلى الغد، لأن عليّ أن أذهب إلى بيت خالتك وأجري *upgrade* لقناة *يورو نيوز*».

تظهر على شاشة الهاتف المرئي نسخة مشوّهة من وجه السيد سابيتي. إنه في حوالي الأربعين من العمر، حليق الوجه، يتعطّر بالكولونيا. ويقتضي عمله الذي يقوم به بسرية تامة، أن يبدو أنيقاً، أو بأقل تقدير، أن يبدو في مظهر مقبول. أعدَدت نفسي لسماع وابل من كلمة *upgrades* عندما دخل وهو يحمل حاسوبه النقال وحقيبة وعدّة أمتار من الكابلات الملوّنة المتعددة. إنه يعرف أنّه ليس مضطراً لخلع حذائه في بيتي، فاتجه مباشرة إلى غرفة المكتبة حيث يقبع جهاز

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

التلفزيون. فتحه، وجلس على الأريكة، وراح يحدّق في حاسوبه النقال، وبدأ عملية الـ *upgrade* المعتادة.

تركته وحده عندما اتصل بزميل له.

ثم سألني، «يجب أن *upgrade* قناة بيوي. القناة التي تشاهدها ابنتك، مدام، أليس كذلك؟»

«نعم؟»

«كيف يمكنني أن أدخل إليها؟»

«بيوي أو تيجي أو قناة جي»، صحت من غرفة الجلوس.

«لا يهمّ كثيراً، لكن أرجو أن تبرمج قناة فرنسا ٢ وفرنسا ٣، وآرت.. آه، واترك لي قنوات الجمهورية الإسلامية أيضاً، لا تلغها».

«لا بد أنك الزبونة الوحيدة التي لا تطلب مني إلغاء القنوات الرسمية وإظهار قنوات فرنسية غير معروفة بدلاً من القنوات التي تبث من لوس أنجلوس. ما هو ذلك الشيء العظيم في قناة آرت؟ حاولت أن أشاهدها ذات يوم. كنّا قد بدأنا نتناول الطعام عندما بدؤوا يعرضون برنامجاً عن شلل الأطفال! هل تظنين أننا نحتاج إلى هذا في إيران؟»

لم أنبس ببنت شفة وتركته يواصل عمله. رنّ الهاتف. إنها ابنة عمتي، خبيرة النبيذ. إنها تريد أن تجدد جواز سفرها، وقد سمعتْ من خالتي بأنّني تمكنت من تحاشي الطابور والانتظار عشرين ساعة ثم انتظار آخر لمدة شهر.

«هل يمكنكِ أن تعطيني رقم الرجل الذي رتبّ لك ذلك؟»

«لم يحدث شيء بعد. لا يزال كلّ شيء في الهواء، حتى أنني لا أعرف ما إذا كنت سأحصل على جواز سفري».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«حسناً، إن كنت لا تريدين أن تقولي لي من هو...»

«بالطبع سأقول لك! لكني لا أكاد أعرفه. ماذا لو ثبت أنه لن يتمكن من تنفيذ ما وعد به، أو أنه يكذب... انتظري ريثما أحصل على جواز سفري، عندها سأخبرك كيف تتواصلين معه».

أغلقت الهاتف، كان يبدو أنها انزعجت.

تنحنح السيد سابيتي وسعل قبل أن يدخل إلى غرفة الجلوس التي أجلس فيها. فقد جرت العادة في العائلات التقليدية بأن يعلن الشخص من غير المحرمين (الشخص الذي لا ينتمي مباشرة إلى الأسرة) عندما يقترب بأن يسعل أو يتنحنح قليلاً أو يصدر صوتاً ما.

«مدام، سأنتهز فرصة عدم وجود موهتارام خانم هنا لأقول لك إن فكرة حجب القنوات الإباحية فكرة جيدة. إنك تعرفين أن تلك الشريحة من المجتمع عاشت في حرمان شديد ومنذ أمد بعيد إلى درجة أن رؤية صور كهذه قد تجعلهم يفقدون صوابهم بالكامل».

فضّلت ألّا أقول له إن موهتارام نفسها تدّعي أن الناس في كاشمار الواقعة شرقي إيران مسقط رأسها يشاهدون أفلاماً إباحية لساعات طويلة. وعندما كانت تستعد للذهاب إلى الحجّ (قدمت لها تكاليف الرحلة بعد أن أبديت رغبتي في انجاب طفل)، جاءت إحدى قريباتها الشابات لزيارتها عشية سفرها وأعطتها عشرة دولارات مع عنوان محل لبيع الملابس النسائية الداخلية لا يبعد كثيراً عن الحرم.

وقالت لها الفتاة: «ابحثي عن المحل. عندما تخرجين من باب الحرم، انعطفي قليلاً إلى اليسار وسترين لافتة أرجوانية لمحل الملابس النسائية الداخلية».

لم تكن موهتارام تريد شيئاً سوى الذهاب إلى مكة المكرمة لزيارة بيت الله، أو على الأقل زيارة أصحابه المؤمنين.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وتابعت الفتاة الشابة، «ادخلي إلى المحل وستشاهدين كلّ التصاميم معروضة على مشاجب، فلا تقلقي بشأن حاجز اللغة، ولن تضطري إلى سؤال البائع عن أيّ شيء. احضري لي كيلوت «جي سترينغ» له فتحة من الأمام في شكل قلب. الأمر في غاية السهولة. اجلبي لي اثنين، أحدهما أحمر، والآخر منقوش بجلد النمر. اتفقنا؟»

وعلى الرغم من أن موهتارام لم تكن تريد أن تشتري إلا مسابح وماء زمزم، فقد أخذت العشرة دولارات منها، وأكدت لقريبتها بأنها ستحضر لها ما طلبته منها.

لكنها لم تمتلك الشجاعة لشراء ما طلبته منها قريبتها الشابة. فعندما عادت وجاءت الفتاة لزيارتها، أعادت لها موهتارام دولاراتها العشرة مع قرآن صغير كهدية. لكن الفتاة استشاطت غضباً، وانتشلت الدولارات العشرة من يدها ودمدمت قائلة: ما الفائدة من ذهابك إلى الحج إن لم تجلبي معك شيئاً جيداً، وخرجت محتدَّة حتى أنها لم تشرب كأس الشاي الذي قدمته لها.

عندما سألتُ موهتارام لمن كانت قريبتها الطائشة سترتدي «الجي سترينغ»، فأجابت، «طبعاً لزوجها».

«وماذا يعمل زوجها؟»

«إنه عامل نظافة».

بالرغم من معرفة موهتارام بالأفلام الإباحية (التي تقول إنها شائعة كثيراً في المنطقة التي تعيش فيها)، فقد وافقتُ على مبادرة السيد سابيتي وقلت له إن بإمكانه أن يحجب تلك القنوات الإباحية. يجب القول إن هذه الأفلام تعطي صورة معينة عن الغرب، وهي صورة خاطئة بالطبع، بل مبالغ فيها كثيراً: فهي تعطي الانطباع بأن كلّ ما تريده المرأة هو أن تلقي بنفسها على أول رجل تراه في

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الشارع. وللأسف، يعتقد عدد كبير من الناس البسطاء أن هذه الصورة حقيقية، وتؤدّي إلى إحباط واسع ودائم يثير انحرافات فردية عميقة، حتى أني لا أجرؤ على تخيّلها. لكن ذلك يزيد أيضاً من إنكار المرأة الإيرانية ورفضها، وينطبق الأمر نفسه على المرأة في البلدان الإسلامية الأخرى.

«إذا قمت بحجب تلك القنوات»، تابع المهندس الحليق الوجه، «فإني سأحتاج إليك هناك لأنك عندما تحجبين قناة معينة فإنك تفقدين قنوات أخرى في الوقت نفسه. لا أحد يعرف سبب ذلك».

ارتعش صوتي الداخلي (مجازفة كبيرة! إنها حقاً مجازفة كبيرة!) وأوصى بأن أتخلى عن هذه العملية التي تقتضي مني أن أجلس على الأريكة في غرفة المكتبة، وأتابع القنوات الإباحية مع السيد سابيتي. لكن على الرغم من ذلك، ومرة أخرى، لم أنصت لصوتي الداخلي. جلست على الأريكة، تاركة مسافة بين وبين المهندس لأحمي نفسي من هبات الكولونيا التي تثير في نفسي الغثيان. راح السيد سابيتي الذي يمسك بيده جهاز التحكم عن بعد، يحرّكه بسرعة. وعندما كان يكتشف قناة إباحية، كان يبقى عندها لحظة (ليتأكّد من أنها فعلاً قناة إباحية)، ثم يضغط على عدة أزرار ليحجب القناة، ثم ينتقل إلى القناة التالية من دون أن ينبس بكلمة.

حاول صوتي الداخلي أن يطلب مني أن أقف على قدمي وأغادر الغرفة. لكنّي ظللت جالسة بدافع الخمول، أو لأنني فكرت بأن رؤية هذه المشاهد هي جزء من عمل السيد سابيتي، وقلت لنفسي إن الجلوس بالقرب منه ورؤية فرج وشرج فتاة شقراء تتأوه، يخترقها قضيبان أسودان ضخمان في آن معاً في لقطة مقرّبة ومجسّمة ليست فاضحة أكثر من قيام امرأة بتجريب بنطلون تحت عيني خيّاط.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

حاولت أن أقنع نفسي، لكني لم أفلح كثيراً.

دقّ جرس الهاتف المرئي ثانية. تركت السيد سابيتي ونجوم البورنو المنهمكات في عملهن. لم تكن رؤية الوجه على شاشة الهاتف المرئي تعني لي شيئاً، ففتحت جهاز الاتصال الداخلي وسألت، «من هناك؟»

على الرغم من الصورة الرديئة الظاهرة على الشاشة، تبيّنت الآن صورة يد تدفع إلى الوراء خصلات شعر، وتناهي إليّ في الوقت نفسه صوت يقول: «سلام، أنا مراد. أنا هنا، في الطابق الأرضي. هل يمكنني أن أجلب الكراسي؟»

هذا كلّ ما أحتاج إليه الآن - هو والاثنا عشر كرسياً. اقترحت عليه أن يجلب كل أربعة كراسي معاً في المصعد.

تساءلت بيني وبين نفسي كيف يتواطأ أولئك الذين يجلبون الطلبات والزوّار ويأتون كلهم في وقت واحد، خاصة في غياب موهتارام، عندها يتعين عليّ أن أقدم لهم الشاي مع أنني لا أعرف كيف أعدّ الشاي حسب ذائقة كلّ زائر. فبعضهم يحبّون احتساء الشاي في كأس، وبعضهم في كؤوس «كينار باريك» الصغيرة الضيّقة في الوسط، وآخرون لا يشربون الشاي إذا لم يكن في كاسات كبيرة من النوع التركي. أما اللون، فيجب أن يكون كثيفاً وغامقاً بالنسبة لبعضهم، وخفيفاً فاتحاً بالنسبة لآخرين. وإذا ارتكبت خطأ وقدمت كأساً من الشاي الخفيف لشخص يحبّه غامقاً فإنه سيرفضه ويقارنه بحساء أب- زيرو. وإذا قدمت كأساً من الشاي الغامق لشخص يحبّه خفيفاً، فلن يلمسه، بل سيشيح بوجهه عنه كأن لسان حاله يقول: «لا تقرّبي مني هذا الحساء الذي يُقدم لمدمني المخدّرات».

هناك تنويعة لا تعد ولا تحصى من أشكال الرفض. أوه، الحرج

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إذا قدمت شاياً كثيفاً فاتراً بدون قصد في كأس *كامار باريك* لشخص يحبّه حاراً حارقاً في كأس تركية طويلة. فما العمل؟ لذلك، لتفادي الطلبات المتنوّعة والمتناقضة في معظم الأحيان لضيوفي، فقد قرّرت أن أقدم قهوة للجميع. لكن موهتارام قالت لي إن تقديم القهوة الممتازة التي أجلبها معي من باريس إلى عمال الديكور والنجارين والمهندسين والعمال الذين يقومون بأعمال مختلفة في شقّتي ما هو إلا هدر للقهوة، لكني لم أعر رأيها أي اهتمام. فعندما أكون وحدي ويأتي ضيوف لزيارتي، يتعين عليّ أن أقدم لهم شيئاً، لذلك فإن القهوة تنقذني على الفور.

دخل مراد حاملاً تحت ذراعيه الكراسي الأربعة. أردت مصافحته فأنزل الكراسي وأعاد تحيتي. أراد أن يخلع حذاءه لكنني ذكّرته بأنه يستطيع ألّا يخلعهما هنا. بالإضافة إلى أنه كان عليه أن يهبط ثانية إلى الطابق السفلي لجلب الكراسي الثمانية الأخرى، مما سيتطلب منه الصعود والهبوط مرتين أخريين. حمل الكراسي الأربعة الأولى إلى غرفة الطعام، وسألني: «أظن أنك رأيتِ الدكتور أسكارنيا، أليس كذلك؟»

في كلمات قليلة قلت له إن الدكتور أسكارنيا كان مفيداً للغاية وقد بذل كلّ ما بوسعه ليخدمني. تناهى إلينا صوت تأوهات الفتاة الشقراء المنتشية من غرفة المكتبة. فسرت الأمر بسرعة وقلت إن المهندس يقوم بـ upgrading (استخدمت الكلمة الإنكليزية مع أنني لا أعرف ماذا تعني حقاً) الصحن اللاقط. خلّل مراد يده في شعره لكنه لم يبدِ أي تعليق قبل أن يخرج لجلب الكراسي الأخرى.

دخلت إلى المطبخ، وأعددت قهوة بسرعة ودعوت السيد سابيتي إلى غرفة الجلوس. تنحنح قليلاً قبل أن يدخل إلى الغرفة. وعندما

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

شمّ رائحة القهوة، صاح، «باه، باه. أنتِ الشخص الوحيد الذي يعدّ قهوة طيبة كهذه. إن upgrading القنوات في هذه الظروف ليس عملاً على الإطلاق. إنه ترف».

في تلك اللحظة عاد مراد يحمل أربعة كراسي أخرى تحت ذراعيه. حيّا الرجلان بعضهما بسوء ظنّ متبادل. لا بد أن أحدهما لم يكن يرى وجود الآخر هنا بنية سليمة. لماذا؟ أتساءل.

«سأصعد وأخفي الصحن اللاقط»، قال السيد سابيتي.

«أين؟»

«على السطيحة الخاصة بالسيدة التي تسكن الشقة في الدور الأخير. كما تعرفين، وراء أصص النذر الكبيرة تلك».

«لكن أليس من الخطر على جارتي أن تضع صحني اللاقط على سطحها؟»

«لا»، قال مؤكداً، «أوه لا، إنها تستطيع أن تفعل ذلك. إنها لا تخاف شيئاً. صدقيني، لو كان الجميع مثلها لما وصلنا إلى الحالة التي وصلنا إليها».

جرع فنجان قهوته. وعندما نهض واقفاً، أضاف: «بعد إذنك».

ثم خرج. انتظر مراد حتى أُغلق باب المصعد قبل أن يسألني.

«هل تدفعين لهذا الرجل شيئاً لبرمجة قنواتك؟»

«نعم، السّيد سابيتي يعمل لدى الوكيل الإداري لهذه البناية».

هذه كذبة: فالسيد سابيتي يعمل بصورة غير قانونية. مراد الذي ربما ظن ذلك، دفع بفكرته إلى النهاية، وقال: «كم تعطينه لقاء ذلك؟»

«خمسين ألف تومان»، قلت، ولم أذكر إلّا نصف المبلغ الحقيقي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هذا كثير؟ قولي لي، هل أبدو أنا وحسن شخصين معاقين أو شيئاً من هذا القبيل حتى تجلبي شخصاً مثله؟»

«يؤدي السيد سابيتي عمله بكفاءة وبأمانة».

«هل هذه أمانة إذاً؟ يلعب بحاسوبه النقّال، ويتفرج على تلك- اعذريني - القنوات الإباحية بوجود امرأة في مقامك، ويجرع بسعادة أطيب قهوة في طهران، ويطلب منك هذا المبلغ؟ هل هذه هي الأمانة؟»

حذّرني صوتي الداخلي بأن لا أحرف انتباهي عن الموضوع الأساسي، وعليّ حقاً أن أنسى الصحن اللاقط والكراسي وأركّز على جواز سفري. لمرة واحدة استمعت إليه، وسألته: «هل تقول إنني يجب أن أتصل بالدكتور أسكارنيا الآن أم لا؟»

توجّه نحو الكراسي الأربعة، وكما لو أنه لم يسمع سؤالي، أشار إليها بافتخار، وقال: «فقط انظري إلى هذا العمل! لقد أُصلحت كراسيك وأُعيدت إليك بعد ثمان وأربعين ساعة».

شكرته (في تلك اللحظة لم أكن مهتمة بالكراسي) وعدت إلى همي الأساسي.

«لو كنتَ مكاني هل كنت ستتصل بالدكتور أسكارنيا أم لا؟» سألته.

رمق مراد كأس السيد سابيتي الفارغ.

«لو كنتُ مكانك، هل تعرفين ماذا سأفعل؟ سألقي بهذا الذي يدّعي بأنه مهندس خارج البيت وعلى الفور».

«إذن يجب ألّا أقلق من أجل جواز سفري؟»

أزاح خصلة شعره عن جبينه بحركة يعتقد أنها حركة أنيقة، وقال بثقة شديدة: «إن الدكتور هو بمثابة أخ لي».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شعرت بالاطمئنان. فلست بحاجة الآن إلى الاتصال بداريوش، وهو ما ستقترحه عليَّ نرجس بالتأكيد. صببت لمراد فنجان قهوة وشربت أنا كأساً من الماء الممزوج بالسكّر (فأنا أحتاج إليه لمعالجة ضغط دمي المنخفض) لأهيئ نفسي لجولة من المجاملات المعتادة التي تسبق كلّ شكل من أشكال دفع الأجر.

«مراد آغا»، قلت بصوت منخفض، يكاد لا يكون ودّياً، «هل تتفضل وتقول لي بصراحة وبلا تردد وبدون مقدمات، كم أدين لك من أجل الكراسي».

لدهشتي الكبيرة سألني: «مع الشحن والتسليم؟»

«مع الشحن والتسليم».

«ثمانون ألف تومان».

إنه انتصار. لقد وفّرت نصف ساعة. سددت له المبلغ من دون مساومة. وقبل أن يغادر، هرعت إلى المطبخ وأحضرت له علبتيْ بن وقدمتهما له تعبيراً عن شكري لأنه أوصلني بداريوش.

قلت له: «واحدة لزوجتك وواحدة لحسن».

أخذهما وقال إنه سيجلب الكراسي الأربعة الأخيرة. وبينما كان يهمّ بالمغادرة، خرج السيد سابيتي الذي نزل من السطح من باب المصعد. حطّت عيناه فوراً على علبتيِ البن اللتين يحملهما مراد.

ثم قال: «لقد موّهت الطبق اللاقط. لا يستطيع أن يكتشفه حتى جني مجنّح».

دخل، ودقق في الكراسي بازدراء، ثم أضاف، «هل أصبح الناس الآن يغطّون الكراسي بقماش الخيش ويسمونه تنجيداً؟» (مع أنه لم يكن باستطاعة مراد سماعه لأنه أصبح داخل المصعد).

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«إن آغا مراد مصور كما تعرف، ولطف شديد منه أنه أوصلها إليّ».

من الأفضل ألّا أذكر الزوجتين اللتين تعملان في الخياطة. من يعرف إلى أين سيفضي بنا ذلك؟ هزّ السيد سابيتي كتفيه استهجاناً واستعدّ للذهاب. تركته لحظة ثم عدت أحمل له علبة أخرى من البن.

«تفضل هذا شيء صغير لك. الآن أينما كنت يمكنك أن تتناول قليلاً من هذا وستصبح سعيداً في عملك على الفور، أو حتى لو كان ترفاً، كما أطلقت عليه».

هنا عاد مراد حاملاً الكراسي الأربعة الأخيرة. رأى علبة البن التي أعطيتها للتو للمهندس الذي لم يبد أي محاولة لإخفائها، بل على العكس تماماً، رفعها وقربها من صدره كأنها غنيمة. كان بإمكاني أن أرى أن هذه الهدية لا تدخل السرور كثيراً إلى نفس المصور. في غضون ذلك، لم يستطع السيد سابيتي إخفاء امتعاضه من عملية التنجيد.

فقال مشيراً إلى الكراسي: «فقط حتى تعرفي أنني لم أقل ذلك لكي أحظى بمعاملة خاصة».

«إنه مجرد شيء صغير»، قلت بإصرار، مُشيرة نحو علبة البن، «إنها مجرد هدية صغيرة».

«ماذا قال السيد المهندس هنا عن الكراسي؟» سألني مراد.

«لا شيء، لا شيء، لم يقل شيئاً».

لم يعد بإمكاني تحمل ذلك. ألا يمكنهما أن يذهبا الآن ويتركاني وشأني؟

وهكذا فعلا. ربما سيتابعان حديثهما في المصعد. هذا لا يزعجني على الإطلاق.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

توجّهت إلى سريري. نبهني صوتي الداخلي بأنّني لم ألق نظرة على الكراسي. تركته لشكوكه، فأنا متعبة جداً حتى أنني بدأت أشعر بالانزعاج.

«ثمانون ألف تومان لقاء عمل رديء! تعالي»، لا يزال صوتي الداخلي يدمدم.

عدت إلى غرفة الجلوس ورحت أدقق في كرسيين أو ثلاثة كراسي. كان السّيد سابيتي محقّاً: لم تكن النتائج مرضية تماماً. لقد أجرى العمل بسرعة وعلى نحو سيئ. لكنّي عزيت نفسي بالفكرة بأن الثمانين ألف تومان هذه قد وفّرت عليّ الانتظار ثمانياً وأربعين ساعة في طابور طويل والإرهاق والتوتر العصبي الذي سينجم ذلك.

أويت إلى الفراش، محاولة مرة أخرى أن أعثر على مكان لوضع فوانيس سكة الحديد في شقّة نرجس. رنَّ الهاتف: إنه زوجي.

«كيف تسير الأمور مع جواز سفرك؟»

«قابلت المسؤول الكبير اليوم، الرئيس. قال لي إن ذلك سيستغرق أسبوعاً»

«لا أفهم. أقول لك، لا أفهم ماذا يجري هناك. إذاً لن تعودي في الوقت المحدد لحضور مهرجان كان؟»

«ربما لن أتمكن من حضوره. لكنّي أتمنّى أن أكون هناك في فترة مهرجان فينيسيا».

«لكن مهرجان فينيسيا سيقام في بداية أيلول، كما أننا لم نُدع إليه بعد».

لا أعرف ماذا أقول له. كنت أحاول أن أحكي نكتة. طمأنته بقدر ما أستطيع، حاولت أن أهدئ من روعه.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كيف يمكنني أن أشرح له على الهاتف كلّ الجهود الملتوية التي أبذلها ؟

بعد قليل اتصلت بي نرجس. قالت إنها ترغب في أن نذهب ونتعشّى في مطعم ياباني. لا، لا أستطيع أن أرى نفسي وأنا جالسة في وضعية اللوتس أتناول ساشيمي ومنديلي معقود تحت ذقني. قلت لها إنها يجب أن تأتي إلى بيتي وتتناول معي الطعام. سنطلب سندويتشات من بيكس، مطعم المأكولات الجاهزة العصري، ونشاهد فيلم *مار أدنيترو* على قرص دي في دي.

على حين غرة، رأيتها هنا عند سريري. لا بدّ أنني غفوت لمدة ربع ساعة. إن نرجس تعرف جميع من في طهران، ويمكنها أن تدخل إلى أيّ بناية دون أن يسألها حارس البناية. يمكن أن يوصلها أي شخص إلى أي مكان، وبعد بضع ثوانٍ، ستعرف اسم الغريب الذي يوصلها، حتى أنها ستعرف عدد عشيقاته وما يملك من ثروة. تسير الأمور على النحو التالي: «أتعرفين، في عهد الشاه، كان ذلك الرجل يملك كلّ مصانع إنتاج زيت الطهي، ويعمل حالياً مع الملالي، وأن زوجته ترى دبلوماسياً بلجيكياً، وعنده ثلة جميلة من الفتيات اللاتي لا تتجاوز أعمارهن عشرين سنة، وقد اشترى الآن شقّة تبلغ مساحتها ألف متر مربّع لها ثلاثة طوابق ويوجد مسبح على سطحها».

أخرجت نرجس من حقيبتها قائمة طعام مطعم بيكس المكتوبة باللغة الإنكليزية وتعين علينا استخدام كلّ قدراتنا اللغوية لحلّ قائمة السندويتشات. بعد شيء من التردد، اتفقنا على طلب سندويشتيْ كاليفورنيا. وخلال انتظارنا أعطيت نرجس موجزاً عمّا حدث معي اليوم. لكنها قبل أي شيء آخر، أصرّت على فحص القماش المجدول على الكراسي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«إذاً هل تظنين أن الأمور ستسير بشكل جيد بالنسبة لجواز سفري؟» سألتها وهي تلصق وجهها في أحد الكراسي المنجدة.

ثم قالت لي: «يجب أن تتصلي بدايريوش كلّ يوم، بل يجب أن تتصلي به عدّة مرات في اليوم»، ثم أضافت، دون أن تنتظر إجابتي، بل قالت مباشرة: «ماذا فعلوا هنا بحق السماء؟ كان بإمكاني أن أفعل أفضل من ذلك لو عملتها أنا! لقد ألصقوا الجديلة... أووووه».

أمسكت بطرف الجديلة وصاحت: «من مجرد لمسها فإنها ستُقتلع من مكانها، حتى أنه لا يتعين عليّ أن أشدّها! ثمانون ألف تومان لقاء هذا العمل السيئ».

ربما كانت على حقّ، ففي رأسي أشياء أخرى.

بعد قليل وصل فتى توصيل الطلبات. ثمّ نشبت حرب كبرى بيني وبين نرجس على من سيدفع ثمن السندويتشات. كانت حجّتي حاسمة: «أنتِ في بيتي».

«حسناً».

وافقت على أن تكون ضيفتي. دفعت العشرين ألف تومان وفتحنا سندويتشاتنا: قطعتا خبز صغيرتان مع أربع حبات بندورة صغيرة وشريحتان شفّافتان من لحم الخنزير - علماً أن لحم الخنزير محرّم في الإسلام. ابتلعناهما بلقمة واحدة في الممر قبل أن نصل إلى غرفة المكتبة.

وضعت قرص الدي في دي لفيلم *مار أدنيترو*. لكن قبل أن يبدأ الفيلم، قالت نرجس «لقد خُدعنا بهاتين السندويشتين، هذا شيء مؤكد. أما بالنسبة إلى الكراسي، فيجب ألا تقبليها. اتصلي بمصوريك فوراً حتى أكلمهما».

بدأت تظهر أسماء الممثلين على الشاشة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«*بعدان، بعدان*، لاحقاً، لاحقاً»، قلت لها.

أغمضت نرجس عينيها بعد خمس دقائق فقط، ولم تفتحهما إلا في المشهد الأخير. ساعة ونصف من الهدوء. بعد ذلك، اتصلت بي خالتي لتقول لي إن موهتارام وكيارا في طريقهما إلى البيت. سألتني ماذا نفعل، لكني لم أخبرها أنني أشاهد الآن فيلماً عن رجل مشلول لا يستطيع مغادرة السرير وأمله الوحيد أن يساعده أحد عندما يموت.

غادرت نرجس وعادت موهتارام وكيارا إلى البيت. أخذت ابنتي معي إلى السرير، متجاهلة نصائح أطباء الأطفال بأنه يجب تشجيع الأطفال على النوم وحدهم. *بعدان، بعدان*، لاحقاً، لاحقاً.

وغفلت دون أن أجد مكاناً لفوانيس نرجس.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الأربعاء

في صباح هذا اليوم، بعد أن تحررت من القلق الذي كان ينهشني من أجل جواز سفري، طلبت من صديقة مثقفة تتحدث الفرنسية بطلاقة وترجمت أعمال بلزاك (بالإضافة إلى مؤلفين آخرين)، مرافقتي إلى *باساج*، مركز التسوق.

يجب الانتباه قليلاً إلى الثياب التي ترتديها الشابات الإيرانيات في هذه الأماكن، والتي يمكن القول إنها ثياب فاضحة. ولما كان الحجاب إجبارياً، فقد وظفت الفتيات كلّ ذكائهن ومهارتهن لإيجاد طريقة يظهرن فيها أكبر قدر من شعرهن. وإزاء هذه الرقعة المربعة البسيطة لقطعة القماش، فقد اخترعن شيئاً يشبه السقالة - باستخدام أمشاط ودبابيس شعر - لرفع شعرهن في شكل عرف فرس، يفضل أن يكون أشقر اللون، يمكّنه من الانفلات من تحت غطاء الرأس. ويغيرن باستمرار شكل ولون عيونهن وحواجبهن، وتنحو الدُّرْجة (الموضة) حالياً إلى أن تكون العيون حالكة السواد (لا بد أن مستوردي العدسات المتعددة الألوان قد أفلسوا) والحواجب المرسومة في هيئة قبعة صينية مدبّبة، وتتدلى أطرافها من السقالة، لتقدّم مجموعة من الألوان تتراوح من الأرجواني إلى الأشقر الرمادي، بينما تجثم فوق رؤوسهن نظارات شمسية من ماركات

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مشهورة وتخفي غطاء الرأس المزعوم. وقد شُذِبَت أطراف أنوفهن بعد أن أجرين عمليات تجميل عديدة حتى لم تعد تكاد تظهر أخيراً. وتبرز أفواههن المنفوخة بالسيليكون على نحو شنيع، وأصبحت تبرز أبعد من أنوفهن. وتزين آذانهن على الدوام أقراط ذات فتحات كبيرة وسمّاعات أجهزة تسجيل، ويرتدين بنطلونات مطاطة ضيقة تلتصق بجلدهن، وينتعلن أحذية بكعوب عالية تبرز منها أظافر أقدامهن المطلية والمزركشة بطريقة فنية، ويرتدين سترات أصغر من حجمهن الطبيعي بقياسين لا تكاد تغطي أردافهن. وكلما كنّ أصغر سناً وأكثر جمالاً، كانت ستراتهن أقصر وأضيق، مع أنهن قد يجازفن في أن يُلقى القبض عليهن لارتدائهن هذا الضرب من الثياب.

لا تشكل الدُّرْجة في هذا البلد ظاهرة سطحية، بل تعبّر عن موقف سياسي. فجميع تلك الفتيات تقريباً فارعات الطول ورشيقات القوام، بخلاف أمهاتهن القصيرات البدينات، ويحملن جميعهن بأيديهن ذات الأظافر المطلية بألوان زاهية، أشياء من ماركة فويتون أو غوتشي أو برادا المزيفة، وهواتف خليوية لا يمكنهن الاستغناء عنها. وتحمل بعضهن هاتفين اثنين، هاتفاً بكلّ يد. وتملأ روائح عطرهن الهواء. لقد أخفقت ثلاثون سنة من السلطة الإسلامية في أن تفرض عليهن تلك الأنثى المثالية: امرأة داكنة مخفية مجللة بعباءة سوداء وتنتعل حذاء منبسطاً مملاً متعباً، لكي توفر غنجها ودلالها اللذين يمكن أن يكونا قد تبقيا لديها لذلك اللقاء الطقسي مع زوجها في ليلة يوم الخميس.

ماذا نرى من صورة المرأة الإيرانية في الغرب؟ إما هذه الصورة الكئيبة، لا بل البغيضة التي يبدو أنها تنكر نفسها، لكنها على استعداد لحرق العلم الأمريكي الغريب عندما يأمرونها بذلك، أو

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ذلك النموذج المحشو بالبوتوكس والبشرة البراقة وإيشارب هيرمس، تقود سيارتها المرسيدس وقد ألقت على مقعد السيارة الخلفي عصي الغولف.

بين هذه النقيضين، أين هي إيران؟

في السنوات الأخيرة، بدأ الشباب الذين يشعرون أنهم في مأمن تام من التعرض للسجن والمحاكمات التي تهدّد النساء باستمرار (ففي الآونة الأخيرة، أُعدمت فتاة في السادسة عشرة من عمرها شنقاً بتهمة «الزنا» وهي لم تتزوّج بعد)، يقلدن الأنثى في أساليب جمالها.

فقد أجرى الفتيان في طهران، على الأقل الذين يرتادون مراكز التسوق، عمليات تجميل لتحسين شكل أنوفهم، ويزججون حواجبهم، ويطيلون أظافرهم ويطلونها بطلاء الأظافر، ويرفعون شعرهم الملمَّع إلى الخلف. وهذه أيضا بعيدة عن صورة المسلم المتدين.

مررنا من أمام مقهى يعجّ بشبان وشابّات عشاق، لكن لا يسمح لهم بتقبيل أو مداعبة أو مسك أيدي بعضهم بعضاً. وعلى مسافة غير بعيدة، يوجد مقهى للسحاقيات تشغل النساء فيه معظم الطاولات. وهنا رأيت إحدى مرتادات ذلك المقهى وهي تزيح غطاء رأس صديقتها إلى الخلف خلسة وتقبّل شحمة أذنها.

كالعادة ارتديت بنطلوناً وسترة واسعة ذات ثنيات لكي أحمي نفسي من العيون المحدّقة. دخلنا أنا ودافار، صديق مترجمتي، إلى محل مخصص لبيع بضائع جلدية راقية مزيفة. كانت لدى البائعة - التي اختفى جناحا أنفها فلم تعد تظهر منه إلا فتحتا منخريها، فتحتان فاغرتان في منتصف وجهها - أصابع بيضاء طويلة إلى درجة لا تصدق مزدانة بخواتم بولغاري مزيفة. وبخلاف المحلات الفوضوية

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الأخرى، لا تُعرض على الرفوف هنا إلا بضعة تصاميم من حقائب (فويتون وغوتشي وبرادا)، وأحزمة (دولشي وغابانا وبيربيري) ونظارات (ديور وشانيل)، ويكسو الأرضية رخام أسود والأثاث مكسو بجلد بني بلون التبغ.

حدّدت البائعة - التي لا بدّ أنها تدربت جيداً على أن تنظر باستصغار إلى الزبائن-لنفسها مجال رؤيا لا نظهر فيه أنا ودافار. بعبارة أخرى، لم تكن ترانا، وهو أمر جيد أيضاً، لأنني استغليت الفرصة لدراسة الأسعار المخفية بمهارة داخل الجيوب التي تزيد خمسة أضعاف على أسعار نفس البضائع في أي محل آخر. أشرت إلى حقيبة ماركة فويتون من النوع الذي يُعلّق على الظهر، وسألتها عن ثمنها. تنشّقت بملء رئتيها هواء (مكيّفاً)، بدا أنه زاد تضييق جناحي أنفها، وتنازلت وأجابت باللغة الفارسية بنبرة فيها مسحة من لكنة أمريكية، «مئتان وخمسون ألف تومان».

ما إن جازفت وقلت لها إن نفس الحقيبة تُباع في المحل المقابل بخمسين ألف تومان، حتى ألغتني تماماً من مجال رؤيتها مرة أخرى.

«إن المحل أمام محلنا يستورد بضائعه من تركيا، أما نحن. .»

بدأت تقول، ثمّ أخذت نفساً عميقاً آخر وملأت رئتيها بالهواء قبل أن تنهي جملتها، «فإننا نجلب بضائعنا من إيطاليا». ثم ألقت نظرة سريعة على ثيابي التي ربما رأت أنها غير جديرة بمحلها، ولا بالمحل المقابل الذي يجلب بضائعه من تركيا، وقالت: «انزلي إلى الطابق الأرضي وستجدين البضائع الأرخص المصنوعة في إيران».

آن الأوان لأعيد لها شيئاً من ازدرائها لي. فقبل أن أغادر المحل، تسكعت فترة أطول، ورحت أتفحص كؤوساً كبيرة الحجم، وفجأة سألت دافار كيف تسير أموره في ترجمة رواية "*La Peau de*

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

"*chagrin*؟. ولم تخطر له للحظة أن هذا أحد أساليبي، أجاب على الفور، «إني أواجه صعوبة في ترجمة الجملة *Mon amour vent des échelles de soie escaladees en silence, par tine suit d'hirer*». كان الهدف من قول هذه الجملة بالفرنسية أن أضع البائعة في مكانها الملائم. ووضعت النظارات الضخمة على منضدتها، ولم أعر أدنى أهمية لها، وواصلت بالتحدث بالفرنسية، وقلت «قل لي دافار، ماذا ستترجم عندما تنتهي من *La Peau de chagrin*؟»

عندما هممنا بمغادرة المحل، شكرت البائعة بشفتين مزمومتين ولم ألتفت لأنظر إليها. لقد جاء دوري الآن - بتحدثي بالفرنسية وقراءتي لبلزاك - لكي أزيلها من آفاقي. فلم يعد لها وجود.

فأجاب دافار، "*Le Medecin de campagne*" الذي لم يلاحظ مواجهتنا الخفية.

دخلنا إلى المحل المقابل، المحل الذي يستورد بضائع مزيّفة من تركيا، فرحب بنا البائع، ودعا دافار بعبارة «مهندس». لو كان صديقي يضع ربطة عنق لأطلق عليه لقب «دكتور»، لأنه منذ قيام الثورة، فإن الأشخاص الوحيدين الذين ظلوا يضعون ربطات عنق هم الأطباء. فأصبح يطلق على كل من يضع ربطة عنق لقب دكتور حتى لو كان محامياً أو عاطلاً عن العمل. أما عبارة «مهندس» فهي تطلق على أي رجل يبدو أنه من الطبقة الراقية: يرتدي بنطالاً من الكتّان، وقميص بولو ماركة لاكوست ونظارات ماركة *راي بان*. وهذا ما كان يرتديه دافار. وفوق كل ذلك، فقد كان يتعامل مع الآخرين بأسلوب مهني راق لا يمكن تجاهله بسهولة.

في هذا المحل، كما هو الحال في أي مكان آخر، احتلت صورة المرشد الأعلى بعمامته أكثر الأماكن أهمية، وأبرزها، وكانت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تصدح موسيقى بوب إيرانية مسجّلة في لوس أنجلوس من جهاز تسجيل. كانت الرفوف مليئة بالحقائب والأحذية والأحزمة والمحافظ. وعلى منضدة صغيرة، كان هناك كاتالوغان لبضائع فويتون وغوتشي. وجدت نفس حقيبة الظهر وأريتها لدافار. كان ثمنها بالفعل ثلث سعر المحل الآخر.

فجأة اندفعت مجموعة من النساء إلى مركز التسوّق، فأنزلت البائعة في المحل المقابل، التي تجلب بضائعها المزيفة من إيطاليا، درفات محلها بعصبية، وبسرعة كبيرة استبدل بائعنا كتالوغ فويتون بكدسة من *كيهان* (صحيفة يومية محافظة)، وأطفأ الموسيقى، وفتح المذياع على الإذاعة الرسمية، وأدار لافتة لويس فويتون التي أُلصقت وراءها صورة الكعبة.

«إنها شرطة الآداب. لقد جاؤوا. أرجو ألا يصيبنا ضرر كبير».

خطوت باتجاه واجهة المحل.

«أرجوكِ اجلسي»، قال لي البائع.

جلست.

مرّ عدد من النساء بسرعة، نساء الحرس الثوري، متشحات بالسواد من أخمص رؤوسهن حتى أقدامهن. اندفعت إحداهن إلى المحل الذي دخلنا إليه. رحب بها البائع. لم تردّ لكنها راحت تتفحص ثيابي دون أن تنبس ببنت شفة.

«لقد اعتقلن الآن أربع فتيات»، قال دافار الذي وقف عند باب المدخل.

تشكّل هذه المداهمات المفاجئة على مراكز التسوق والمطاعم والحدائق العامة، بل حتى على الشقق الخاصّة، جزءاً من الحياة اليومية للإيرانيين. وتركز السلطات عادة على الشباب، لكن يحدث

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أيضاً أن يلقى القبض على أشخاص أكبر سنّاً، خاصة لاحتسائهم مشروبات كحولية.

تقوم الأقلية الأرمنية (الجالية الوحيدة، باستثناء السفارات، التي يسمح لها بشرب الكحول بصورة غير علنية) بتوزيع معظم المشروبات الكحولية في إيران. ويوجد لكلّ أسرة شخص أرمني يزودها بهذه المشروبات الكحولية، وتوجد لدى بعضهم سمعة أفضل من الآخرين. ويقوم شخص أرمني بتزويد خالتي بهذه المشروبات في أيّ وقت في النهار أو في الليل، أما الأرمني الذي يزود نرجس فهو مشهور بالفودكا، وأما الأرمني الذي يتعامل مع دافار فإنه يجلب له لحم الخنزير المحرّم.

منذ نشوء الجمهورية الإسلامية، مُنعت المشروبات الكحولية رسمياً، لكن الناس ظلوا يشربون. واستناداً إلى إحدى الروايات، كان الإيرانيون قبل الثورة يصلّون في البيت ويحتسون الكحول علناً، أما بعد الثورة فقد أصبحوا يحتسون الكحول في البيت ويصلّون في العمل (لإظهار مدى تديّنهم) وفي الشارع وفي التجمعات الكبيرة.

ما عدا الأرمن الذين تُهرّب بضائعهم إلى موانئ في جنوب إيران، تخلّت ربّات البيوت المتوسطات العمر عن صنع المربّى والمخللات وأصبحن يصنعن النبيذ. وفي إحدى المرات، رأيتُ بأمّ عيني في السوق امرأة تشتري مئتي كيلو من العنب: من الواضح أنها لن تتناول هذه الكمية من العنب مع أسرتها. لقد أصبح كلّ بيت، أو كلّ بيت تقريباً، يصنّع نبيذه الخاص به. لم أعرف السبب قط، لكن الفرنسيين يتفوقون على الجميع في صناعة النبيذ المنزلي. فمثلاً يتذوق ضيوف مهندس معماري تخرّج من معهد الفنون الجميلة في باريس النبيذ الذي يصنعه كما لو أنه نبيذ شاتو شيفال بلانك، لكنهم

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يكرهون النبيذ الذي يصنعه شخص متخرّج من جامعة في تكساس - بل إنهم يتقيئونه أحياناً.

لا يمكن القول إنه كلّ النبيذ رديء. ففي هذه المنافسة في صنع النبيذ، لا توجد قناني نبيذ حقيقية إلا لدى قلة قليلة. فخذ مثلاً المهندس المعماري المتخرّج من باريس الذي كان عليه أن يبحث عن عدد كبير من القناني في محلات بيع الأشياء القديمة المحيطة بسوق مانوتشيهري وسوق جوميه، وعندما يجلب النبيذ إلى أحد بيوت أصدقائي، فإنه لا ينسى أن يطلب استعادة القناني الفارغة، مثل جدّة عجوز تتمسّك بعلب المربى التي تصنعها.

أما المهندس المتخرّج من تكساس، فهو يبيع النبيذ الذي يصنعه في قناني عصير. حتّى أنني رأيت نبيذاً معبأً في قناني الكولا (مع أنني لم أشرب قط). وتبدأ ابنة عم لي تتحدث الفرنسية وتعتبر نفسها ذوّاقة للنبيذ، بطلب كأس نبيذ كبيرة ذات قاعدة رفيعة. فتصبّ فيها النبيذ، وتعلّق أثناء ذلك على لونه، ثمّ تهزّ الكأس بيدها بحركات دائرية بطيئة، ثم تدنيها من أنفها الذي أجرت له عملية تجميل، وتبلّل لثتها وتُبقي النبيذ في فمها قليلاً بعينين نصف مغمضتين، وفي النهاية - والآخرون يراقبونها بافتنان - تعطي رأيها النهائي والحاسم. وكلّما ذهبتُ إلى باريس، حرصتُ على أن تحفظ عن ظهر قلب اسم محصول العنب وثمن أنواع النبيذ المشهور العديدة لإثارة إعجاب المحيطين بها (الذين يقدمون النبيذ في زجاجات كولا) وتستشهد بأسماء قوائم لانهائية من أسماء أسطورية ساحرة مثل رومانس-كونتي ١٩٢٩ أو موتون روثشيلد ١٩٨٢، أوه، هذا إذا كنت تعرف ماذا تعني هذه الأسماء.

يحبّ سكان طهران كثيراً التردّد على السفارات الأجنبية حيث

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يمكنهم احتساء النبيذ بقدر ما يرغبون، مع أن النبيذ الذي يُقدم في تلك السفارات ليس ممتازاً، لكنّه يظل أفضل من أيّ شيء منتج محلياً، كالذي يقدمه المهندس المتخرّج من باريس. وفي الأيام الأولى للثورة الإسلامية، كانت السفارات الأجنبية تقيم مسابقات لتذوق النبيذ، وكان الفرنسيون يفوزون دائماً في مسابقة النبيذ الأحمر «شاتو دي نوفل» - إشارة إلى نوفل دو شاتو، القرية التي تقع في إفيلين التي عاش فيها آية الله الخميني في المنفى. أما الألمان الذين ربما كانوا قد رشوا الإيطاليين (على الأقل هذا ما قاله السفير الفرنسي) فقد كانوا يحتلون المرتبة الأولى في النبيذ الأبيض.

أخبرني السفير الفرنسي نفسه أنه عندما أُحضر العنب إلى السفارة بعد موسم الحصاد، نزل جميع الموظفين في السفارة، رجالاً ونساء، من مختلف المراتب الوظيفية، إلى القبو ليدوسوا فوق العنب بأقدامهم الحافية. وفي أحد الأيام، وفي غمرة أزمة الرهائن الأمريكية، أجرت مجموعة من المفتشين من وزارة الخارجية الفرنسية زيارة مفاجئة لتدقيق النظم الأمنية في السفارات التي يعتقد أنها في مكان خطر. وعلّق المفتشون في تقريرهم على الحالة المزرية للجهاز المخصص لإتلاف الوثائق السرّية وتحويلها إلى قصاصات، ولم يعترف أحد من موظفي السفارة بأن ذلك الجهاز كان يستخدم في أحيان كثيرة لسحق العنب، ولحقت بها أضرار كبيرة.

وثمة شيء ممنوع آخر: فقد تفضي خصلة شعر مصبوغ تنفلت من تحت غطاء رأس إلى أن ترسل امرأة إلى السجن. وتمثل المرأة التي تنتهك هذا القانون ويلقى القبض عليها أمام لجنة ثورية، وبعد عمليات استجواب قاتلة، تظلّ المرأة بلا نوم ولا طعام ولا اتصال بالعالم الخارجي طوال يومين أو ثلاثة أيام. وفي نهاية هذه الفترة،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يتّصل الثوريون الأشاوس بوالدي المرأة المحتجزة أو بأسرتها ويطلبون منهم إبراز سندات ملكيّة ككفالة لإطلاق سراحها. وحسب طبيعة الجريمة (مكياج ظاهر، ظهور الكاحلين، بروز خصلات شعر، شمّ رائحة كحول في الفم) يطلب المبلغ المحدد لهذه القضية.

أما عقوبة المرأة التي لا تسدد المبلغ فهي الجلد بالسوط.

وفي إحدى المرات، رفضت إحدى صديقاتي التي كانت تصرّ دائماً على رفض قبول هذه القرارات الاعتباطية، أن تدفع الغرامة المفروضة عليها، فجُلدت مائة جلدة بالسوط. وكانت قد ذهبت إلى المكتبة لكنها عادت إلى البيت بعد يومين حاملة كتبها في يدها والدم يسيل من ظهرها.

فتح البائع أحد الأدراج وأخرج قصاصة من صحيفة تتصدرها صورة القائد العام للقوّات المسلّحة في طهران واقفاً أمام سبورة كتبت عليها التعليمات التالية:

- أحمر شفاه فاقع اللون؟ > لا تكشطيه بألة حادة > *امسحيه بقطعة قماش*

- المكياج الكثيف؟ > لا تستخدمي أسيد > *ضعي ماء الورد*

- معطف مقصّر؟ > *قدمي عباءة (شادور) مجاناً*

- غطاء صغير جداً؟ > تجنبي القول: إمّا أن تغطّي رأسك أو أننا سنضربك على رأسك. > *أخفضي غطاء الرأس لتغطية الشعر أو قصيّ الشعر بلطف*

قال البائع: «أعطيت هذه الورقة إلى جميع زملائي لإظهارها لنساء الحرس الثوري إذا أوقفن إحدى زبوناتنا».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قبل أن نغادر المحل، سألته لماذا طلب مني أن أجلس قبل قليل.

«هناك شيء غير إسلامي في طريقة وقفتك»، قال لي.

حتى أنني لم أحاول أن أفهم.

«ابق معنوياتك عالية!» قال له دافار قبل أن يلتف إليّ ويقول: «قولي لي ما هو شكل «قبعة فيدورا الشرقية» في الرواية في رأيك».

«لا أعرف. ليس مثل غطاء رأس، هذا أمر مؤكد».

«تمددت الكونتيسة بطولها كله على الأريكة»، قال مقتبساً من ذاكرته، «وقدماها مرخيتان على الوسائد؛ وقد أضافت قبعة بيريه الشرقية لمسة غامضة من الغرابة إلى سحرها المغري».

بينما كنت أحاول أن أفكّر كيف يمكن أن تبدو تلك القبعة، رنَّ هاتفي. إنها خالتي.

«لقد عاد حميد. أطلقوا سراحه هذا الصباح»، قالت وهي تبكي.

بعد ساعة أوصلني دافار إلى بيتها. استقبلتني ماسيرات وسميرة فقبّلتهما، ثمّ جاء حميد بنفسه وصافحني وعلى وجهه ابتسامة. قفزت ابنتي التي أمضت النهار كلّه عند خالتي (يبدو أنه لن يكون عندي وقت للاعتناء بها في الوقت الحالي) إلى ذراعي.

توجهت إلى غرفة الجلوس حيث كان السيد سابيتي ممدداً على الأرض والدكتور بشيري يسير فوق ظهره ذهاباً وإياباً وهو يرمق زوج خالتي بانزعاج.

كانت خالتي تضحك وهي تشرح لي ما جرى، «لقد كسر السيد العزيز سابيتي ظهره وهي يقوم بتركيب الصحن اللاقط فوق سطح

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

البناية جيم لقد جررناه إلى هنا، لكن من حسن الحظ أن الدكتور قد وصل واستطاع أن يعيده على قدميه».

لكن السيد سابيتي كان لا يزال منبطحاً على بطنه على الأرض.

«آي، آي، دكتور. ارحمني. لا تؤلمني كثيراً، فكّر ببرمجة القنوات».

«بضع حركات وأنتهي»، أجاب الدكتور، وهو يطأ ظهر المهندس الصغير ويضغط عليه بقدميه.

كانت بشرة الدكتور بشيري، الذي هو مثلي من مازانداران، شديدة البياض. كانت أمّي تعزو بياض بشرة سكان مازانداران إلى العرب الذين انسحبوا بسبب الظروف القاسية في جبال ألبرز، ولم يتمكنوا من غزو المناطق الشمالية في إيران أو من تأسيس نسب هناك. كان الدكتور بشيري الذي ينفّذ الإرشادات الواردة في المجلة الطبية السويدية، قد وصل الآن إلى المرحلة الثالثة من نظام تخفيف الوزن مما يعني أنه تمكن من تخفيض كمية الطعام الذي يتناوله ثلاث مرات، لكن الحرمان الذي يفرضه على نفسه لم يمنعه من التوقف عن الابتسام وصكّ أسنانه اللامعة.

اتصلت بي نرجس، وقالت: «أنا في الأسفل، سآخذك إلى معرض الأثاث الآسيوي».

بعد دقيقتين، أصبحت نرجس في غرفة الجلوس. بعد خمس دقائق، ها هي جالسة على الأرضية بجانب السيد سابيتي تخلع حذاءها. كانت تريد أن تستغل الفرصة لتري الدكتور بشيري إبهام قدمها المنحرف إلى الخارج، إذ كان هناك زائدة عند قاعدة إبهام قدمها، شيء فيزيولوجي غريب يصيب الكثير من الإيرانيين.

«كنت قد أجريت عملية جراحية لقدميّ السنة الماضية، لكن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الورم في إبهام قدمي اليمنى لا يزال يؤلمني كثيراً»، شرحت له نرجس ورفعت قدمها.

راح الدكتور يفحص إبهام قدم نرجس وهو جاث بثبات بساقيه المنفرجتين فوق ظهر السيد سابيتي.

«آي، آي، الرحمة يا دكتور، أرجوك»، قال المهندس المسحوق وهو يئن.

«هل أجروا لكِ العملية بالطريقة النمساوية؟» سألها الطبيب، متجاهلاً تذمر وأنين السيد سابيتي.

ثمّ غاصت نرجس في التفسيرات والشروح الطبية، ثم نهض الدكتور بشيري واقفاً. أخيراً أُنقذت ضحيّته. ودعت خالتي الجميع للبقاء لتناول الطعام، وطلبت من حميد أن يذهب ويجلب كباباً. ثمّ عاد بعد نصف ساعة حاملاً صينية مليئة بأسياخ لحم الضأن المشوي والبندورة والريحان. وبطريقتنا الهادئة الخاصة، احتفلنا بإطلاق سراح حميد.

قبل أن يغادر، انتحى الدكتور بشيري (الذي لا بد أنه نظّف أسنانه منذ قليل لأن رائحة معجون الأسنان

لا رائحة الكباب والبصل كانت تفوح من فمه) بي جانباً. خيّل إليّ أنه يريد أن يحدّثني عن حميد، لكني كنت مخطئة.

فقال هامساً: «كما تعرفين، بالنسبة لمسألة أديداس. فإننا لسنا بحاجة إلى أي واسطة في صناعة الرياضة».

بيد على ظهره ومتكئاً على حميد، غادر السيد سابيتي ببطء وهو يئن «آي، آي».

وواصل الدكتور، «كلّ ما علينا أن نفعله هو أن نشرك جيرار ديباردیو معنا».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«من؟»

«جيرار، ديباردیو»، كرر الدكتور بشيري الاسم بابتسامة مشرقة، «قالت لي خالتك إنك تعرفينه».

«وماذا يعني ذلك؟»

«قرأت في إحدى المجلات المتخصصة بالسينما بأن لديه استثمارات في كوبا وفي بلدان مختلفة من الاتحاد السوفيتي القديم، لذلك، كما تعرفين، يمكنك أن تدخليه شريكاً معنا».

ركضت ابنتي نحو الباب.

«ابتعد، ابتعد!» قالت - بالفرنسية - للسيد سابيتي الذي كان ينتظر المصعد. فلم تعد تحتمل وجوده لأنها حُرمت من أقراص الدي في دي ومن قنواتها المفضّلة أثناء كلّ عملية برمجة.

طلبت منها أن تعود، ورفعها حميد بين ذراعيه.

من صحن الدرج، سمعنا السيد سابيتي يئن، ثمّ أُغلق باب المصعد واختفت صرخاته «آي، آي» في أعماق الصمت. كانت رائحة الكولونيا التي يضعها لا تزال تعبق في المدخل.

أعطتني سميرة الهاتف. إنها ابنة عمتي التي تريد تجديد جواز سفرها أيضاً. كنت قد نسيتها.

«هل حصلت عليه؟» سألتني، «أقصد جواز سفرك، هل انتهى؟ هل حصلت عليه؟»

«لا عليّ أن أنتظر أسبوعاً على الأقل».

«إذاً هذا الشخص غير فعّال على الإطلاق».

«كما قلت...»

في تلك اللحظة، دسّ بشيري بضع أوراق في يدي.

«هذه لجيرار ديباردیو. إنها دراسة عن إمكانيات السوق».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«ماذا حدث، ديباردیو؟» سألت ابنة عمتي، عندما سمعت الجملة التي قالها الدكتور.

«لا شيء، لا شيء».

«أنت شديدة التكتم! في البداية رفضتِ إعطائي اسم الشخص الذي يقدم لك المساعدة في مكتب جوازات السفر، والآن ترفضين إخباري ماذا حدث لجيرارا»

لا أعرف لماذا أصبحت تدعوه فجأة جيرار.

«اسم الشخص هو الدكتور أسكارنيا»، ردّدت بحدّة، وأعطيتها رقم هاتفه.

«هذا الرقم سرّي جداً جداً، طبعاً»، واصل الدكتور بشيري كلامه بصوت منخفض، وأضاف وهو يلوح بالأوراق أمامي، «هل يمكنك أن تعطيه لجيرار ديباردیو شخصياً؟»

ابنة عمتي التي سمعت كلّ شيء هذه المرة، نسيت الرقم الذي أعطيته لها من أجل جواز سفرها وسألت، «ما هو السرّي؟ جيرار؟ هل هو في طهران؟»

«لا، إنه في كوبا»، قلت لها تلقائياً.

«مع كارول؟»

مرت نرجس من أمامي وسألتني، «هل اتصلتِ بداريوش؟»

«داريوش في طهران؟» قالت ابنة عمتي، مندهشة أكثر وأكثر.

لم أعد أحتمل أكثر من ذلك. وعدت ابنة عمتي بأن أتصل بها هذا المساء حتى نتحدث براحتنا. ولكي لا تسمع نرجس، همس الدكتور بشيري في أذني، «إذا صادف أن جاء جيرارد ديباردیو إلى إيران فأخبريه أنه بإمكاني مساعدته أيضاً في مشكلة وزنه. يمكنه أن يتبع نفس الحمية التي أتبعها».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وعدت الدكتور بأن أحضر ديباردیو إلى إيران ليستفيد من المدربين الإيرانيين ولكي يفقد شيئاً من وزنه بمتابعة الحمية السويدية. ووعدت نرجس أيضاً بأن أتصل بداريوش. أحسست بانخفاض ضغط دمي كثيراً. دخلت إلى غرفة نوم خالتي وارتميت على السرير. جلبت لي ماسيرات عصير النعناع. لم يتوقف الهاتف عن الرنين. لوّحت بيدي، ورفضت أن أردّ.

«إنه المسيو»، قالت لي.

«إذاً ما هي أخبار جواز سفرك؟» سألني زوجي.

«يجب أن أنتظر لمدة أسبوع. لقد قلت لك ذلك من قبل».

«لكن كان ذلك قبل يومين. إذن بقي خمسة أيام؟»

«هذا ما وعدوني به».

قال بضع كلمات أخرى ثم أغلق الهاتف. عندما عدت إلى غرفة الجلوس، وجدت حميد جالساً على الأرض يلصق أظافر مزيفة بلون الفضة على أصابع كيارا. كانت نرجس مستعجلة: إذا لم نغادر إلى معرض الأثاث الآسيوي الآن، فإننا سنعلق في زحمة المرور ساعتين. أقنعت خالتي بأن تأتي معنا: فهي لم تبارح البيت منذ اعتقال حميد. نزهة؟ حسناً، لم لا؟

بعد قليل، انطلقنا ثلاثتنا على صرخات احتجاجات ابنتي التي أحست، مرة أخرى، بأنها أُهملت.

أقيم المعرض في بيت في أحد الأحياء الشمالية في طهران، عمارة محاطة بجنائن معلقة. وكان كلّ طابق، بالإضافة إلى شرفته، يمثّل بلداً آسيوياً مختلفاً. فقد كان الطابق الأول مزداناً بأثاث هندي،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

والطابق الثاني بأثاث إندونيسي، والطابق الثالث بأثاث صيني، والطابق الرابع بأثاث ياباني. وفي كل طابق، تُعزف موسيقى ويُقدم طعام البلد الذي يُعرض فيه أثاثه. وكانت مضيفات مبتسمات - جميعهن إيرانيات، لكنهن يرتدين الثياب التقليدية لكلّ بلد من تلك البلدان - يذكرن للزوّار أسماء العازفين ويشرحن لهم أصناف الطعام المختلفة.

في مثل هذه الحالات، تشعر خالتي التي لا ترى في حياتها إلا أبناء موهتارام، كما لو أنه ألقي بها في عالم آخر. وكانت تردد غالباً أن العالم الطبيعي بالنسبة لها هو عالم الهموم اليومية الصغيرة، المكان الذي يكون فيه الزوج صالحاً ونشيطاً لكنه نزق، سريع الغضب، كثير الطلبات (وغير مخلص كاختيار إضافي)، مكان يكبر فيه الأطفال ويبدأ آباؤهم يقلقون بسبب عطلات أطفالهم - مراهقون مزاجيون جاحدون تستعبدهم آخر صيحات الموضة، غالباً ما يتعاطون المخدرات. هذا هو العالم الذي تتصل به وتراه خلاصة الانسجام، بل حتى السعادة، لكن بما أنه ليس لديها أطفال، فهو العالم الذي أقصت نفسها عنه. هذه الحياة اليومية، الحياة التي يتذمر منها الآخرون، تراها مضيئة ومرغوبة.

وغالباً ما تخبرني أنها لا تزال تقدم هدايا لأطفال صديقاتها في عيد ميلادهم، ثمّ في حفلات زفافهم عندما يستقرون في بيتهم، ثمّ عندما ينجبون أطفالاً، ثمّ في أعياد ميلاد الجيل الثاني، ثمّ حفلات زفافهم، وولادات الجيل الثالث وهكذا دواليك.. لكن، خلال تلك السنوات الخمسين من الصداقة، لم يقدم لها أحد، هي المرأة التي لم تنجب أطفالاً، أيّ هدية، لعدم وجود أيّ سبب يدعو إلى الاحتفال في حياتها.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لم يكن بإمكاننا أن نبدي اهتماماً أقل بالأثاث الآسيوي، لكن طهران كلها هنا. فقد خلعت معظم النساء غطاء رؤوسهن، مع أن بعضهن، مثل خالتي، لم يخلعنه، فهن لم يذهبن إلى مصفّفة الشعر منذ فترة، ويفضلن إبقاء شعرهن مخفياً.

«انظري إليها»، صاحت خالتي وأشارت إلى امرأة مسنة فارعة الطول وأنيقة، «كانت أجمل امرأة في فترة شبابنا. كان الناس يذهبون إلى المطعم في فندق داريوش ليلقوا نظرة عليها».

دنت هذه المرأة مني وحيتني وسألتني عن أخبار زوجي.

وأضافت، «لقد زرتكما في بيتكما في حي بيغال مع كلاوس كينسكي منذ زمن بعيد. إني معجبة بأعمال زوجك، كما تعرفين».

مجيء هذه المرأة الأنيقة إلينا وامتداحها زوجي أدخل البهجة على نفس خالتي.

«لو أخبرتني من قبل، لكنت قد ذهبت إلى مصفّفة الشعر اليوم»، وبّختني بلطف.

صعدنا إلى الطابق الأول المخصص لعرض الأثاث الهندي. كان كلّ ما يمكن أن يتحدّث عنه المرء هنا هو قضاء أيام العطلات في غوا أو في حمّامات أيوفيديك المعدنية في كيرالا وتاميل نادو. وكانت فتاة أعرفها منذ أيام المدرسة الثانوية تشرح لبعض المبتدئين الكلمات السنسكريتية «دارما» و «أرثا» و «كارما» و «موكشا». عندما رأتني (حسناً، فأنا زوجة الرجل الذي اقتبس ماهابهاراتا للمخرج بيتر بروك) اختصرت وصفها «للأهداف الإنسانية الأربعة في الحياة» هذه، وبنبرة تواضع جديدة في صوتها، قالت: «ها قد جاءت الاختصاصية».

رفضت أن أ تحدّث عن *موكشا*. كنت فقط أريد أن أستمع إلى

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عزف رايفي شانكار على السيتار بهدوء وأن أتذوق *ماسالا دوسا* الذي رأيته للتو.

كانت المضيفة في الطابق الإندونيسي ترتدي ثوب باتيك متعدّد الألوان وترصع شعرها بعقود من اللؤلؤ والمرجان، وقالت إن الموسيقى التي نستمع إليها هي *الغناء الملكي* لجلالته نورودوم سيهانوك، والطبق الذي قدمته لنا يدعى *بيبيسان*. لم أجازف وأخبرها بأن سيهانوك هو ملك كمبوديا لا إندونيسيا لكنّي سألتها عن مكونات طبق *بيبيسان*، ومثل الفتيات اللواتي يبعن البضائع الإيطالية المزيّفة، أخذت نفساً عميقاً من أنفها المعدّل قبل أن تقول: «إنها ملفوفة في أوراق الموز وتطهى على البخار».

لم أمض وقتاً طويلاً في الطابق الثالث الذي يكرّم الصين. ومع أنني درست اللغة الصينية، فإني لا أجيد التحدث بها بطلاقة، لذلك تفاديت التحدث إلى الملحقة الثقافية التي لا تعرف كلمة فارسية واحدة ، وانتظرت المساء كله حتى أتيحت لها فرصة أن تكلّم أحداً بلغتها.

بشيء من الصعوبة، تمكنت من إبعاد خالتي ونرجس عن المعكرونة المقلّية، وعن تفسيرات المضيفة حول عود بيبا والعازف ليو فانغ.

في الطابق الأخير، قدمت لنا المضيفة - المرتدية ثوب كيمونو التي طلت وجهها بمسحوق أبيض وعقصت شعرها في شكل كعكة - بعض السوشي. تناولت خالتي السوشي بأصابعها ثمّ أمسكت صحناً وملأته بالسمك النيء.

«ابحثي عن طريقة لنأخذ بعضاً منها إلى زوج خالتك في البيت»، همست في أذني.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تسلحت بمنديل رُسمت عليه جبال وأنهار يابانية، فتناولت بضع قطع ساشيمي بسرعة كبيرة. كان قلبي يخفق بقوة. رجوت أن لا تكون صديقة كلاوس كينسكي القادمة نحوي قد رأتني.

«هذه نوبوكو ماتسوميا تغني. لقد اكتشفتها من راديو فرانس في باريس. لا بد أنك تعرفينها، أليس كذلك؟»

كنت أحمل الساشيمي الذي خبأته بيدي. يجب أن أجد طريقه لأدسّه في حقيبتي.

«نعم، نعم، طبعاً أعرفها»، قلت لها وأنا أخطو بعيداً عنها. كذبة أخرى.

عدت للانضمام إلى المجموعة المتحلّقة حول نرجس. كان بعضهن يسألنها عن أخبار أمّها، ودعتها بعضهن إلى تسكاني، وكانت أخريات يردن معرفة اسم أفضل جرّاح لإزالة الدحاس.

تقدمت منها امرأة وقدمت لها قطعة قماش.

«في رأيك أين يمكنني أن أجد هذا النوع من القماش؟» سألتها.

نرجس التي تعرف كلّ شيء دائماً، قالت للمرأة بلطف قبل أن تلتفت نحوي وتقول: «اذهبي واتصلي بداريوش».

«بعدان، بعدان».

لمرة واحدة اتفق صوتي الداخلي مع رأي نرجس. يجب ألّا أمضي نهاري كله في الأسواق والمعارض ولا أستمر في الضغط على داريوش. وعدت نفسي بأن أتوقّف عند استوديو التصوير في طريق عودتي إلى البيت، وأطلب من المصورين الاتصال به، لأنني تعرفت عليه بواسطتهما.

عدنا إلى الطابق الأرضي. لكن قبل أن نغادر المبنى ذهبت لأحيّي زوج مصممة الديكور.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«كلّ هذا حتى لا تشعر زوجتي بالضجر»، قال شارحاً، مشيراً إلى المبنى بجنائنه المعلقة وأثاثه ومضيفاته المتشحات بثياب كل بلد.

أصبحت زوجته التي لم تدرس الهندسة المعمارية لدقيقة واحدة، مصممة ديكور بين ليلة وضحاها. وكشأن عدد من الزوجات اللاتي يكسب أزواجهن مبالغ ضخمة، لم تكن تعمل شيئاً على الإطلاق، وكانت تعيش هكذا بسعادة حتى بدأت حفنة من صديقاتها بترميم بيوتهن، يستوحين من صور مجلة «*البيت والحديقة*»، ومجلة «*الديكور الداخلي*»، ومجلات أخرى ذات ورق مصقول.

فقامت بتقليدهن، مستوحية أفكارها من عدد خاصّ عن «النافورات الداخلية»، فركّبت نافورة في كلّ غرفة من البيت وبدأت تعلن عن نفسها بأنها مصممة ديكور. وبعد فترة وجيزة، بدأت صديقات أدنى موهبة أو أقل طيشاً منها يستشرنها عن الأماكن التي يمكنهن أن يضعن الأسرّة فيها، أو كيف يخترن أنواع الأقمشة. وقد شجعها كل ذلك على فتح صالة عرض خاصة بها، وأصبح عندها الآن مئات الزبائن من أصحاب الشقق المشيّدة حديثاً التي تزيد أفق طهران قتامة كلّ يوم. إن سجل طلباتها مليء، وبإمكانها أن تجعل زبوناً ينتظر ثلاث سنوات بكاملها حتى تجلب كرسياً دوّاراً من منغوليا.

إنها هي التي كانت تستقبل الضيوف عند الباب الأمامي وتودعهم عندما يغادرون. قبّلتنا نحن الثلاثة وهنأناها على معرضها الناجح، ولاسيما على نوعية الساشيمي (الذي أخفيت بعضه في قعر حقيبتي).

أوصلتني نرجس إلى بيتي ثم أوصلت خالتي أيضاً إلى بيتها.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من الجميل أن أعود إلى شقّتي من دون أن أتحمّل انحناءات موهتارام. نصف ساعة من الخلوة والصمت، يا له من شيء مبارك.

بعد قليل، أرسلت خالتي موهتارام وابنتي التي عادة ما تعود وهي نائمة مساء كلّ يوم. عندما وضعتها على سريري، شممت رائحة كولونيا حميد. رحت أتقلب على الفراش، قرصت أنفي و- بسرعة، كما أظن، غططت في النوم.

الخميس

أيقظتني كيارا على صوت بكائها وصراخها: «ماما، ماما، قناة بيوي لا تعمل».

حتى قبل أن أتناول طعام فطوري، بدأت يومي بالاتصال بالسيد سابيتي لبرمجة قنوات الأطفال. لم يكن موجوداً في البيت، فتركت له رسالة. ثمّ اتصلت بخالتي التي ستأتي لتأخذ كيارا إلى «مدينة أرض العجائب» في طهران. وهي مدينة ملاهي حقيقية تنفق فيها فتاة لا تتجاوز الثالثة أو الرابعة من العمر في يوم واحد، ما يعادل راتب شهر كامل يتقاضاه موظف عادي.

بعد أن تحررت من هموم انشغالي بابنتي، قرّرت أن أرافق دافار إلى حيّ بائعي الأشياء العتيقة في شارع مانوتشيري. صعدت إلى سيارته، سيارة بيجو إيرانية، تصدح فيها موسيقى فرنسية.

اليوم الخميس. وهذا يعني، حسب القانون، أنه يُسمح لنا بالدخول بسيارتنا إلى وسط مدينة طهران. علماً أن معظم المحلات في شارع مانوتشيري أصحابها يهود.

اخترت أحد المحلات لا على التعيين ورحت أتفرج على المواد المعروضة في واجهة المحل، وهي مثل المحلات الأخرى: صواني،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سماور، كاسات شاي، قلائد، خواتم، معاطف، أوسمة، مخطوطات وصور قديمة.

انحنى دافار، والتقط كومة من الصحف التي يعلوها الغبار وأخرج منها بحذر صورة مصفرّة مطبوعة على الحجر، ربما تعود إلى القرن التاسع عشر في أوروبا.

«انظري جيداً»، قال لي، «أترين تلك المرأة هناك. ألا تظنين أنّها تشبه فيدورا بغطاء رأسها الشرقي ذاك؟»

نظرت إلى المرأة التي عقدت شعرها بشريط عريض وراء رأسها، وهي تستلقي بتكاسل على وسائد تتدلى منها شراريب، ترتدي سروالاً حريرياً فضفاضاً، وتنتعل قبقاباً ذا كعب عال، وتمسك ذقنها بيدها اليمنى، وتكشف فتحة صدرها عن تفاصيل ثدييها، وتنتطق بحزام يُبرز خصرها النحيف. صورة غربية لامرأة شرقية: خاملة، شهوانية، متاحة، كما يمكن أن يتخيّلها أي شخص قبل أن يعرفها جيداً.

سألتُ البائع عما إذا كان لديه بطاقات *قاجار* من القرن التاسع عشر مزيّنة بنساء إيرانيات يتشحن بثياب خفيفة.

في إيران، لا يهرع البائعون إلى تقديم المساعدة لزبائنهم، فإذا لم يبيعوا شيئاً طوال اليوم (بل إذا لم يبيعوا شيئاً على الإطلاق)، يشعرون بالرضاء في نهاية اليوم بسبب ارتفاع الأسعار بسرعة. إذ تزداد قيمة بضاعتهم كلما دقت الساعة، لذلك فقدوا الرغبة في بيع أي شيء. ويبدو أنهم يعيشون في حالة اكتئاب مزمن لا براء منه، يدخلهم في حالة خمول، حتى تتم معالجتهم. فهم ينهضون في الصباح، يفتحون محلاتهم، ويعدّون الشاي، وينتظرون بهدوء المساء، دون إيلاء أي اهتمام لزبائنهم.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان الرجل الذي قادنا القدر إلى محله يصبّ لنفسه كأساً من الشاي فدعانا لمشاركته الشاي ولم يجب عن سؤالي. فأعدت عليه السؤال.

«كلّ شيء هنا»، قال أخيراً، محاولاً ألّا يكون محدداً بقدر ما يستطيع.

تابع دافار الذي كان لا يزال يمسك القطعة المطبوعة بالحجر التي تعود إلى القرن التاسع عشر، ملاحظته: «في الحقيقة، عندما كنت أقتبس من بلزاك البارحة، نسيت جملة هامة للغاية عن غطاء الرأس الشرقي».

وضع القطعة على طاولة صاحب المحل غير المرتّبة، ونفض الغبار عن يده (كما لو كان يريد أن ينظف نفسه قبل أن يقتبس من بلزاك)، وصحّح نفسه بالفرنسية، "*un beret oriental, coiffure que les peintres attribuent aux premiers Hebreux*" (القلنسوة الشرقية، غطاء رأس ينسب إلى اليهود الأوائل...)، كان هذا هو التفصيل الصغير الذي نسيته.

«من أين جاء بلزاك بذلك؟»

لا يعرف دافار، أيّ رسامين؟ أيّ عبرانيين؟ إنه لغز محيّر.

يبدو أن صاحب المحل لم يتأثر بحديثنا باللغة الفرنسية. ومن الواضح أن إصابته بالاكتئاب - بل بالأحرى عدم مبالاته - تتطلب علاجاً آخر. كان الوقت يمرّ ثقيلاً عليه، كما في كلّ يوم. وقد عُلّقت على الحائط فوق رأسه لوحة بخط كبير بالفارسية (أجمل شيء في المحل) كتب عليها: «هذا أيضاً سيمضي...»

تجاوزت الساعة الواحدة، وشعرت بالجوع. أخذني دافار إلى

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مقهى «قهوه خانة»، وهو مقهى يختار فيه المخرجون الممثلين الثانويين.

دخلنا المقهى. وبالرغم من السديم الكثيف الناجم عن دخان النرجيلة، أدركت بسرعة أنني المرأة الوحيدة هنا. اخترنا طاولة. وبينما كنا ننتظر أن يأتي النادل ليأخذ طلبينا، رحت أتفحّص الرجال حولي. كان هناك حكواتي. رجل مسن، شعره أبيض طويل، ووجهه ناتئ العظام، وأصابعه نحيلة طويلة يحمل نسخة من الشاهنامة «كتاب الملوك»، وهو ملحمة أسطورية فارسية قديمة. ورأيت أيضاً رجلاً في حوالي الثلاثين من العمر يبتسم، له شارب كث، ويرتدي قميصاً بكمين قصيرين (على الرغم من أن الأكمام القصيرة غير محرمة على الرجال، فإن ارتداءها غير مرغوب فيه) مفتوح عند العنق كاشفاً عن كتلة من الشعر الأسود على صدره، وفي الزاوية، رأيت مجموعة من الشبان متحلقين حول نرجيلة، أيديهم ملوثة بزيت محرّك سيارة. ولدهشتي، رأيت سائقي، السائق صاحب الإصبع الذي بُتر جزء منها.

ما إن وقعت عيناه عليّ، حتى قفز واقفاً على قدميه. تسمّر في مكانه، ثم انحنى قليلاً دلالة على الخنوع. رددت له التحية.

«هل تعرفين هؤلاء الناس؟» سألني دافار بحيرة. أقبل إلينا السائق الآن فاضطررت لأن أقدّم أحدهما إلى الآخر: «صديقي، السيد مالك، كاتب عظيم، و...»

«غيسار، في خدمتك» أضاف السائق.

دعوته إلى الجلوس إلى طاولتنا، فوافق على الفور.

«أتعرف»، قال دافار وهو يصافحه، «إن كلمة غيسار تعادل كلمة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

قيصر بالألمانية، وسيزار بالفرنسية وخسرو بالفارسية؟ وجميعها تعني «إمبراطور»».

ما إن سمع الحكواتي العجوز كلمة «إمبراطور» حتى اقترب منا وبدأ يتلو من الذاكرة فقرة من «كتاب الملوك» الذي يجب على كلّ إيراني أن يعرفه.

«أول ملك كان كورش، علّم الرجال كيف يلبسون ثيابهم، وكيف يطعمون أنفسهم. وعلمهم هوشانغ كيف يستخرجون المعادن من الحجارة، وتحكّم بالنار، واخترع فنّ الحدادة. وعلّم تهموراس الرجال فنّ حياكة ونسج السجاد».

«أنت أستاذنا، سيدنا»، همس غيسار في أذن دافار قبل أن يجلس.

حدّق الحكواتي ذو اللحية البيضاء في عينيَّ مباشرة. إنه لا يأبه للقيود الإسلامية، شخص بارع يستمد من ماضي إيران المجيد من «كتاب الملوك» الذي يحمله في داخله كأنه كنز. من المرجح أنه يحفظه عن ظهر قلب من أول سطر حتى آخر سطر فيه. ومن الواضح أنه يحظى بإعجاب جميع الحاضرين (فقد حلّ صمت مطبق على الصالة)، وراح يردد أشعار الفردوسي.

«لقد دجّن تهموراس الحيوانات، وجعل الأراضي الزراعية في مصاطب، وامتطى أهرمان جواداً له. وأمر جمشيد بصناعة الأسلحة ونسج القماش وبناء البيوت والسفن».

راح الحكواتي يتمشى بين الطاولات وهو يحكي: «لقد اكتشف أحجاراً كريمة وعطوراً وعلاجات. وقسّم المجتمع إلى أربع فئات، وحرص على أن يعيشوا في سلام. لكن بعد عهد طويل ومجيد، دبّ فيه الغرور والغطرسة، فسُحبت منه النعمة الإلهية، وانحدرت

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الإمبراطورية إلى الحضيض وسادت الفوضى، فدعا المحاربون الإيرانيون ملكاً عربياً، الضحّاك(*) الذي استولى على العرش، وجعل جمشيد يلوذ بالهرب، وشاهده في النهاية يموت عندما شطره إلى نصفين».

«فلترقد روحه في سلام»، أضاف غيسار بصوت منخفض وسط الهمهمات المنبعثة من الطاولات المجاورة.

ابتعد الحكواتي عنا، وتابع يقول: «كان الضحّاك مخلوقاً من مخلوقات إبليس، الشيطان...»

لم نعد نكاد نسمعه الآن.

«لا أريد أن أزعجك يا مدام»، قال السائق غيسار، «لكن إذا لم تُحلّ مشكلة جواز سفرك بعد، فعندي صديق هنا. إني على يقين من أنه يستطيع مساعدتك. إنه يعرف كلّ عناصر الشرطة».

وأشار إلى شخص في الثلاثين من عمره تقريباً، له شارب وقميص قصير الأكمام. وعندما رآنا ننظر إليه، بدأ الرجل ينهض على قدميه.

وتابع غيسار كلامه، «في أحد الأيام، اختير ممثلاً إضافياً في فيلم بوليسي، وبينما كان يرتدي بدلة عريف في الشرطة، غادر موقع التصوير لشراء باكيت سجائر. لكنه عندما خرج إلى الشارع، نسي أن يحيّي رجال الشرطة الحقيقيين الراكبين على الدراجات النارية فاعتقلوه على الفور».

أقبل إلينا نادل أدرد، يخلو فمه من الأسنان، يلقي على كتفه

(*) الضحّاك: من أهم شخصيات (الشاهنامة) ملك البلاد بعد أن قَتل جمشيد، ثم قتله أفريدون.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

خرقة ملونة بالأحمر والأسود ولعله كان مدمناً على الأفيون، ووضع أمام كلّ واحد منا قطعاً من الخبز نثرت عليها بذور الخشخاش، ووضع صحناً فيه بصلة وأعواد ريحان، ومدقة خشبية وطاستين، واحدة مليئة بأبغوشت (لحم مطهو على نار هادئة) وأخرى فارغة.

أحسست أنني لا أستطيع أن أمزج مكونات الأبغوشت كما ينبغي، فقام غيسار بهذه المهمة عني: فصبّ السائل كلّه في الزبدية الفارغة، وأزال دهن ليّة الحمل من الزبدية الأخرى.

«لا أظن أن السيدة تريد هذه» قال لدافار.

ثم استخدم المدقة وهرس اللحم واللوبياء والحمص في الزبدية الفخارية، وقطع الخبز إلى قطع صغيرة ووضعها في الحساء، ثمّ أخذ البصلة وهرسها بضربة واحدة بقبضته.

«تفضلي، أرجو أن تستمتع روحك الحلوة بها».

أبعدت البصل جانباً، وعندما لاحظ غيسار ذلك ابتسم، وقال: «لقد خمنت أنك لا تحبين دهن الحمل لكني نسيت البصل. كنت مخطئاً. لقد هرسته لأقلل من نفاذية الرائحة».

عندما بدأنا نأكل، عاد غيسار إلى ما كان يقوله (تماماً كما توقّعت).

«إذاً كيف تسير أمورك مع جواز السفر؟»

ذكّرني بزوجي وبأسئلته الملحّة على الهاتف. لقد أصبح جواز سفري هذا أشبه بمسمار العجلة: لقد أصبحت حياتي كلها تدور حوله.

«لم يحصل شيء بعد».

عاد الحكواتي واقترب منا الآن، على مسافة مترين من الطاولة التي نجلس إليها، فتوقّفنا عن الكلام احتراماً للقصيدة الملحمية.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«خضع العالم للاستبداد، حكمه الشر، لكن الانتقام جاء في هيئة فريدون، ابن أحد ضحايا الضحّاك، الذي رُبيّ ونشأ سرّاً في الجبال».

أشار الرجل العجوز باتجاه ألبرز، سلسلة الجبال المحيطة بطهران. نظر الجميع إلى المكان الذي أشار إليه، ثم قال: «في أحد الأيام، انضم حداد يدعى «كافي» ذُبح أبناؤه الستّة عشر على يد الملك فريدون، وأثار الناس، ورفع مئزر الحداد الذي يرتديه كراية، وحارب جيش الضحّاك ثم سجنه في أخدود في جبل دامافاند».

«أين هو «كافي»، الحداد؟ أين هو؟» صاح أحد الشباب الملطخة أيديهم بزيت محرّك السيارة، قبل أن يصفق باب «قهوه خانة» ويغادر.

للحظة توقّف الحكواتي عن الكلام. نعم، أين هو، أين هو هذا المحرر؟ يجب أن نسأل جميعاً أنفسنا نفس السؤال.

لوّح غيسار للممثل الذي يرتدي قميصاً بأكمام قصيرة لأن يأتي وينضم إلينا.

«أنا في خدمتكم»، قال الممثل وجلس إلى طاولتنا.

أخذ النادل أطباق الأبغوشت، وعلى الفور جلب محلها شاياً قُدم في كؤوس ضيّقة رهيفة.

«لدى آغا محمود اتصالات ممتازة مع الشرطة»، قال غيسار، مشيراً إلى الممثل الطموح.

«وأنا في خدمتك. أخبريني ماذا تحتاجين».

شرحت له باختصار بأنّني قدّمت استمارة تجديد جواز السفر إلى مكتب جوازات السفر في يافت أباد وما زلت أنتظر الرد.

«يافت أباد؟» سأل.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«نعم، يافت أباد».

«لكن يافت أباد ملئية بـ«أطفالنا»».

وبكلمة «أطفال» (بار - و باتشيه ها) يقصد محمود أصدقاءه، «أصحابه». سررت لفكرة أنني وجدت مصدراً جديداً للمساعدة في هذا الممثل المساعد، إذا فشل المغني داريوش.

كان دافار مستعجلاً لأن لديه اجتماعاً مع محرّره. وعندما نهضنا أعطاني محمود آغا بطاقته.

وكرر قائلاً: «أنا هنا في خدمتك. تجدين كلّ شيء في البطاقة: هاتفي الخليوي، هاتفي الأرضي، عنوان البريد الإلكتروني. لا تتردّدي».

أراد دافار أن يسدد الحساب، لكن غيسار، السائق، قاومه على الفور. وبدأت حرب المجاملات المعتادة التي قد تستمرّ إلى الأبد، لكنني تدخّلت أخيراً بصوت حازم حتى يطيعوني.

سمعني الحكواتي من الطرف الآخر من الغرفة، وأشار نحوي وهو لا يزال يقرأ مقطعاً آخر من «كتاب الملوك»، "كانت غوردافاريد امرأة يمكن تشبيهها بفارس شجاع. فقد وقفت أمام الجيش بكامله مثل رجل محارب، وكانت تتكلّم بصوت يشبه الرعد، وسألت «أين هم الشجعان، أين هم المحاربون؟ من هو المحارب المستعدّ للتقدّم مثل تمساح مسلّح بالشجاعة ويجرب منازلتي؟»

انتظرت الحكواتي حتى انتهى وانحنيت أمامه وشبكت ذراعيّ على صدري، ثمّ دفعت الحساب ولم يجرؤ دافار ولا غيسار على معارضتي.

رافقنا غيسار إلى سيارة دافار ووقفا على الرصيف حتى غادرنا.

«هناك فقرة في *La Peau de chagrin*، بعد وصف فيدورا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مباشرة، يقول فيها بلزاك «كان وجهها متشرّب بسحر عابر يبدو أنه يتحول ويتبدل مع مرور كل لحظة. إذ يبدو أننا نصبح كائنات فريدة جديدة لا نشبه نحن في المستقبل ولا نحن في الماضي».

قارنت بين *نحن* البارحة - بيبيسان، الرجل العجوز في الثمانينيات من عمره، يتباهى بأنه اكتشف مغنياً ياباني من راديو فرنسا - *ونحن* اليوم - نتأرجح تحت تأثير الأبغوشت وكتاب الملوك في مطعم رخيص.

كنت لا أزال أستمع إلى دافار، وأدرس بطاقة محمود آغا.

كانت صورته تقبع في منتصف البطاقة تماماً، وقد جثم على كتفه اليمنى طير أزرق اللون وعلى كتفه اليسرى طائر أصفر، وكتب عند رأسه: *محل محمود لبيع الطيور* باللون الأحمر، وكُتب على يمينه بأحرف زرقاء: *خبير في تدريب طيور الكناري*، *خبير في تدريب الببغاوات*؛ وكُتب على يساره باللون الأصفر: *نعالج كلّ أمراض الطيور*.

أما رقم هاتفه الخليوي فهو مطبوع في أسفل قميصه مع رقم هاتف محله وعنوانه: «ساحة أبوزار (ساحة فالاه سابقاً)، خلف مسجد أبوزار، ٧١ شارع كولاندوز (شارع جعفري سابقاً)». وضعت البطاقة في حقيبتي، وأنا أفكر بإعجاب بأن آغا محمود، الذي لم يتجاوز الثلاثين من العمر، كان حريصاً (كما يفعل جميع الإيرانيين) على ذكر الأسماء القديمة للشوارع التي تعود إلى الفترة التي ولد فيها.

اتصلت ابنة عمتي على هاتفي الخليوي.

قالت: «انظري، حاولت طوال اليوم أن أتصل بدكتورك، لكن بلا جدوى. من رنة هاتفه يبدو أنه أطفأ هاتفه إلى الأبد».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شعرت بأنني منزعجة من نفسي لأنني لم أحاول الاتصال به قبل الآن كما كان يجب أن أفعل. ماذا سأقول لنرجس الآن؟.

دقّقت رقم الدكتور مع ابنة عمتي قبل أن تغلق الهاتف وفي صوتها نبرة شك. لعلها ظنت أنّني لم أعطها الرقم الصحيح.

لم أضع المزيد من الوقت فاتصلت بداريوش المعروف باسم الدكتور أسكارنيا. كانت رنّة هاتفه تدل على أن هاتفه مغلق. واصلت المحاولة رغماً عن نفسي.

واصلت المحاولة لأقول لنرجس بأنه لم يعد يردّ على اتصالاتي.

هل عليّ أن أقلق؟ لا أعرف.

بعد ثلاث دقائق مررنا من أمام استوديو إكباتانا للتصوير. كان حسن ومراد يقفان عند المدخل. أحتاج فقط إلى قول كلمة واحدة ليقف دافار وأسألهما عن أخبار داريوش، لكني لا أعرف لماذا لم أقلها. لوّحت بيدي لهما، ثمّ أوصلني دافار إلى أمام مدخل العمارة.

اتصلت بزوجي فأخبرني بأنه في غاية الشوق لي ولكيارا. وقال إنه قلق من أجل جواز سفري واقترح أن أحجز تذاكر لرحلة يوم الثلاثاء القادم، فربما أتمكن من الحصول على الجواز.

لقد أجرى حساباته. فبما أنني قدّمت طلبي يوم الاثنين ووعدني العقيد أزارديل بأن أحصل على جواز سفر جديد خلال أسبوع، فإنني بذلك سأتمكن من السفر يوم الثلاثاء إذا لم ينكث العقيد بوعده.

«سأنتظركما يوم الثلاثاء، وأرجو ألا تتركي مسألة جواز السفر تطول إلى ما لا نهاية، فأنا لا أفهم حقيقة ما يجري على الإطلاق. آه، شيء أخير: لا تنس أن تشتري قليلاً من الكافيار إذا استطعت».

على الفور اتصلت بالتاجر الذي يزودني عادة بالكافيار: أخوان

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أرمنيان يبيعان الكافيار ويوصلانه إلى البيت. بعد حوالي ساعة، كانا يقفان على عتبة باب البيت. كان كل منهما يرتدي بدلة سوداء وقبعة سوداء. كانا ضئيلي الجسم، أصلعين بعض الشيء. الأول يشبه البروفسور كالكولوس في تان تان، ولم تكن للرجل الآخر لحية. كانا شديدي التهذيب، إلى حدّ التزلّف، وكانا يتكلّمان بصوت خفيض كما لو أن هناك أحداً يتنصت عليهما. وكانت كلّ حركة تصدر عنهما منسّقة إلى درجة كبيرة: فالأول يفتح حقيبته الدبلوماسية، والثاني يفتح غطاء مرطبان، الأول يخرج ملعقة صغيرة، والثاني يملؤها. يجب أن أذوق المحتويات. ينتظر الرجلان قراري قبل أن ينتقلا إلى المرطبان الآخر.

تكرّرت هذه العملية حتى أعلنت عن موافقتي على ما يحتويه المرطبان. سألني أحدهما عن الكمية التي أريدها، وحسب الآخر السعر. ربط الأول المرطبانات معاً بشريط لاصق أحمر، ولفّها الثاني بورق القصدير. أغلق الأول حقيبته الدبلوماسية، وعدّ الثاني النقود. وعندما انتهت الصفقة (التي دامت عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة) ودعني الرجلان واختفيا في وقت واحد.

دفعت أربعمائة ألف تومان ثمن كيلو كافيار جيد، في حين يبلغ سعره الرسمي في المحلات في طهران مليون تومان، وثمنه ثلاثة أضعاف ذلك في الخارج. حاولت أن أتخلص سلفاً من الإحساس بالقلق الذي أعرف أنه سيتملكني عندما أغادر البلد وأنا أخفي هذه البضاعة الثمينة التي اشتريتها بصورة غير شرعية في جوربي وحذائي الرياضي. وإذا نجحت في اجتياز نقاط التفتيش في مطار طهران فإنه سيتعين عليّ مواجهة الشرطة الفرنسية والإجابة عن السؤال الصعب: «لقد جئت من إيران، هل معك كافيار؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

رنّ الهاتف المرئي.

«تركت السيد سابيتي يصعد»، قال المشرف على البناية محذّراً إياي.

وصل بعد لحظة. أعرف أنني يجب أن أعدّ له القهوة، وكما هي العادة في هذه الحالات، موهتارام غير موجودة.

قال: «عندما تتصلين بي (وكدأبه كان يضع كمية كبيرة من الكولونيا ووجه حليق) حتّى عندما تتركين لي رسالة، فإني أستطيع أن أشمّ رائحة قهوتك. أصبحت مدمناً على هذه القهوة بسببك، أقسم لك. حتى إذا درت المدينة كلها، فلن أجد محلاً يبيع مثلها».

بينما كنت أعدّ القهوة له قلت لنفسي إذا تمكن من جلب القناة فسأمنحه علبة أخرى من قهوتي التي لا تضاهى. هذه المرة لم يكن صوتي الداخلي بل صوت نرجس الذي سمعته يؤنبني على تبديد نقودي وإفساد الطبقات العاملة.

دخل السيد سابيتي الذي يبدو أنه شفي من أوجاعه، إلى المكتبة وبدأ إجراءاته التي لا تنتهي.

«يجب أن تكوني حذرة»، قال لي، «فقد أنزل جميع سكان البناية أطباقهم اللاقطة، ولم يبق أحد في العمارة إلّا أنت والسيدة التي تقيم في الطابق التاسع العشر».

أتصوّر أن جارتي التي تقيم في الطابق التاسع عشر هي غوردافاريد الشجاعة، البطلة في «كتاب الملوك». أنهى السيد سابيتي عمله بسرعة، وراح يدمدم متذمّراً من الاستقبال السيئ بسبب السلطات التي لا تتوقف عن القيام بعمليات التشويش. لقد برمج قناة بيوي. عندما شعرت باقتراب وقت الدفع، تذكرت توصيات نرجس:

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لا تسأليه كم تدينين له. لقد دفعتِ له ما يكفي ونفحته إكرامية أول البارحة لبرمجة القنوات التي لا نستطيع مشاهدتها.

قدمتُ للسيد سابيتي فنجان قهوة. تذوقه وقال: «باه، باه، هذه القهوة رائعة، آمل أن أشربها في عرس ابنتك». من غرفة أخرى اتصلت بنرجس لأقول لها باعتزاز بأنني، بالرغم من مثابرتي وتصميمي، لم أعثر على داريوش، لكنني لن أدفع شيئاً للسيد سابيتي.

«اتصلي بالمصورين!» قالت تأمرني دون حتى أن تبدي أي تعليق على إنجازاتي البطولية.

«لا أعرف رقم هاتفهما».

«انزلي وقابليهما بسرعة. غداً الجمعة ولن تتمكني من العثور على أحد منهما».

«لقد طلب العقيد أن أنتظر أسبوعاً. لا يزال هناك وقت».

«في هذا البلد، فإن عبارة سأتصل بك بعد أسبوع تعني أنك يجب البدء بإزعاجي بعد ظهر اليوم. ألم تتعلمي ذلك بعد؟»

«حسناً، حسناً. سأنزل وأراهما».

«ولا تنسي أن تسأليهما عن الكراسي! من غير المعقول أن يأخذا ثمانين ألف تومان لقاء قماش ينفصل من مكانه من مجرد أن تنفخي عليها».

كان السيد سابيتي على وشك أن يغادر لكنني طلبت منه أن ينتظرني قليلاً. عرض أن يوصلني إلى أي مكان، لكن، ربما بحماقة مني، قلت له إنني ذاهبة إلى استوديو التصوير المجاور.

«استوديو إكباتانا؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«نعم».

«ينبغي ألّا تذهبي إلى هناك وحدك. لا يمكن الوثوق بهؤلاء الناس».

«ما الذي يجعلك تقول ذلك؟»

«الدخول إلى بيتك بحجة إحضار الكراسي، لا أعرف ماذا يمكنني أن أسمّي هذا التصرف».

حاولت عبثاً أن أطمئنه، لكنه أصرّ على مرافقتي، لذلك رأيته يسير إلى جانبي عندما دخلت استوديو إكباتانا بعد بضع دقائق.

«*بيفارمين*، تفضلي اجلسي»، استقبلني حسن.

جلست بينما بقي السيد سابيتي واقفاً ورائي. أخبرت المصورين بأنني لا أستطيع الاتصال بالدكتور أسكارنيا، ويبدو أنه أغلق هاتفه، وأنني أتيت الآن إلى هنا بأمل أن أجد حلاً.

«ليس من السهل أن تجدي الدكتور!» صاح حسن.

«لا تقلقي»، تدخّل مراد وهو يمرر يده خلال شعره، «فأنا أعرف أين يقيم. سأذهب إلى بيته بنفسي هذا المساء وسأخبرك بما يجري مباشرة».

مال السيد سابيتي الذي لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر، نحوي، وسألني: «هل تريدين أن أذهب أنا أيضاً؟»

فقلت له: «لا، لا». وشعرت بالندم لأنني أعطيته علبة البن.

دخل رجل إلى الاستوديو فانحني له مراد باحترام وقال: «لقد أغلقنا».

نظر الزبون إليّ وأنا جالسة على كرسي والسيد سابيتي يقف خلفي. غادر الاستديو باستهجان دون أن ينبس بكلمة واحدة. أظن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أن المصورين قد أضاعا الآن بين خمسة آلاف وعشرة آلاف تومان، وعرفا أنّني لن أوبخهما أو أنتقدهما لأنهما لم ينجدا الكراسي جيداً.

بينما كنت أنهض واقفة، سأل السيد سابيتي مراد فجأة: «عزيزي، ما هو رقم هاتفك الخليوي؟»

يمكنني الآن اعتقاد أن السيد سابيتي يعيش في نفس البلد الذي تعيش فيه نرجس، وهما يتكلّمان اللغة نفسها حيث أن «سأعلمك بما يجري مباشرة» تعني أنك يجب أن لا تتوقف عن إزعاجي وتتصل بي كلّ نصف ساعة».

خرجنا، ومعنا رقم هاتف مراد. ثم غادر السيد سابيتي، بينما كان المصوران يرمقانه بامتعاض. عند عتبة الباب، سألني مراد هل نجحت عملية ترقية القنوات. وعندما أجبته نعم، ارتسمت أمارات الدهشة على وجهه.

عدت إلى البيت وحاولت أن أعمل على المؤتمر الذي سأشارك فيه حول الطبيعة البوذية في الصوفية الإيرانية. جلست إلى طاولة أبي - نفس الطاولة التي ترجم عليها كتاب «الفهرست» لابن النديم إلى اللغة الفارسية، الدليل العربي الشهير من القرن العاشر - وفتحت الكتب التي ستساعدني على كتابة الكلمة التي سألقيها: مجموعة من أشعار العطّار، وكتاب «*جامع التواريخ*»(*)، ونصوص بوذية مثل *ديغانيكايا وماجهيمانيكايا*.

انهمكت في العمل لأكثر من ساعة. أقرأ في *الماجهيمانيكايا*: «أيها الرهبان، هناك أمران مفرطان يجب على المؤمن تحاشيهما

(*) جامع التواريخ: كتاب يعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وهو في تاريخ المغول للمؤرخ الفارسي رشيد الدين فضل الله الهمذاني.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هما: الانغماس في المتع وكبح الشهوات. ويستخدم العطّار(*) في كتابه *منطق الطير* نفس الكلمات تقريباً ويقول: «إذا فُتح الباب أمامي، فلا يوجد فرق بين الكفر والإيمان. وراء الباب لا يوجد هذا ولا ذاك».

فتح الباب وظهرت ابنتي التي تحولت إلى نمر بعد أن صبغت وجهها بعدة ألوان، ورسمت على خديها خطوطاً عريضة بلون بنفسجي. كانت تبدو مرهقة ومبتهجة. كلّ ما أفكّر فيه الآن هو كيف يمكنني أن أنظف وجهها قبل إن تأوي إلى الفراش.

مكتبة الرمحي أحمد

(*) فريد الدين العطار: شاعر فارسي متصوف عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، ومن أهم مؤلفاته (منطق الطير) الذي يرمز إلى معارج السالكين، من أهل التصوف.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الجمعة

في يوم الجمعة هذا، قررت أن أزور قبر أبي في بهشت زهراء، أكبر مقبرة في طهران. وقد نصحني دافار أن أذهب إلى هناك بمترو الأنفاق، وقال لي: «خذي سيارة أجرة إلى مير داماد، ومن هناك تستطيعين الذهاب إليها مباشرة. سيستغرق كل ذلك ساعة من خارج المدينة».

كانت إحدى مهام خالتي الرئيسية مساعدة جميع أفراد أسرة حميد وموهتارام، لذلك طلبت من هاشم، زوج موهتارام، أن يعمل سائقاً لي اليوم. وهاشم رجل ضئيل الجسم، في السبعين من عمره. وبالرغم من عمره وبسبب جيناته الوراثية الإيرانية، فلا يزال شعر رأسه كما كان في شبابه. ويبدو أن جميع العناصر في وجهه تستجيب إلى حركة جاذبية واحدة: إذ تؤدي كلّ الخطوط المرسومة على وجهه إلى طرف أنفه. وبإلقاء نظرة سريعة (هل سيغفر لي ذلك؟) سيخيّل إليك أنك ترى رأس كلب من نوع شيواوا مركباً على جسم إنسان.

وبما أن القيادة وسط مدينة طهران محظورة على الأفراد، كان كلّ ما يستطيع هاشم أن يفعله هو أن يأخذ كيارا من شقّتي إلى بيت خالتي وبالعكس، وهي رحلة تستغرق في الأحوال العادية قرابة خمس دقائق بالسيارة. واليوم الوحيد الذي يمكن أن يكون مفيداً لي

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هو يوم الجمعة. ويوم الجمعة يوم عطلة ويحب هاشم أن يمضي هذا اليوم مع زوجته، ويتعين عليه أن يقطع مسافة طويلة من المنطقة التي أقيم فيها. وقد أعلمته مسبقاً برغبتي في الذهاب إلى بهشت زهراء هذه المرة، ليكون مستعداً للتخلّي عن قضاء وقته مع زوجته. عندما أوصلنا كيارا وموهتارام إلى عمارة خالتي، بدأ هاشم يستعرض لي الكلمات الإنكليزية التي يعرفها (متباهياً بالقول بأنه كان يقود، لمديره الأول، سيارة *بنتلي* الوحيدة في طهران، وبأنه كان يعمل كبير الندل في أفخر مطاعم في عاصمة عائلة بهلوي، حيث كان يوزع هذه الكلمات الإنكليزية على جميع الأميركيين الذين كانوا يعيشون آنذاك). «هاشم آغا»، قاطعته، لأن فكرة تضييع الكثير من الوقت كانت ترعبني، «إننا لا نسير على الطريق السريع الصحيح. خذ منفذ الخروج التالي».

«ملعقة، سكينة، شوكة».

«هاشم آغا، خفف السرعة، لا تفوّت هذا المنفذ».

«مناديل، دجاجة، خيار».

لم يكن يبدي أي انتباه لما أقوله، وبالطبع، فوّت المنفذ التالي.

مضت ساعتان على انطلاقنا ولم نغادر طهران بعد. كان هاشم يريد أن يتكلم بالسياسة. إنه يسمع الأخبار باهتمام ويدلي برأيه في جميع القضايا. ومثل جميع أبناء جلدته الإيرانيين، فهو يؤيد إيران في مسألة تخصيب اليورانيوم، مع لأنه لا يفهم الأهمية التقنية لهذا المصطلح أو نتائجه المحتملة. وأعرف أيضاً، لكي أكون صادقة، بأنني أنا أيضاً لا أعرف ماذا تعني عبارة تخصيب اليورانيوم.

أما في ما يتعلق بمسألة القنبلة النووية، فإن نظريته بسيطة ويمكن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تلخيصها على هذا النحو: إن لم تكن القنبلة شيئاً جيداً، فلماذا يمتلكها الآخرون، القوى العظمى؟

كان يكرر هذا السؤال مرة على الأقل كلّ يوم.

اليوم، بعد أن أضاع منفذاً آخر، أضاف، «كيف يمكننا أن نقبل بأن لا تملك إيران القنبلة بينما يمتلكها الهنود والباكستانيون ذوو البشرة الداكنة؟ من؟ كيف يمكننا أن نقبل ذلك؟»

بسبب الازدحام الشديد، علقنا في وسط سيل من السيارات. فتحت النافذة وسألت سائق سيارة أخرى من طراز بيكان عن الطريق إلى مقبرة بهشت زهراء.

«خذي المنفذ التالي وعودي في الطريق الآخر. لقد ابتعدت عنها كثيراً».

«كان هناك شاب هندي يعمل عندي»، واصل هاشم، لم يتزعزع عن موقفه، «كانت بشرته داكنة جداً حتى أننا لم نكن نسمح له أن يخدم على الطاولات».

شغّل ضوء المؤشر واتجه نحو المنفذ أخيراً.

"Way out"، أعلن بزهو بالإنكليزية.

اجتزنا ضريح الإمام الخميني بمآذنه الأربع التي تحيط بقبة ضخمة مكسوة بالذهب. لم تكن عملية البناء قد انتهت بعد، ويتضح هذا من القبب الأربع ذات اللون الفيروزي التي تحجب المباني التي ستستقبل قريباً موفدين لإقامة ندوات فيها.

وصلنا أخيراً إلى مقبرة بهشت زهراء. اشتريت ماء ورد وبعض الأزهار، واتجهنا إلى المكان الذي يوحد فيه قبر أبي. وصلنا أخيراً بعد رحلة دامت ثلاث ساعات، بينما كانت محطة مترو الأنفاق تبعد عشرين متراً عن قبر العائلة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان يجب أن تستمعي إلى دافار، همس لي صوتي الداخلي.

كانت السلطة الإسلامية الحاكمة قد صادرت قبر العائلة مع أملاكنا الأخرى. وظللت آتي إلى هنا على الرغم من إغلاق البوابة، وعلى الرغم من أن القبر قد تحوّل إلى مستودع تخزّن فيه البلدية مواد بناء. وفي صباح أحد الأيام، عندما كانت الجرافات تهدم البنايات المجاورة وتسوّيها على مستوى سطح الأرض، وقفت هناك أحدّق في أكياس الإسمنت التي كانت تحجب شاهدة قبر أبي، وأفرغتُ نفسي من بلدي.

بعد ذلك، عندما كان يتصل بي أحد من إيران، لم أكن أجرؤ على أن أسأله هل انتهى عمل الجرافات أم لا وفي أحد الأيام، تلقيت اتصالاً هاتفياً من ابنة أخي (وهي امرأة طاعنة في السن قد تكون في سن أمّي لأن أبي تزوّج مرّتين: فقد أنجب ابنه الأول عندما كان في السابعة عشرة، وأنجب طفلته الأخيرة، التي هي أنا، وهو في الرابعة والسبعين من عمره). اتصلت بي لتخبرني بأنها لم تتمكن من استعادة القبر فحسب، بل تمكنت أيضاً من ترميمه. فقد توقفت الجرافات التي كانت تعمل لفتح الطريق إلى مدخل ضريح الإمام الخميني على مسافة لا تزيد على بضعة أمتار من قبر أبينا.

«لديّ مفتاح لك. يمكنك أن تذهبي لزيارته عندما تشائين» قالت لي.

المفتاح معي اليوم. الآن أخيراً، بعد ثلاثين سنة، أستطيع أن أقبّل قبر أبي مرة أخرى.

نادى هاشم المشرف على المقبرة وطلب منه أن يكنسها وينظفها من الداخل، ثمّ قرأ الفاتحة وتركني وحدي. صببت قليلاً من ماء الورد على النوافذ وعلى الحيطان وعلى شاهدة القبر الرخامية، ثمّ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فرشت الأرض بالأزهار. جثوت أمام الشاهدة وهمست لأبي بأنه أصبح عندي ابنة الآن وأنني تصالحت مع إيران.

بعد مسافة غير بعيدة، توجد ساحة الشهداء التي دفن فيها ضحايا الحرب العراقية الإيرانية. وتأتي أسر القتلى لزيارة قبور أحبائهم. أجازف وأتجوّل عبر متاهة النوافذ المنصوبة على كلّ قبر التي توضع فيها الأغراض الشخصية للشهداء. جاءت شابّة ولدت بعد الحرب لتعرّف زوجها على شقيقها الذي قتل في الجبهة. أرملة وحيدة أزاحت الغطاء الذي يحمي الصندوق الزجاجي، وفتحت القفل ورفعت بلطف صورة شاب في العشرين من العمر. قبّلتها وهمست لها بضع كلمات. لعلها أمّه. كانت عظام وجهها ناتئة، وكان أنفها معقوفاً - ليست من ذلك النوع من النساء اللاتي يهرعن لتعديل شكل أنوفهن. وكانت شفتاها ممتلئتين وعظام خدها بارزة بشدة.

رفعت طرف عباءتها لتجفف دموعها التي سالت على الإطار قبل أن تعيده إلى مكانه. التقطت ساعة الرجل الميت، ومسحت الغبار عنها، وشمّت الجلد ثم ربطت الساعة. ثمّ أضافت وردتين اصطناعيتين إلى باقة الزهور البلاستيكية.

رنّ هاتفي. لم أشأ أن أرد! لكنني رأيت أنه مراد. ابتعدت خطوتين. لوّحت لي الأرملة بيدها تطمئنني بأنني لا أزعجها.

«ألو، ألو، لا أستطيع أن أسمعك جيداً» صاح المصور.

«مراد آغا، حاول أن تتصل بي بعد قليل. أنا في بهشت زهراء، لا أستطيع أن أتكلم معك الآن».

«أين؟»

«بهشت زهراء. في المقبرة».

«هل معك قلم وورقة؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فتحت حقيبتي بسرعة ودلقتُ كل محتوياتها على قبر الشهيد. اعتذرت للأرملة التي أعادت لي قلم أحمر الشفاه الذي سقط من حقيبتي ودفتر ملاحظات وقطعة شكولاتة ومشطاً.

«مراد آغا، لم أجد قلمي. حاول الاتصال بي بعد قليل».

«هل تحتاجين إلى قلم؟» سألتني الأرملة، ووقفت على قدميها. هززت رأسي.

«اكتبي هذا»، واصل مراد، «ستّ صور، آخر فاتورة كهرباء أو هاتف، بطاقة هوية ونسخة عنها».

«لكنّي قدمت هذه الوثائق إلى مكتب الجوازات في يافت أباد»، صحت، وخطوت إلى الوراء.

«لا تتحرّكي! لم أعد أسمعك»، صاح مراد. عدت باتجاه القبر.

«نعم، هذا أفضل».

«قلت إنني قدمت هذه الوثائق للتو».

«لا، لا هذه من أجل «بطاقة الهوية»».

«آغا مراد، لا تعرف كم أنا بحاجة إلى إيجاد الدكتور أسكارنيا بسرعة».

«لقد كلّمته الآن، وهو الذي عرض مساعدتك للحصول على بطاقة الهوية».

«لكنّي لا أريد استخراج بطاقة هوية. أريد جواز سفري».

«حسناً، دوّني هذا الرقم».

«أعد ما قلته»، طلبت منه وأنا أحاول أن أتذكر الأرقام عن ظهر قلب.

في تلك اللحظة، أزلقت الأرملة يدها في النافذة على القبر، وأخرجت قلم حبر جافّ من ممتلكات الشهيد الشاب وقدمته لي.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

قرّبت يدي من يدها، وتردّدت في أخذ القلم. كدت أشعر بأنني أرتكب نوعاً من تدنيس المقدسات.

«اكتبي، اكتبي! جُعلت الأقلام للكتابة»، أصرّت الأرملة.

فعلت ما قالته لي وبدأت أكتب الرقم. لكن القلم الجافّ لم يكن يكتب بسهولة، فقد جفّ حبره. حاولت ثانية، ضغطت بشدّة ورحت أخربش. رضخ القلم أخيراً وجعلني أكتب الرقم بيد مرتعشة.

أصبحت أسمع مراد جيداً، لكنه كان يسمعني بصعوبة.

«إذا أردتِ الاتصال بالدكتور أسكارنيا»، قال، «ألو؟ هذا هو الرقم الذي يجب أن تتصلي به. ألو؟ ألو؟»

أمسكت القلم في يدي. كما لو كنت أحسّ بين أصابعي خفقات قلب الشابّ، الشهيد الذي قتل في ٢ خورداد ١٣٦١هـ (٢ أيار/مايو ١٩٨٢م) وهو يقاتل لاستعادة خورام شهر، البلدة النفطية في الجنوب.

أغلقت الهاتف وشكرت الأرملة. وعندما أعدت القلم لها سألتني هل أودّ مشاركتها في طعام غدائها، لكني اعتذرت. أعادت القلم الجافّ إلى الصندوق والتقطت مسبحة زوجها ونسخة من القرآن وقرصاً طينياً لتلاوة دعاء الميت.

تركتها وشأنها وعدت إلى سيارة هاشم الذي أمطرني بوابل من مفرداته الإنكليزية طوال طريق العودة: طعام، فاتورة، إكرامية..

اتصل بي زوجي ، إنه قلق على ابنتنا هذه المرّة.

قال: «إذا اضطررت للبقاء هناك فترة أطول، يجب أن تأخذي كيارا إلى الريف. كيف يمكنك أن تحبسي طفلة في شقّة صغيرة طوال اليوم، محاطة بعجائز وبكلّ ذلك التلوث؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إنه محقّ. قرّرت أن أذهب وآخذ كيارا في نزهة إلى الحديقة العامة. اتصلت بنرجس لترافقنا.

«يجب أن نذهب إلى حديقة قصر سعد أباد»، قالت، «فهي ليست مزدحمة كالحدائق العامّة».

كان شاه رضا، مؤسس سلالة بهلوي، هو الذي شيّد مجمّع سعد أباد الذي يوجد فيه قصره وقصور ابنه شاه محمد رضا وقصور عدد من الأمراء. وقد حوّلت الثورة هذه القصور إلى متاحف، وفرضت رسماً على الدخول إليها مما ثبّط عزيمة الناس في أيام الجمعة ولم يعودوا يملؤون الحديقة بالسماور ومواقد الحطب وقدور الرزّ ومضارب الريشة.

ومع أن نرجس تقيم بالقرب من سعد أباد، فقد اقترحت أن تأتي وتأخذنا، لكني رفضت عرضها.

فردّت: «لكن الطرق غير مزدحمة يوم الجمعة، وأنا في السيارة».

وهكذا نفّذت ما قالته. وبعد عشرين دقيقة اتصل بي السيد إسكندري بالهاتف المرئي وأخبرني بأن نرجس تنتظرني عند مدخل البناية. لم أستطع الانتظار لإخبارها بأنني تمكنت أخيراً من الحصول على رقم هاتف داريوش. عندما هبطت الدرج وصعدت إلى سيارتها، لم تمنحني الوقت لأخبرها بانتصاري البسيط.

«قبل أن تفعلي أي شيء آخر، اتصلي بداريوش»، قالت تأمرني.

وهذا ما فعلته مطيعة. لكنه لم يردّ أبداً.

قلت «أمر غريب. فقد أعطاني مراد هذا الرقم الجديد ووعد بأنّه سيجيبني عليه».

«هل اتصلتِ بمراد؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«هذا الصباح، في بهشت زهراء».

«ولم تتصلي به على الفور؟» سألتني، وبدت عليها أمارات الانزعاج.

«لم يخطر لي أنه سيغيّر رقمه بعد ساعتين!»

«ضعي هاتفك في وضعية إعادة الاتصال الآلي»، أمرتني.

أطعتها، للمرة الثانية.

كان حميد وكيارا واقفين خارج عمارة خالتي وراحا يلوّحان لنا بقوة. صعدت كيارا إلى المقعد الأمامي إلى جانبي، وكما يقول سكان طهران اتجهنا «صعوداً» نحو الشمال. بعد أن رافقت العديد من الأصدقاء الأجانب لزيارة سعد أباد، أصبحت أعرفها عن ظهر قلب: كلّ مبنى فيه، وتاريخ بنائه، ومكانة الأشياء الثمينة. كانت ابنتي مبتهجة بفكرة التجول في القصور التي كان يعيش فيها الملك والملكة والأميرات. تبحث عنهم في كل مكان، في كلّ ركن وزاوية. يجب أن نشتري تذكرة دخول إلى قصر الشاه لأريها صور الملوك.

«أين هي الملكة؟» ظلت تسأل.

«لم تعد تعيش هنا»، قلت لها.

«والملك؟»

«مات».

«هل هو مع أمك، في القمر؟» سألت.

«نعم».

«لماذا ماتت أمك؟»

«لأنها كانت مريضة».

«وهل كان الملك مريضاً أيضا؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«نعم، كان الملك مريضاً أيضاً».

دخلنا إلى غرفة نوم الإمبراطورة التي كانت تضع فيها إحدى المشرفات، وهي شابّة في حوالي الثلاثين، بعض الزهور في مزهرية.

«هذا ما أفعله كلّ يوم»، قالت بصوت منخفض، «هذه هي وسيلتي لأعبّر لها عن احترامي».

«ألم تعد الملكة موجودة هنا؟» سألت كيارا.

«آمل أن تعيدها هذه الزهرة»، أجابت المشرفة. عدت وتذكرت كلمات بلزاك والمقارنة بين «نحن» المستقبل و «نحن» الماضي، بين الصندوق الزجاجي للشهيد الشاب، وبين منضدة الزينة التي كانت الإمبراطورة تستخدمها.

في طريق العودة إلى البيت، ألغيت وضعية الاتصال الآلي، وحاولت الاتصال بداريوش مرة أخرى، رحنا نتحدث عن آخر الثرثرات والإشاعات في طهران. ومع أن داريوش كان قد أعطاني رقمه الجديد لكن هاتفه لم يعد يردّ.

«اتصلي بمراد» اقترحت نرجس.

اتصلت بمراد لكنه لم يردّ أيضاً.

«لنذهب إلى الاستوديو»، قالت، تريد أن تضع حداً لهذا الانتظار.

«اليوم يوم الجمعة، إنه مغلق. لا يوجد أحد هناك».

«سنجعل هؤلاء اللصوص يأتون بأي شكل من الأشكال. ثمانون ألف تومان لقاء تلك الفضلات...»

وجدت نرجس مكاناً ركنت فيه سيارتها بسهولة، ومشينا إلى أستوديو إكباتانا.

«أين هم اللصوص؟» سألت كيارا.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لا يمكن أن يكون يوم كيارا أكثر إثارة من اليوم، فبعد أن زارت قصر الملك، طُلب منها الآن أن تتسلل إلى عرين قراصنة.

كان المحل مظلماً، والشارع خالياً من المارة، وأبواب المحلات الحديدية مغلقة جميعها. اشترينا قليلاً من الخوخ واللوز الأخضر من أحد الباعة في الشارع وجلسنا بجانب مجرى ماء بانتظار غير محتمل- إن لم أقل بأعجوبة - ظهور المصورين.

«أين هم اللصوص؟» سألت ابنتي ثانية.

«لن أضيّع وقتي بالتكلم معهما»، قالت نرجس، وبدا أنها لم تكن في مزاج يدعوها إلى الضحك.

مضت نصف ساعة. كنت مقتنعة بأننا نضيّع وقتنا، فقلت متذرعة بأن موعد نوم كيارا قد حان، لكن ابنتي قاومت هذه المحاولة، وعزمت على رؤية اللصوص.

«اذهبي إلى البيت إذا أردت»، قالت نرجس، «سأنتظر هنا. سترين، سيأتيان في النهاية».

أأذهب إلى البيت؟ أأبقى هنا؟ ترددت. رنَّ هاتفي. إنه الدكتور بشيري.

«نهال خانم، هل ألقيت نظرة على الوثيقة السرّية لجيرار ديباردیو؟»

أدركت أنني نسيتها في معرض الأثاث الآسيوي. لا بد أنني تركتها في مكان ما، ربما عندما كنت أخفي السوشيمي من أجل خالتي.

هيا لن أتأثر بكذبة صغيرة.

«نعم»، قلت للدكتور، «لا أعرف الكثير عن الأمور الواردة فيها لكنّها تبدو مثيرة للاهتمام. لا تقلق، سأسلمها له بنفسي».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عندما رفعت رأسي، رأيت مراد واقفاً أمامي: لقد وصل في الحال. كانت نرجس محقّة في الانتظار.

«ماذا يجري؟ ماذا يحدث؟» سأل، محرجاً بعض الشيء.

نهضت نرجس على قدميها، وحذوت حذوها.

«هل هذا هو اللصّ؟» سألت كيارا.

«لا، لا هذا مراد آغا، المصور».

«مراد آغا...» قالت نرجس بصوت جدّي.

«آسف»، قال لي مراد، «لكن من هي هذه السيدة؟»

«مراد آغا»، تابعت نرجس، متجاهلة سؤال المصور، «إن مسألة جواز السفر هذه يجب أن تنتهي غداً».

يخيّل إليّ أنني أسمع الحكواتي ذا اللحية البيضاء وهو يشيد بشجاعة غوردافاريد، بطلة إيران الأسطورية. ها هي صورة عنها، تقف إلى جانبي في الشارع: «وقفت أمام الجيش الضخم مثل محارب شجاع وتكلمت بصوت أشبه بالرعد، وسألت، «أين هم الشجعان، أين هم المحاربون؟ أي واحد منكم مستعدّ لأن يتقدّم مثل تمساح مدججاً بالشجاعة وينازلني في معركة؟»»

«إننا لم نرتكب أي خطأ»، ردّ مراد غاضباً، «كلّ ما حاولنا أن نفعله في كلّ مرّة هو أن نقدم لك المساعدة. المساعدة فقط، هذا كلّ ما في الأمر. هل هكذا يُكافئ الناس على عمل الخير هذه الأيام؟»

«أي خير؟» صاحت نرجس.

«هل هذا هو اللصّ؟» ألحّت كيارا، وهي تشدّ ثوبي بقوة.

«مراد آغا»، قلت، وأومأت نحو نرجس، «السيدة دادفار هي أكثر من صديقة لي، إنها من ذلك النوع من الصديقات التي يمكن أن تحرق قلبها للوقوف إلى جانب صديقاتها».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«أريد أن أقول بأننا، أنا وحسن، نتمتّع بسمعة جيدة في هذا الشارع، فهل من اللائق أن تأتي امرأتان وفتاة إلى هنا ويجلسن أمام باب الأستوديو مساء يوم الجمعة لاتهامنا بشيء لا يعرفه إلا الله؟»

«لا تخلط بين الأمور»، قلت بنبرة غاضبة بعض الشيء، «اسمعني مراد آغا. .».

مسح بيده جبهته بعصبية، فقدمت له كيس اللوز الأخضر.

وأضفت، «لقد نزلنا لشراء لوز أخضر، تفضل».

«جيّد، فقط لأنك أنت»، قال، وتناول حفنة من حبات اللوز.

«قبل أن يذهب كل واحد منا في حال سبيله، هل تتكرم وتعثر لنا على الدكتور أسكارنيا؟ أم أن هذا الطلب كثير؟»

جلس مراد على الحاجز بجانب مجرى الماء، وأشعل سيجارة، ثم أطلق تنهيدة عميقة، وبدأ يفسّر بصوت منخفض.

«في الحقيقة، لقد تشاجر العقيد أزارديل مع الدكتور».

«ماذا تقصد؟»

«تماماً كما قلت».

انهرت. خطر ببالي أن أتصل بزوجي لأطلب منه ألّا يأمل كثيراً بقدومي لحضور مهرجان فينيسيا أو كان، لا هذه السنة ولا السنة القادمة.

«على ماذا اختلفا؟» سألته نرجس.

«الفحص الطبي الذي أجراه الدكتور على جثة ابن عمه، أزعج العقيد كثيراً».

«كيف أزعجه ذلك؟»

«آسف، لكنّي لا أعرف التفاصيل».

«ألم يعد أحدهما يكلّم الآخر؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لا فقد رفض العقيد مجرد رؤية الدكتور بسبب نتائج تشريح الجثة. هذا كلّ ما أعرفه».

تساءلت بقلق ماذا يمكن أن تكون هذه النتائج. هل يمكن أن يكون قد وجد آثار مخدّرات في جسم ابن العم؟ أو علامات تشير إلى مضاجعة محرمة؟

«وماذا سنفعل الآن؟» واصلت نرجس.

«سيشرح لك الأمر بنفسه. سأتصل به».

أخذ مراد هاتفه، واتّصل برقم وأوصلني بداريوش أخيراً.

قال: «السيدة نهال، لم أسمع منك منذ فترة طويلة. السنة الماضية كنت صديقك، أما هذه السنة فقد أصبحت مجرد شخص لا تعرفينه».

«لا لست كذلك. عمَّ تتحدّث، يا دكتور؟»

«لقد نسيتِ كلّ شيء عنا».

«ماذا تقصد بأني نسيتك؟ لم أتوقّف عن الاتصال بك طوال يومين كاملين! ولم تكن تردّ».

«أعرف، أعرف. لقد ذهبت إلى تبريز مع موكب الجنازة من أجلك فقط، فقط لأتمكن من تحقيق شيء من أجل جواز سفرك! لكن، حسناً، لم أتمكن من متابعة الأمور مع العقيد أزارديل. هذا هو الأمر كله. بسبب نتائج تشريح الجثة، هل تصدقين ذلك».

«ماذا يمكنني أن أفعل الآن؟» سألته، وأنا أفكّر بجواز سفري القديم المليء بالثقوب.

لولا هذين المصورين التعيسين، لأتيحت لي الفرصة، مثل الآخرين، الانتظار في طابور في الشارع لمدة ثمان وأربعين ساعة، وضمان الحصول على جواز سفر جديد خلال شهر.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«اسمعي»، قال داريوش، كما لو أنه ندم، «اجلبي لي ست صور هوية غداً. دعي مراد يجهزها لك».

«لماذا ست صور هوية؟»

«من أجل بطاقة الهوية. يجب أن تحصلي على هذه البطاقة أيضاً».

«لا، لا أريد بطاقة هوية. كلّ ما أريده هو جواز سفر! يجب أن أخرج من إيران! يجب أن أذهب إلى فرنسا».

«لماذا ترفضين هذا؟» همست نرجس، «اطلبي منه بطاقة هوية أيضاً، ماذا تخسرين؟»

«سأعمل شيئاً آخر لك»، أضاف الدكتور، «اسمعي. قابليني صباح الغد في الساعة العاشرة أمام بوابة مكتب جواز السفر المركزي. هل تسمعين؟ الساعة العاشرة تماماً».

أغلق الهاتف.

«أين هو اللصّ؟» سألت كيارا مرة أخرى.

«كيارا، هذا الرجل ليس لصّاً، إنه مصور. في الحقيقة سنعود إلى هنا حتى يأخذ لنا صورة».

«من دواعي سروري»، قال مراد.

ربتُّ بلطف على كتفه، وابتسمت له لتبديد أيّ سوء تفاهم.

«أراكِ غداً، سيدتي الصغيرة»، قال لابنتي التي كانت لا تزال مقتنعة بأنها أمام لص متنكّر في هيئة مصور.

ذهب كلّ منا في اتجاه مختلف. لم تشأ نرجس أن تصعد معنا إلى البيت.

«بعد كل ذلك، لم تتركيني أحلّ مشكلة الكراسي» قالت بمرارة.

«*بعدان، بعدان*، فيما بعد، فيما بعد».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

السبت

في صباح هذا اليوم، مثل صباح كلّ يوم، كانت أول مكالمة هاتفية أتلقاها من خالتي. أخبرتها بأنني كلمت داريوش أخيراً، وأنني لم أخسر كلّ شيء بعد، وأنني سألتقي به في الساعة العاشرة خارج مكتب جوازات السفر المركزي بخلاف رغبة زوجي، وأنني سأترك ابنتي عندها.

بعد عشر دقائق اتصلت بي ثانية.

«سآتي معك. لقد تكلّمنا أنا وزوج خالتك الذي رأى أنها فكرة جيدة أن ألتقي بداريوش هذا أيضاً. فما أدراكِ، فقد يفيدنا ذات يوم».

كيف يمكنني أن أقول لها إنه منذ النتيجة المؤسفة لتشريح جثة ابن عم العقيد أزارديل، فقد أصبح داريوش مكروهاً الآن في نظر مكتب جوازات السفر المركزي؟ أمر في غاية التعقيد. أسئلة كثيرة لا توجد أجوبة عليها، ولن أجازف بالخوض فيها.

«سأكون عندك بعد نصف ساعة».

سحبتُ ابنتي من بين علب الألوان والفراشي وانتشلتها بعيداً عن الرسم، وحاولت أن ألبسها شيئاً غير اللون الوردي. لكن عبثاً. فاللون الوردي هو لونها المفضّل، لونها الوحيد. كأنها لا تجد حياتها إلّا في اللون الوردي.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان هاشم وموهتارام في المطبخ. أراد هاشم أن يرافقني بأمل أن يستخدم لغته الإنكليزية. ذكّرته بأنني سأذهب «إلى المدينة» (تعبير بقي معي منذ طفولتي عندما كنا نعيش في شيرميران في شمال طهران)، وأن عليه أن يعرف الآن بأنه لا يُسمح بدخول السيارات الخاصّة إلى تلك المنطقة.

فقال: «يمكننا دائماً أن نجد وسيلة لتفادي الشرطة». لعله كان يحلم بأن يذكر لي أسماء أدوات المطبخ بالإنكليزية.

رشفت رشفة من قهوتي، القهوة التي يفضّلها السيد سابيتي، وأردّ عليه، «لا، مستحيل».

لكن انتبه، فأنا أعرف أن هذا ممكن، لأن نرجس تفعل ذلك دائماً بسعادة بالغة. لديها دائرتها. فهي تعرف بالتحديد أين يقف كلّ شرطي في المحيط الذي يمنع المرور خارجه. وبتفاديها الشرطة ببراعة، تستطيع أن تقود سيارتها في أرجاء طهران.

رنَّ الهاتف وطلبتُ من موهتارام أن تقول إنني لست هنا.

«إنها مخابرة خارجية»، همست.

«لا يوجد عندي وقت للتحدث».

"Telefon laterr, hello, telefon laterr"، تقول بالإنكليزية قبل أن تغلق الهاتف.

هاشم الذي لا يحتمل تقدّم موهتارام عليه باللغات الأجنبية، قال بجدية، «موهتارام خانم، إن تلفون هي كلمة فارسية، وعندما تقولين "telefon laterr" لشخص فرنسي، فإنه لا يفهم شيئاً. إن كنتِ لا تعرفين كيف تقولين "telefon" بالإنكليزية فيجب أن تقولي فقط: laterr».

صبّ لي مزيداً من القهوة وطلب أن أؤيده في ما يقول، فقال

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

متوسلاً: «مدام، حاولي أن تفهميها بأن التحدث بلغة أجنبية لا يعني فقط أن تلقي كلمة غريبة جزافاً هنا وهناك».

«أن تلقي كلمة غريبة جزافاً هنا وهناك» إشارة إلى الكلمات الفرنسية التي تعلّمتها موهتارام منذ أن بدأت تعتني بابنتي. ولم يكن هاشم الذي تسيطر عليه زوجته في كلّ شيء، يحتمل أنها تتفوق عليه الآن في مجال اختصاصه - اللغات.

وتابع قائلاً: «في ذلك اليوم، قالت موهتارام سأعدّ قليلاً من الـpâte لكيرا خانم». امرأة تمضي أقل من شهر مع طفلة تتحدث الفرنسية وتنسى مفردات لغتها. «موهتارام خانم، نحن الفرس نقصد بكلمة pâte معكرونة».

«بورو بابا، دعني وشأني»، ردّت عليه موهتارام التي لم تعد تتنازل وترضخ لزوجها منذ زمن بعيد.

لا يوجد لدى موهتارام إلّا مثل أعلى واحد، هدف واحد في الحياة، وهو أن تتصرّف وتفكّر مثل أمّي التي أمضت سنوات طويلة في خدمتها، ولا تزال تراها مثلاً أعلى. ومثل أمّي، فإن موهتارام لا تطيق الثرثرة والقيل والقال، وأغلق الراديو في السيارة، وتكره ترتيب الأزهار (كانت أمّي تقصّ سوق الأزهار البلاستيكية فوراً وترتّبها بحرية في مزهرية)، وتحتسي الشاي في كوب نصف مملوء، وتتفادى معانقة أحد، وتسدّ أنفها عندما تشمّ رائحة عطر نفاذة.

إزاء لامبالاة موهتارام الواضحة، كرر هاشم قائلاً: «بالنسبة لنا نحن الإيرانيين فهي معكرونة، وليست pâte».

نظرت إلى ساعتي. مع أنني كنت مستعجلة لأغادر، تابعت الحديث.

«هاشم آغا إن كلمتيْ تلفون ومعكرونة أجنبيتان».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يبدو أنه لم يقتنع. تابعت محاولة أن أقدم له تفسيرات تقنية: «كما تعرف فإن غراهام بيل هو الذي اخترع التلفون وهو عالم أمريكي».

«لا يهمّ من اخترعه! إنها كلمة فارسية».

«بورو بابا»، قالت موهتارام لزوجها مرة أخرى، ثمّ التفت إليّ، وهي تغسل فنجان قهوتي وقالت: «لا تهتمي يا مدام، لا فائدة منه».

فتح هاشم الخزانة، وأخرج منها علبة باستا في شكل أجنحة وفراشات، وقال: «انظري، اقرئي، مكتوب عليها بالفارسية. انظري هناك.. معكرونة».

فقلت: «آغا هاشم»، أقول، «إنه أدنى من مستواك ومن مستوى معرفتك بالطبخ الدولي ألّا تعرف أن المعكرونة كلمة إيطالية لا تستخدم إلا للباستا التي في شكل أنابيب».

أمسك حفنة من الباستا في شكل أجنحة وفراشات، ودقق فيها جيداً، وأصرّ بشيء من الوقاحة: «إن المعكرونة كلمة فارسية تستخدم لمجموعة متنوعة من الأشكال، بما فيها تلك التي في شكل أجنحة وفراشات».

لم أعرف كيف أردّ عليه. فعلى علبة الباستا المصنوعة في إيران، توجد حقاً عبارة «معكرونة فراشات». هاشم على حقّ. يجب أن أعترف بذلك.

لقد تأخرت الآن. بدأت أستعدّ للخروج بسرعة. ارتديت الثوب الإسلامي المفروض من أجل موظّفي مكتب جوازات السفر المركزي. أخذت موهتارام على عاتقها مهمة الاتصال بوكالة سيارات الأجرة، وهي مهمة لا يمكن أن توكلها بأي شكل من

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الأشكال إلى هاشم الذي تعتبر أنه غير قادر على طلب سيارة أجرة - بالرغم من انتصاره اللغوي الأخير.

كانت تنتظرني عند الباب، ممسكة بغطاء رأسي الذي كوته للتو، وقالت «لا تشغلي بالك من أجل كيارا»، وأضافت بصوت مرتفع «سأصنع لها pâte على الغداء».

لم يكن سائق اليوم غيسار ولا السائق الذي ضاعف الأجرة. بل كانت عينا سائق اليوم زرقاوين (تساءلت هل يضع عدسات لاصقة)، وقد أجرى على أنفه جراحة تجميلية، وكان شعره منكوشاً أهوش على طريقة جوني دب.

ذكرت له عنوان بناية خالتي. حدّق بي من المرآة الخلفية.

وقال: «آسف، فأنا لا أعرف مكان هذه البناية».

جميع سكان طهران يعرفون هذه البنايات، وهي أولى العمارات السكنية العالية التي شيدت في العاصمة على يد مهندسين فرنسيين في عهد الشاه. رحت أدلّه على الطريق.

كانت عمّتي في انتظارنا عند مدخل البناية. صعدت إلى السيارة وطلبتُ من السائق أن يوصلنا إلى مكتب جوازات السفر المركزي.

فقال: «آسف، لا أعرف الطريق إلى هناك».

«ألست تقود سيارة أجرة؟» سألته خالتي بغضب.

«نعم، لكنني لست سائق سيارة أجرة».

«إذاً ماذا تعمل؟»

رمقني من المرآة الخلفية للمرة الثانية، وقال: «أعمل مضيفاً جوياً على الرحلات الداخلية».

حسناً. لغز صغير آخر. لا يوجد لدي وقت للاستفسار عن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ذلك. وجّهناه شارعاً شارعاً، زقاقاً زقاقاً، حتى وصلنا. عندما وصلنا، طلبت منه أن ينتظرنا.

«هل يمكنني أن أزعجك للحظة؟» سألني.

«نعم، ماذا؟»

«إذا تمكنتِ من الدخول إلى هناك، فهل يمكنك أن تحضري لي استمارة جواز سفر؟»

«إذاً تريد أن تغادر إيران؟»

«ومن لا يريد؟»

كان داريوش واقفاً هناك خارج البوابة الحديدية. عرّفته على خالتي.

«لا بدّ أنها حطّمت قلوباً كثيرة في شبابها»، همس في أذني.

«ماذا قال الدكتور؟» سألتني لأنها لم تسمعه. لا أعرف ماذا أجيبها: فخالتي واحدة من تلك النساء النادرات اللاتي لا يقدّرن إطراء الرجال ومديحهم. وفي فترة شبابها، عندما كان بإمكانها تحطيم قلوب الشباب فعلاً، كانت سعادتها الوحيدة هي أن تحدّق في زوجها فقط، ولم تكن تحتمل أي إطراء إلّا من أبي، نسيبها. فذات ليلة في الستّينيات من القرن الماضي، طلب منها كازانوفا ذلك الزمن مراقصتها في النادي الليلي الأسطوري في طهران في فندق داريوش. وبنظرة سريعة حصلت على موافقة زوجها، وعلى الرغم من شكوكها ووساوسها، قبلت دعوة هذا الغاوي الذي كان يُفترض بأنه لا يقاوم.

عندما أصبحت على ساحة الرقص رغماً عنها، أقامت على الفور بينها وبين شريكها مسافة آمنة، وأبقت يديها عند مستوى الصدر، ورقصت هكذا حتى انتهت أغنية فيفا إسبانيا.

وحتى الآن، فهي تحبّ أن تعيد وصف المعاناة التي عانتها أثناء

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رقصة بازو دوبلي طوال تلك السنوات. ولكي لا تلتقي عيناها بعيني شريكها (اللتين كانتا أجمل من عينيْ زوجها) أطرقت بعينيها بالأرض، وكادت تتعثر عدّة مرات، وقطرات العرق تسيل على وجهها. حاولت أن تصفق مع الإيقاع بيديها الباردتين الدبقتين، لكنّهما ظلتا تنزلقان. وخلال كلّ تلك المعركة التي كانت أشبه بمصارعة الثيران، كانت ترى نفسها كالثور الذي أسقطه أكثر الرجال وسامة في طهران، تحت العيون المتعاطفة - بل المتواطئة في النهاية - لرواد النادي الليلي. وعندما انتهت الأغنية، قبّل شريكها يدها، لكنها فركتها بقوة على تنورتها الحمراء كأنها تحاول إزالة بقعة علقت بها، بل إنها سدّت أذنيها عندما دمدم لها: أنتِ جميلة جداً!

ماذا يمكنني أن أقول لها الآن؟ إن داريوش يظن أنها جميلة؟

«لا شيء. لنذهب من هذا الطريق» قلت، وقدتها إلى مقصورة تفتيش النساء.

عندما فتحت حقيبتي لأري محتوياتها للمفتشة، أشارت إليّ المرأة بأن أغلقها وقدمت لي طبقاً من التمر.

وقالت: «تفضلي. بدون مجاملات»، وأضافت، «إنها جيدة من أجل انخفاض ضغط دمك».

ألقت نظرة سريعة على ملابس خالتي وقالت لها: «كانت ابنتك شاحبة كثيراً في المرّة السابقة... كان عليّ أن ألحّ عليها بأن تجلس وتشرب كأساً من الشاي المحلّى».

أدركت أنها نفس المرأة التي فتشتني في الأسبوع الماضي. تساءلت كيف ميّزتني مع أنها، منذ ذلك اللقاء القصير، لا بدّ أنها فتشت أظافر وشفاه وحقائب وأغطية شعر ومعاطف آلاف النساء.

هنأتها على ذاكرتها القوية. قدمت لي بضع حبات من التمر مرة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أخرى فتناولت حبتين منها وخرجت من المقصورة مع خالتي. رافقنا داريوش إلى الطابق الأرضي حيث تُسلَّم جوازات السفر. اقترح أن يصطف كلّ منا في طابور أمام كوة مختلفة.

في تلك اللحظة بالذات، تأكدت من أن داريوش لم يعد يريد مساعدتنا وأنني لن أستطيع الاعتماد عليه مرة أخرى. اختار ثلاثة طوابير منفصلة وقف كل واحد منّا في أحدها. لكن خالتي التي تعاني من وجع في الظهر، انسحبت بسرعة. وقال داريوش للمرأة الواقفة أمامه بأنه سيذهب للحظة وسيعود بسرعة، وذلك لإحضار بعض الفطائر والعصير. عاد بعد قليل وهو يحمل نوعاً غريباً من العصير وعلبة مليئة بالفطائر المكسوة بالقشطة. لم نتحرّك من مكاننا قيد أنملة. ألقت خالتي بنفسها على الفطائر.

قال لها داريوش: «أرجو أن تستمتع روحك بها».

أردت أن أدفع له ثمنها، وهو أمر طبيعي جداً.

«ألا تخجلين؟ هل تريدين أن تجلبي لي العار؟» صاح داريوش، وهو يبعد عنه النقود.

أعدتها إلى حقيبتي. قدم داريوش علبة الفطائر التي تعلوها كمية كبيرة من القشطة إلى الأشخاص الواقفين بجانبها. وبدافع المجاملات المعدية، رفضوا جميعاً أن يلمسوا أياً منها.

وضع داريوش قشة في عصير الفاكهة الغريب، وسألني إن كنت قد ذقت مثل هذا العصير من قبل.

ثم أضاف، «لقد أدمنت أوروبا كلها على المنتجات التي تصنعها هذه العلامة التجارية الإيرانية».

«لا، لم أجرِّبه من قبل».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«هيا اشربي منه. توقّفي عن التفكير بعملك وبمؤتمرك طوال الوقت. هيا اشربيه».

جرّبت هذا العصير الغريب الذي يشبه طعمه طعم أيّ عصير غريب آخر في العالم، ثمّ وقفت على أطراف أصابعي لأرى الضابط وهو يغادر مكانه متأبطاً بعض الملفات.

فقلت لداريوش: «لقد غادر الضابط هنا. ألا يمكننا أن نصعد إلى الطابق العلوي ونرى العقيد أزارديل؟»

«عليك أن تستخرجي بطاقة الهوية»، أجاب كأنه لم يسمعني أذكر كلمة العقيد، ثم أضاف، «إذا أردتِ، عندما ننهي عملنا هنا، سآخذك إلى زميل يستطيع أن ينهيها خلال ساعة».

عادة ما يتم الحصول على بطاقة الهوية بعد ستة شهور من المناورات المعقّدة والمنهكة مع مكتب البريد والمصرف ومكاتب بلدية طهران الرئيسية. فهمت الآن أن إصرار داريوش ما هو إلّا اعتراف مقنّع عن عجزه لإنهاء جواز سفري.

راح يستعرض الأسماء المخزّنة في هاتفه الخليويّ.

قال: «اكتبي الرقم هنا. قولي للسيد زارغار إنني أنا الذي أعطاك رقمه وقولي له إن الأمر يتعلق ببطاقة الهوية».

«أنا ممتنة لك كثيراً لكنني أحتاج الآن إلى جواز سفري».

«يا إلهي، كم أنت عنيدة! مثل جميع المرضى بالاكتئاب. إن السيد زارغار زميل مفيد للغاية».

رفع يده إلى شفتيه المزمومتين وقلّد حركة نفخ قبلة للسيد زارغار.

«وفي الواقع، إن لم تجلبي أوراقك معك، فقد أعطيها له لاحقاً، في المشرحة».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بنسيان الوثائق المطلوبة عمداً، أنقذت الآن صوري الست وفاتورة الكهرباء الأخيرة وبطاقة هويتي الأصلية ونسخة منها من أن توضع فوق معدة جثّة، في مكان بين المريء وبين الأمعاء الاثني عشرية.

استغلت خالتي التي أنهت فطيرتها المكسوة بالقشطة، هذه الفرصة لتناقش وضع زوجها مع إخصائي الأمراض.

«دكتور أسكارنيا، إن زوجي بحاجة إلى تجديد جواز سفره قريباً أيضاً، لكنّه لا يستطيع أن يخرج من البيت، لذلك فإني أتساءل هل تعرف أحداً يستطيع مساعدتنا».

«لماذا لا يستطيع أن يخرج من البيت؟»

لا تستخدم خالتي عبارات «معاق» أو «عاجز» أو «مقعد»، فقالت: «إن الجرّاح الذي أجرى له عملية الديسك المنزلق حرّكه كثيراً فلم يعد بإمكان زوجي استخدام ساقيه مؤقتاً».

«جميلة جداً وتعيش مع رجل مشلول»، همس لي داريوش.

«آسفة جداً يا دكتور أسكارنيا. لم أسمع ما قلته جيداً»، قالت خالتي واغرورقت عيناها بالدموع.

«وذات حساسية مرهفة أيضا»، أضاف داريوش.

عندما جاء دور داريوش، ناداني إلى الكوة وأعطاني مكانه في الطابور. دسست الإيصال الذي أعطوني إياه في مكتب الجوازات في يافت أباد عبر الشقّ إلى الضابط الجالس في قفص زجاجي. درسه بدقة وقال لي إنني يجب أن أنتظر ما لا يقل عن شهر حتى يصدر جواز سفري.

ألتفتُ. رأيتُ داريوش فلوّحت له بيدي، لكنه تباطأ: فمنذ أن لم يعد العقيد يكلّمه، لم يعد له أي نفوذ في مكتب جوازات السفر

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

المركزي - وهو يعرف ذلك. لأن الإشاعات عمَّن أصبحت له حظوة ومن سُحبت منه الحظوة تنتشر بسرعة كبيرة. لكنه بالرغم من ذلك، تقدم نحوي ببطء، وقدّم للضابط فطيرة بالقشطة وعصير الفاكهة الغريب، وقال له همساً إن حالتي يعالجها العقيد أزارديل.

رفض الضابط الفطيرة لكنه تناول عصير الفاكهة وقال: «حسناً، في هذه الحالة، اطلب منه أن يعطيني تعليمات مكتوبة».

ضغط داريوش وجهه على النافذة وتمتم هامساً، «العقيد في حالة حداد، أظن أنك تعرف ذلك. لا أستطيع أن أزعجه من أجل أمر تافه كهذا. أيها الغالي على قلبي، لماذا لا تنظر في جهاز حاسوبك. إني متأكد من أن جواز سفرها جاهز».

نقر الضابط على لوحة مفاتيحه للحظة، ثمّ نظر إليّ وقال: «توجد مشكلة».

«ماذا؟»

«منع جواز السفر حسب المادة ١».

«المادة ١؟» سأل داريوش مندهشاً. تراجع خطوة.

«تماماً»، أجاب الضابط.

يشكل رفض إصدار جواز السفر استناداً إلى المادة ١ أسوأ أشكال المنع. وهو يعادل منعاً رسمياً من مغادرة الأراضي الإيرانية. وتثير هذه المادة التي ترتبط بالمسائل المتعلقة بالأمن القومي فقط، قلق الإيرانيين جميعاً، وهي تطبق على أي شخص قد يكون أقدم على أيّ عمل، مهما كان تافهاً، من شأنه زعزعة النظام الإسلامي.

ماذا حدث؟ لماذا انتهى الأمر برفض جواز سفري حسب المادة ١؟ مسحت الغرفة بعينيّ بحثاً عن خالتي وشعرت بالسعادة عندما

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

رأيتها تتناول فطيرة أخرى بتلذذ. تملّكتني الشجاعة: إنها بعيدة ومنهمكة في زيادة وزنها، وحتى المجلة السويدية ستعاني كثيراً من جعلها تخفف وزنها. لذلك، فلن يغمى عليها عندما تسمع خبر إطالة فترة إقامتي في إيران - بل حتى عدم السفر على الإطلاق.

حاولت بسرعة أن أتصوّر الأسباب التي دعت إلى إلغاء ملفي وفقُ المادة ١ في بعض الأحيان، فإن مجرد صورة فتاة تقف بجانب حوض سباحة بالبيكيني، أو مجرد معانقة صديق في سوق التحف، أو ضحكة عالية في مؤسسة الفنون، أو فقاعة منبعثة من علكة في الحافلة، أو فتح مظلّة حمراء في يوم ماطر، أو تناول قطعة حلوى في شهر رمضان، أو زيارة يقوم بها رجلان غير مُحرَمين، وتناول كأس من الشاي - يمكن تفسير أشياء كهذه أحياناً بأنها تصرفات هدّامة، تعرّض استقرار النظام وأساس الإسلام للخطر.

ومرة أخرى، استنتجت بسرعة أنه يمكن اتهامي بكلّ هذه الجرائم، أو معظمها. وللمفارقة، فقد تصرّفت كما لو كنت فوق كلّ تلك الشبهات، فخبطت بقبضتي على المنضدة أمام الضابط وصرخت (وهو شيء لا أفعله عادة).

«لا يمكن أن تكون لديّ أيّ مشاكل بموجب المادة ١». «هذا مستحيل». ثم أنزلت قبضتي.

ألتفتُ لاستشارة داريوش، لكنه، خوفاً من التعرض لمشكلة أكبر بسببي (يجب ألّا ننسى أنه على خلاف مع العقيد أزارديل)، ابتعد بضع خطوات، كأنه لم يرني.

خبطت على المنضدة مرة أخرى، وصرخت مرة أخرى بأعلى صوتي، «هل عليّ أن أكرر: لا يمكن رفض طلبي للحصول على جواز سفر بموجب المادة ١ كم مرّة يجب أن أقول ذلك؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أصبح بإمكاني فجأة أن أسمع صوتي الداخلي الذي لا أعرفه. فلم يعد صوت المرأة التي تردّ بلطف شديد وبوداعة على الظلم، الصوت المعروف بأنه «مسالم»، بل راحت تصيح في وجه مصيبة، بصوت متأثر بما تختزنه من ميزات وبتربيتها وطيبتها.

الصوت الذي سمعته الآن هو صوت أمّي. صوت قوي، حاسم، شجاع. وفجأة أصبح بوسعي أن أرى أمّي، وحيدة وهي تدافع عن آخر مجموعة من عقاراتها من عمّال المزرعة الثوريين. يمكنني أن أراها، امرأة شابة، في ساحة القرية، محاطة بأرض تمتلكها، تواجه مبعوثاً من شقيق الشاه، تصفعه على وجهه. يمكنني أن أراها وهي تعبر نهراً جارفاً ممتطية ظهر فرس في الليل. يمكنني أن أراها وهي طفلة، ترتدي بدلة عسكرية وإلى جانبها حيوان أليف، تستعرض قوّات أبيها - والدها الجنرال الكردي الذي أُرسل أسلافه إلى مازاندران في القرن السادس عشر بناء على طلب الملوك الصفويين لحماية حدود إيران الشمالية.

رشف الضابط عصير فاكهته الغريب بينما راح يفتش في حاسوبه.

«لماذا تصرخين؟» سألني باكتئاب شديد، «لا يوجد داع لإزعاج الجميع. من الممكن أن يرتكب الناس أخطاء، أليس كذلك؟»

«هل ارتكبت خطأ؟»

«إنك امرأة ضيقة الصدر! دعيني أوضح لك».

جرع جرعة من العصير. قلت لنفسي إنه بشفتيه الداكنتين وبطئه في الكلام لا بد أنه مدمن على الأفيون.

«في الواقع، لا يزال جواز سفرك في يافت أباد».

لا يزال يعاني من صدمة المادة ١، ظل داريوش مبتعداً عني.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«دكتور أسكارنيا»، ناديته، «تعال إلى هنا. المشكلة هي أن جواز سفري لا يزال في يافت أباد».

جاء الدكتور، هذه المرة أكثر ثقة.

«أنتِ لستِ امرأة، أنت لبوة»، همس في أذني قبل أن يتوجّه إلى الكوة وقد أحدث هالة من الغباش بأنفاسه على زجاجها وقال للضابط: «حبيب قلبي، كلّي آذان صاغية. ما المشكلة؟»

«كما قلت، لا يزال جواز السفر في يافت أباد».

دفعت داريوش جانباً، وأبعدت وجهي عن الغباش الذي أحدثته أنفاسه، وحافظتُ على نبرة السلطة في صوتي وسألت الضابط: «وماذا عليّ أن أفعل الآن؟»

«لستُ أنا الرجل المناسب لأسأله. الإجراءات العادية تستغرق شهراً، لكن إذا أوصى بك العقيد أزارديل، فإن كلمة واحدة منه قد تختصر فترة الانتظار إلى ربع المدة. التالي».

أمال داريوش رأسه وأرسل له قبلة في الهواء بأطراف أصابعه.

«إذاً؟ ماذا يجب أن أفعل الآن؟» سألته وأنا مغلوبة على أمري.

«لا توجد لديّ أي فكرة. أولاً، يجب أن نمنح العقيد أزارديل فترة للحزن، ثم يجب أن نسوّي مسألة هويتك الشخصية، وأخيراً يجب أن نرسلك لإجراء فحص دم».

هذا يعني ببساطة: أنني لم أعد أستطيع أن أساعدك.

ناديت خالتي. كان وجهها معفراً بالطحين.

«هل انتهى الأمر؟ هل حصلت على جواز سفرك؟» سألت وهي تمسح وجهها.

«لا، سأشرح لك لاحقاً».

«ستحصل عليه، ستحصل عليه»، قال داريوش يطمئنها، ثم

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أضاف، «لكنها متشائمة جداً، وعصابية! لأنها عاشت في الخارج وقرأت شوبنهاور».

«هل تعرف من هو شوبنهاور؟» سألته، مندهشة.

«آه، تظنين أن دكتورك جاهل، أليس كذلك؟ لقد ولد شوبنهاور في دانزيغ في عام ١٧٨٨ ومات في ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٠ في فرانكفورت. من يمكنه أن يقول أجمل من ذلك؟»

أكاد أنفجر. عالم جديد كامل يتفتح أمام قدميّ. ما علاقة شوبنهاور في كلّ هذا؟ كنت أتوقّع أيّ شيء، إلّا هذا الأمر.

أخرج داريوش قصاصة ورق من جيبه، وفتحها وسألني: «هل تريدين اقتباساً منه؟ اسمعي هذا: إن حياة الإنسان تتأرجح مثل بندول ساعة بين الألم والسأم. إن أحببت، بعد أن ننهي بطاقة الهوية وفحص الدم، يمكنني أن أرافقك إلى مكتبة كلية الحقوق حيث توجد عندهم الأعمال الكاملة شوبنهاور».

«بعدان، بعدان، لاحقاً، لاحقاً».

ما إن غادرنا المبنى وعبرنا الفناء حتى توقّف داريوش فجأة.

«لقد أدهشتني. ما هذه الشجاعة التي لديك! أقصد ما فعلته رائع حقاً، وأنا الذي كنت أظن أنك ضعيفة ومكتئبة. أقول لك، لو كان أي شخص آخر لانهار».

«لماذا ينهار؟» سألت خالتي التي لا تدري ماذا يجري حولها.

«أخبرها الضابط أنها ممنوعة من مغادرة البلد»، قال لها داريوش.

«أأنت ممنوعة من السفر؟» سألت بفزع.

«لا، لقد قال لها ذلك ليتخلّص مني، ويرعبني، ويرغمني على

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أن أتشاجر معه، وفي النهاية، قال لي إن كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة لجواز سفري».

كان داريوش لا يزال يحمل ورقة الاقتباسات، وها هو يختار اقتباساً آخر، وقرأ: «إن ما يسعى إليه كلّ واحد منّا ويحبّه أكثر من أي شيء آخر، ليس مجرد محادثة بسيطة، بل حتى في الخدمة العامة، هو دونية الأفراد الآخرين».

«هل شوبنهاور قال ذلك؟»

«نعم شوبنهاور»، قال مؤكداً.

دخلت أنا وخالتي إلى مقصورة تفتيش النساء.

«لم ينته طلبك بعد، أليس كذلك؟» سألتني المفتشة.

«لا».

«أذن سأراك قريباً».

«إلى اللقاء».

غادرنا وأنا في حيرة كيف ميّزتني من بين آلاف النساء، وكيف عرفت أنني لم أحصل على جواز السفر.

كان داريوش ينتظرنا في الخارج بجانب شاحنته الصغيرة. شكرته وطمأنني وقال إني يجب ألا أقلق. هززت رأسي موافقة، وصعد إلى شاحنته وغادر من دون أن يضع حزام مقعده.

لن أراه بعد الآن.

صعدت أنا وخالتي إلى سيارة الأجرة التي كانت لا تزال بانتظارنا. سألنا مضيف الطيران عن الجهة التي سنذهب إليها، وأعطيناه العنوان مع أننا كنا نعرف بأنه لن يتمكن من توصيلنا إلى هناك. وبعد مائة «إلى اليسار» و «إلى اليمين» و «إلى الأمام» وصلنا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أخيراً إلى عمارة خالتي. وعندما حان وقت الدفع، بدأت طقوس المجاملات المعتادة.

«كم هو المبلغ؟»

«لا شيء، أنت ضيفتي، أرجوك».

«هذا لطف كبير منك، لكن كم أدين لك؟»

قبل أن ننزل من السيارة، قال المضيف: «لا أريد أن أحرجك، لكني لا أظن أنك نسيتِ أن تجلبي لي استمارة جواز سفر، أليس كذلك؟»

أردت أن أقول له إن ذلك كان بسبب شوبنهاور.

«سأعود إلى المكتب بعد بضعة أيام. أعدك بأن أطلب لك استمارة في المرة القادمة. لم أتمكن من القيام بذلك اليوم...»

أعطاني بطاقته وفيها صورة له وهو يضع نظارات لها شكل نوافذ طائرة، وعليها أيضاً اسمه ورقم هاتفه الخليوي كتب كلّ منها على إحدى العدستين.

ذهب كل منا في حال سبيله. انتابني شيء من القلق عمّا إذا كان سيتمكن من إيجاد طريقه إلى البيت، لكني سرعان ما نسيته.

في المصعد، قررت أنا وخالتي أن لا نخبر زوجها عن فشلنا، لكي لا تنتكس صحته. استقبلتنا سميرة وماسيرات وحميد وموهتارام وكيارا. انتصب زوج خالتي في جلسته في السرير بحركة سريعة واحدة (لقد سحرته مسألة جواز سفري منذ البداية) وسأل، «هل حصلتِ على جواز سفرك؟ أريني إياه». قلت له إنني يجب أن أنتظر عدة أيام.

«هل حدّثتِ ذلك الرجل عنيّ؟» سأل.

ذهبت خالتي وجلست على حافة سريره، وأخذت تصف له

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بالتفصيل يومنا بدءاً من السائق الذي يعمل مضيفاً جوياً على الخطوط الداخلية، ثمّ المفتشة التي تذكّرت مشكلة انخفاض ضغط دمي، والعصير الذي تصدّره إيران والذي لا يُصنع في أي بلد آخر، والفطائر بالقشطة التي لم تتمكن من مقاومة إغرائها، وأخيراً شوبنهاور، الفيلسوف الألماني العظيم الذي توجد أعماله الكاملة في مكتبة كلية الحقوق في جامعة طهران.

كان زوج خالتي ينصت إليها نافد الصبر.

قال: «ألا تظنين أنني أفهم اللغة الفارسية؟ في وسط كلّ ذلك، هل حدّثتِ الرجل عني؟»

خرجت من غرفة الجلوس ودخلت إلى غرفة نوم خالتي واتصلت بزوجي وبنرجس وبالمصورين، بالإضافة إلى مربي الطيور الذي قال إنه يعرف جميع الضباط برتبة ملازم في مكتب جوازات السفر في يافت أباد؟

بدأت الاتصال بزوجي، لكني سمعت الرسالة من جهاز تسجيل المكالمات ولم أترك له رسالة. ماذا يمكنني أن أقول له؟ ثمّ اتصلت بنرجس التي ردّت بهدوء شديد، وقالت إنها تحضر جنازة الآن. تناهى إليّ صوت آيات قرآنية باللغة العربية من حولها. لم ألحّ عليها، وأغلقت الهاتف.

ثمّ اتصلت بالمصورين الاثنين.

«ألو، استوديو إكباتانا، هل يمكنني مساعدتكم»، جاءني صوت مراد.

«ألو، مراد آغا، أنا نهال تجدّد».

«أوه، مرحباً، كيف حالك؟»

«أنا بصحة جيدة، شكراً، وأنت؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«لا أزال أنتظر أن تأتي ابنتك لتصويرها. يجب أن ترتدي ملابس زاهية الألوان، وأن تضع شريطاً على شعرها وحلق لؤلؤ».

«آغا مراد، لم أتصل الآن من أجل هذا الأمر. كنت منذ قليل مع الدكتور أسكارنيا في المكتب المركزي لجوازات السفر وأخبرونا أن جواز سفري لا يزال في يافت أباد».

«وماذا في ذلك؟»

«لا أعرف ماذا أفعل بعد ذلك. لكي أكون صادقة معك، انتظرنا أسبوعاً ولم يحدث شيء».

«أعرف. تعلمين أن الأمور ما كانت لتصل إلى ذلك لو كانت نتائج تشريح الجثة مختلفة. لكن لا تزعجي نفسك. يمكنني أن أتصل بالدكتور مباشرة».

يجب أن أقول إنني رغبت بالاتصال بمربي الطيور، لكن بتحذير من صوتي الداخلي، قاومت الرغبة في أن أطلق نفسي إلى عالم قد يكون مصير جواز سفري فيه بين طائر ببغاء وطائر كناري.

لفترة نسيت قلقي حول إدارة الجوازات. يجب أن أذهب لزيارة محرّك الدمى لدعوته إلى مونبيليه في شهر حزيران (يونيه) القادم للمشاركة في احتفال «ربيع الكوميديين»، المهرجان الذي يديره زوجي. يرفع حظر المرور في الساعة الخامسة مساء، وينتهي رقم سيارة هاشم برقم مزدوج (مما يعني أن بإمكانه أن يتحرك بسيارته أيام السبت والإثنين والأربعاء) فطلبت منه أن يأخذني إلى هناك اليوم، السبت في الساعة الخامسة والنصف مساء.

أخذت ابنتي معي وأبلغت الجميع بأننا قد نتأخر في العودة لأن منزل محرّك الدمى يقع في حيّ بعيد، في ساحة سرمه، ومع أن خالتي لا تريد أن تكون خارج بيتها بعد حلول الظلام، فقد اقترحت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مرافقتنا. لقد عرفت سبب قرارها المفاجئ بالقدوم معنا: فقد أمضت سنوات طفولتها في سرمه.

طوال الطريق راحت خالتي تحدثني عن جدتها التي (كم مرّة سمعت ذلك؟) كانت مقتنعة بوجود كنز مخبأ في بيتهم.

وقالت لي: «ذات يوم، عندما كنت في الخامسة أو السادسة من عمري، أحضروا مُنَجّماً أخذ يقيس كلّ شبر من البيت ببوصلة مسّاح، ورسم مخططات وردد كلّ الصلوات والأدعية قبل أن يشير بيده إلى باب القبو ويقول: «احفروا هنا وستجدون سرداباً، وفي ذلك السرداب، يوجد كنز أخفاه الحشاشون. لكن احذروا، يجب أن يتم ذلك كله بواسطة طفلة شقراء الشعر من هذه العائلة»».

«أي كنز؟» سألت كيارا.

«كنز الحشاشين»، قلت لها، وقلت لنفسي إنها لن تملّ في إيران: فقد زارت البارحة غرفة نوم الملكة، ثمّ قابلت لصّاً، وها هي اليوم تكتشف كنزاً مدفوناً. ماذا تريد أفضل من ذلك؟

هاشم الذي لم يستطع الانتظار أكثر لاستخدام مفرداته الإنكليزية، حاول إنهاء الموضوع بتذكيره خالتي: «شقراء! لن تجدي فتاة كهذه في عائلات مثل عائلتنا».

فردت خالتي: «عندما كنت فتاة صغيرة، كانت بشرتي بيضاء، فنادتني جدتي وعرضتني على المنَجّم، لكنّه أجاب على الفور بأن الفتاة التي ستفتح كنز الحشاشين يجب ألّا تكون فاتحة البشرة فقط، بل شقراء تماماً».

«لكن لا توجد في عائلاتنا فتيات شقراوات!» كرر هاشم.

وتابعت خالتي: «لا، لكنّي أردت أن أنزل إلى السرداب لأبحث

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عن الكنز. كنت أكبر من كيارا بقليل كما تعرفين، فسألتُ المنَجّم، «وماذا لو فتحته أنا؟ ماذا سيحدث؟» فقال بوجه متجهم، «ستنالين سبع سنوات من الحظ السيىء». وفي اليوم التالي، أقامت جدتي جداراً على باب القبو».

«وماذا لو فتحته أنا؟» سألت كيارا.

«وأنتِ لستِ شقراء أيضاً. لكن بعد أن انتقلنا من ذلك البيت بفترة طويلة، ولدت خالتك ولها شعر أشقر، تذكّرتُ أنا وجدتك ما تنبأ به المنَجّم».

«وماذا حدث بعد ذلك. ماذا حدث بعد ذلك؟» سألت كيارا متلهفة لمعرفة باقي القصة.

«بعد ذلك، نسينا الأمر كله».

«أرجوكِ، دعينا نفتح الكنز»، قالت متوسلة.

«حسناً، في البداية، دعينا نذهب ونشاهد الدمى المتحركة، اتفقنا؟» قلت لها.

هزّت كيارا رأسها. قبل الكنز، مشاهدة عرض للدمى المتحركة. ركنّا السيارة خارج ساحة سرمه. متاهة من الأزقة الضيّقة التي لا تستطيع السيارات الولوج إليها والسير فيها. سألنا عدداً من أهالي المنطقة عن محرّك الدمى. كانوا جميعاً يعرفونه وكانوا في غاية السعادة لمرافقتنا إلى بيته. تمسكاً *بالتاروف* (المجاملات) رفضت عرضهم. وفي النهاية، طلب هاشم من شاب مراهق أن يوصلنا إلى بيته.

«ذاك هو بيتنا، هناك، انظروا» صاحت خالتي فجأة، «أنا متأكدة من أنه هو».

قال لنا الشاب المراهق إننا وصلنا، وقرع جرس البيت المقابل.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لم يتح لي وقت كاف لإلقاء نظرة على باب البيت الذي كان بيت جدي، والذي كان مؤطّراً بمقعدين محفورين في الجدار يعلوهما فانوسان قديمان. جاء السيد فاياز، محرّك الدمى، إلى الباب لاستقبالنا شخصياً. كان رجلاً عجوزاً وسيماً. يمكنه أن يمثّل دور الجدّ العطوف في أيّ تمثيلية تلفزيونية.

«بونجور»، قال لكيارا بالفرنسية، «كيف حالك يا حلوتي؟»

لغته الفرنسية لا تشوبها أيّ لكنة. وليس من اللائق أن أسأله على الفور كيف يتقن الفرنسية هكذا، فقلت له: «كان هذا الشاب من اللطف أن دلّنا على بيتك».

«أهلاً وسهلاً به»، قال مضيفنا مرحباً به.

تبعنا الشاب المراهق إلى داخل البيت كأن الأمر طبيعي جداً. دخلنا جميعاً إلى حديقة صغيرة في وسطها حوض فيه ماء ينبعث من رأس أسد مقطوع، واصطفت على امتداد الجدران أصص ياسمين تفوح منها رائحة عطر جميلة. ويعود البيت إلى القرن التاسع عشر، وهو أمر نادر في إيران، البلد الذي دُمِّر فيه كلّ شيء لتقام أبنية جديدة ستهدّم بعد ذلك بدورها. بضع خطوات تفضي إلى شرفة ثم إلى القاعة الرئيسية. خلعنا أحذيتنا وصعدنا الدرج. كان الشاب المراهق، دليلنا، يرافقنا.

«يجب أن تخلعي حذاءك هنا كما نفعل في المدرسة»، قالت كيارا.

دعانا محرّك الدمى إلى غرفة الجلوس المطلة على الشرفة من خلال نوافذ كبيرة مغطاة بألواح من الزجاج المعشق. جلسنا على الأرض، واتكأنا على وسائد فوق السجادة - يا له من مكان جميل. قدمت لنا صبيّة ترتدي الشادور، شاياً فاتح اللون.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«هذه كنّتي. إنها ترسم منمنمات».

كان جمالها يشبه جمال الفتيات في الرسوم التي تزين كتب الشعر الفارسي: عينان ناعستان، حاجبان مقوسان، شفتان مزمومتان رقيقتان. أشار مضيفنا إلى اللوحات المعلقة على الجدران وقال بافتخار «إنها التي عملتها».

نهضت وألقيت نظرة على إحدى اللوحات لا على التعيين: امرأة تعزف على آلة المندولين. ثمّ دخلت فتاة تحمل في يدها صينية مليئة بالحلوى. أخبرنا بأنها ابنته وأنها تجيد العزف على آلة «السيتار»، وهو عود له رقبة طويلة. كانت ترتدي سترة حمراء قصيرة وتضع على رأسها وشاحاً مطرزاً كالذي ترتديه فتيات القبائل التركمانية، وتتمتع بذلك النوع من الجمال الفارسي النموذجي الذي يمكن وضعه على الغلاف الأمامي لدليل سياحي إلى إيران.

جلست رسّامة المنمنمات بجانب خالتي وجلست العازفة بجانبي.

«هل الكنز هنا؟» سألت كيارا.

«لا تذكّري أننا سنشاهد الدمى هنا».

بالرغم من ذلك فإنها هبطت إلى الحديقة لتبحث عن الكنز. عندما نهضت لأتبعها طمأنتني إحداهن، العازفة، وقالت: «أخي سيعتني بها. إنه في الحديقة».

ألحّت الفتاتان على أن نتناول *زابون*. تناولت خالتي التي نسيت أنها قد تناولت صباح هذا اليوم فطائر مليئة بالقشطة، واحدة من هذه الحلوى.

وقالت: «كم يشبه طعمها طعم تلك التي كنت أتناولها عندما كنت في العاشرة من عمري».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خطرت ببالي على الفور *مادلين* لبراوست.

«هل لا تزال حلوى شوكوفه موجودة هنا؟» سألت خالتي.

«هل تعرفينها؟»

«لقد أمضيت الاثنتي عشرة سنة الأولى من حياتي في البيت أمام بيتكم».

«في ورشة صائغ الذهب؟» سألت العازفة.

نظرنا أنا وخالتي مندهشتين.

نهض محرّك الدمى، وفتح إحدى النوافذ الكبيرة.

ثم قال: «انظري بأمّ عينك».

في الطرف الآخر من الزقاق رأينا جدار البيت الآخر. كانت نوافذه مغلقة، فيه عدة أشجار عارية تعلوه مدخنة طويلة يبدو أنها قيد الاستعمال.

تقدم الشاب المراهق وقال: «لا يعرف أحد شيئاً عن ساكني ذلك البيت. لم يرهم أحد قط. عندما نرى دخاناً يتصاعد من المدخنة، فإن هذا يعني أنهم موجودون في البيت، يعملون».

في تلك اللحظة، دخلت كيارا راكضة يتبعها ابن محرّك الدمى. كان بالغ الجمال يشبه يوسف الأسطوري. تخطر ببالي تلك القصة عن تاريخ يوسف الذي أثار وصوله المفاجئ إلى الحرملك، النساء اللاتي كنّ منهمكات في تقشير البرتقال، فجرحن أيديهن لأنهنّ لم يتمالكن أنفسهن من عدم النظر إلى وجهه. حماني الله لأنني لم أكن أقشّر أيّ برتقالة.

«لماذا لم يرها أحد أبداً؟» سألت كيارا.

رحبّ ابن محرّك الدمى بنا، وأضاف قائلاً: «لأنهم ملعونون».

«ما هو الملعون؟»

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قُرع جرس الباب فخرج محرّك الدمى لاستقبال مدير جمعية المسارح الذي جاء لزيارته.

«أخي خطاط»، قالت الفتاة العازفة، وأشارت إلى حائط مزيّن بعبارات مخطوطة بيده.

عاد محرّك الدمى إلى غرفة الجلوس برفقة المسؤول الرفيع المستوى الذي له لحية كالتي يطلقها جميع الموظفين الحكوميين، وياقة الرئيس ماو، وفرقة الشعر المتجهة إلى أقصى اليسار من رأسه. لم أكن أعرف سبب تصفيفة الشعر الخاصة هذه حتى أخبرني صديق: إذ يُعتبر تمشيط الشعر قبل الصلاة دلالة على التقوى. لذلك، لكي يظهر المتعصبون ضمناً أنهم يقضون وقتهم في الصلاة، فإنهم يفرقون شعرهم بعناية بهذه الطريقة المميزة. دلالة أخرى.

على الرغم من ارتدائه ثيابه على الطريقة الإسلامية، فقد حدّق الرجل في عينيّ وابتسم لي وتمتم بضع كلمات. قلت لنفسي إذا وضعت على رأسه عمامة عربية فإنه يصبح شبيهاً بتلك الرسوم التي تصور الإمام علي، زوج ابنة النبي.

جلسنا أخيراً قبالة السيد فاياز. مدّ يده إلى صندوق خشبي مطعّم بالصدف وأخرج دميتين برهافة: شابّ بعينين مخططتين بالكحل، يلبس سترة حريرية فيروزية اللون فوق سروال داخلي قرمزي اللون وينتعل حذاء طويلاً لامعاً، وصبيّة شقراء صنع وجهها من الخزف، ترتدي ثوباً طويلاً من المخمل البنفسجي. وأزلق السيد فاياز يده داخل ثوب البطل، أمير أرسلان (شخصية مألوفة للجميع) وبدأ يحرّك الدمية. يصعد أمير أرسلان إلى الأعلى ويهبط إلى الأسفل ويعلن عن مغادرته الفورية إلى أراض أجنبية. لم أتمالك نفسي عن التفكير بجواز سفره.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في ومضة عين، وصل أمير أرسلان إلى بلاد الفرنج، أي فرنسا، والتقى بفاروخ لاغا، ابنة الملك. تلتقي الشخصيتان معاً، ثمّ تهربان، ثم ينادي أحدهما الآخر، ثمّ تتجادلان - كلّ ذلك أمام عينيّ كيارا المسحورتين.

رنّ الهاتف. زوجي يتصل من باريس. نهضت واعتذرت بينما قطع محرّك الدمى أداءه. خطوت بضع خطوات إلى الخلف، وكالعادة، تناهى إليّ نفس الصوت الذي ما برح يسأل نفس السؤال: «إذاً، ما هي أخبار جواز سفرك؟ أين وصلت به؟»

كيف يمكنني أن أخبره بأن داريوش (فهو لا يعرف أن الشخص الذي يساعدني لاستخراج جواز السفر يشبه داريوش، ولا يعرف أيضاً من هو داريوش) قد تشاجر مع العقيد منذ أن ظهرت نتائج فحص تشريح جثة ابن عمه، ولذلك لم يعد بإمكانه مساعدتي؟ كيف أشرح له كلّ ذلك على الهاتف وأنا أهمس في بيت غريب؟

«متى ستعودين؟ ألا تعرفين ذلك على الأقل؟»

«قريباً، أتمنّى ذلك. أحتاج فقط إلى أن أجد شخصاً مسؤولاً في مكتب جوازات السفر المركزي!»

«وماذا عن عقيدك؟»

«لم ينجح الأمر».

«ماذا؟»

«لأنه يمرّ في فترة حداد، سأوضّح لك».

«لكنك ستكونين هنا يوم الثلاثاء؟»

«لا أستطيع أن أعدك بأيّ شيء، لا يوجد أحد يساعدني حالياً. قد يأخذ ذلك وقتاً أطول. ربما شهراً».

«شهر؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«سأشرح لك. لا تغضب مني. إني أبذل كلّ ما بوسعي».

أغيّر الموضوع وأخبر زوجي بأنني موجودة الآن في بيت السيد فاياز، أشهر محرّك دمى في إيران، وأنه يقيم في بيت فارسي نموذجي يحيط به أولاده الذين كلّ واحد منهم أجمل من الآخر، ويتمتع كلّ واحد منهم بموهبة فنية رائعة. نهض السيد فاياز، ووضع يده على صدره دلالة على التواضع وسأل عمّا إذا كان يستطيع أن يكلّم زوجي. أعطيته هاتفي مباشرة وبدأ يتكلم باللغة الفرنسية، وقال إنه يوّد كثيراً أن يعمل مع زوجي لإقامة عرض بالدمى المتحركة مستوحى من كتاب *منطق الطير* للعطار.

فجأة، دخلت إلى الغرفة امرأة رشيقة متشحة بغطاء رأس مرتدية بدلة واعتذرت لتأخرها.

«لقد انتهى درسي منذ ساعة ونصف الساعة ووصلت للتو»، وأضافت بشيء من القلق، «أرجو أن تكونوا قد حظيتم بالاستقبال اللائق».

إنها سيدة البيت وطمأنتها بأنّنا استقبلنا بأفضل ما يمكن أثناء غيابها. وضع محرّك الدمى يده على الهاتف، وأومأ إلى خالتي وقال لزوجته إنها كانت تعيش في البيت المقابل عندما كانت طفلة.

«إذاً من الممكن أن يعرف أحدكما الآخر؟» سألته زوجته.

«كانت أمهاتنا صديقتين»، قال، «لقد ماتت أمها وهي صغيرة جداً، تغمدها الله برحمته، ثم انتقلوا من هنا».

تحاشيت النظر إلى خالتي: إني متيقنة من أنها تبكي.

واصل محرّك الدمى العجوز، الذي أحسّ بفترة صمت محرجة، حزينة، كلامه، «لقد تأخرت زوجتي لأنها عادت للتو من الدرس

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الديني الذي تعطيه. إنها تعطي دروساً عن القرآن لمجموعة من الشابّات».

على الفور شعرت بالرغبة في أن أدرس القرآن على يدها، في هذا البيت الذي يوجد فيه خطاط شاب يدعى يوسف، وصبيّة ذات عينين ناعستين ترسم منمنمات، ومبعوثة الجمال الفارسي تعزف على «السيتار»، وحيث يزمع المضيف - الذي يتكلّم الفرنسية بطلاقة - تقديم مسرحيّة بالفرنسية مقتبسة من كتاب العطّار، والذي يوجد فيه مسؤول حكومي يشبه الإمام علي ويجرؤ على النظر في عيني امرأة مباشرة ويبتسم لها.

سيكون كلّ شيء في غاية البساطة، قلت لنفسي. سيكون كلّ شيء رائعاً جداً.

اقترحت على خالتي أن تأخذ دروساً على يد السيدة فاياز، لكنها قرصت يدي لكي أسكت.

ما إن ودّع محرّك الدمى زوجي وأغلق الهاتف، حتى سألني: «هل لديك مشكلة في جواز السفر؟»

بدأت التاروف، فقلت: «لا، لا يوجد شيء، ستسير الأمور على ما يرام».

قرصتني خالتي مرة أخرى تشجعني على قبول المساعدة المحتملة. إنها محقّة: فنحن في حضور مسؤول حكومي، شخص في موقع سلطة حقيقي. فأخبرتهم باقتضاب عمّا جرى لي وكيف أنني يجب أن أشارك قريباً في مؤتمر سيعقد في باريس عن العلاقة بين الصوفية والبوذية.

«أوه، أحبّ أن أحضر ذلك المؤتمر»، تنهد محرّك الدمى.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وعدته بأن أرسل له نسخة. دوّن «يوسف» عنوان بريدهم الإلكتروني على قصاصة ورق وأعطانيها.

أخرج مدير جمعية المسارح هاتفه الخليوي بسرعة كبيرة من جيبه، واتصل بأحدهم وقال له بهدوء لكن بحزم: «غداً صباحاً أريدك أن ترافق السّيدة تجدّد إلى مكتب جوازات السفر المركزي. سأعطيك إياها الآن لتخبرك ما هي المشكلة».

لم أذكر داريوش، وجثة ابن عم العقيد أو التهديدات الكاذبة المتعلقة بالمادة ١ احتفظت بكلّ ذلك لنفسي.

وقلت: «لقد علق جواز سفري في مركز يافت أباد منذ أسبوع، ويجب أن أسافر يوم الثلاثاء».

«في يافت أباد؟ لماذا يافت أباد؟» سأل صوت رجل، الذي بدا متفاجئاً جداً.

«هل أقول إنني أعرف شخصاً هناك. لكنّه لم يستطع أن يفعل شيئاً».

«قابليني غداً صباحاً في الساعة العاشرة خارج مكتب جوازات السفر المركزي».

«أنا آسفة، لكن كيف يمكنني أن أعرفك؟»

عادت براعم الأمل تتفتّح مرة أخرى. وفي الوقت نفسه، ذكّرت نفسي بأنني عندما سأذهب إلى هناك غداً صباحاً، يجب أن أحصل على استمارة للمضيف الجوي، الرجل الذي يقود سيارة، لكنه ليس سائق تاكسي.

«سأعرفك» سمعت الصوت يقول لي.

ألقت ابنتي بنفسها على هاتف المسؤول وتوسلت إليه أن يريها صوره. فوافق، وعلى الفور راح يمرر، أمام عينيّ، صور الرئيس

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خاتمي، ورئيس البرلمان وزوجته التي خبأت شعرها حسب الأصول تحت غطاء رأسها. وفي جزء من الثانية، أخذت كيارا هاتفي من حقيبتي، وقبل أن أتمكن من منعها، ضغطت على زرّ مخزن الصور وراحت تعرض صوري: واقفة بجانب نهر في منطقة هيرولو بالبيكيني أو جالسة إلى مائدة وأنا أقرع كأس النبيذ بابتهاج بكأس زوجي. وللحظة خيّل إليّ بأن لقاء الغد قد ألغي وأنه سيتعين عليّ الاتصال بمربي الطيور.

في تلك اللحظة، دخل شابّ بسرعة إلى الغرفة، منقطع الأنفاس يحمل نسخة من الترجمة الفارسية لرواية لويس بنويل «تنهدتي الأخيرة».

عندما جلس قال السيد فاياز: «هذا هو ابني البكر. إنه مخرج سينمائي».

قرصتني خالتي مرة أخرى: لقد شعرت بالقلق من أن أفتح حديثاً أبداً مع مخرج الأفلام الشاب. فإذا بدأنا نتحدث عن بنويل الذي عمل مع زوجي لمدة عشرين سنة، فإننا سنمكث هنا طوال الليل. وبدأت خالتي تشعر بالقلق على زوجها، لذلك يجب أن نغادر. وعدت محرّك الدمى بأن أراه في مونتبيله، متمنية في سريرتي أن تتمكن الأسرة كلها من المجيء.

ضم المسؤول كيارا بين ذراعيه.

وقال: «عندي صبي في السابعة من العمر. قد تصبح ابنتك كنّتي».

تمنّى الجميع ذلك وقالوا: «إن شاء الله».

لم أصرّح بأنه ربما كانت لي أحلام أخرى من أجلها. لكني سررت بأنه لم يبال بذنوبي الواضحة: البيكيني والنبيذ.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

شكرنا جميع أفراد الأسرة وغادرنا. وما إن خرجنا، حتى توقّفت خالتي عند عتبة بيتها القديم. وقفت بجانبها، ممسكة بيد ابنتي. ووقف المسؤول وهاشم والمراهق خلفنا. مدّت خالتي يدها ولمست أحد أقفاله، القفل المصنوع في شكل حمل والمخصص لاستخدامه من قبل النساء. أدارته ففتح الباب على الفور. اقترب المراهق أكثر وشجّعنا على الدخول.

قال: «هيا. هذه أول مرة أرى فيها هذا الباب يُفتح».

فقلت: «لكن هذا ليس بيتنا. يجب أن نُعلم أصحابه».

خطا المسؤول خطوة إلى الأمام، وصاح: «هل يوجد أحد هناك؟»

أغلقت خالتي التي لم تنبس ببنت شفة الباب فجأة.

وقالت: «لنذهب من هنا. بدأ الظلام يهبط. يجب أن نذهب».

«إذا أردتم زيارة هذا البيت في أي وقت»، قال المسؤول، «يمكنني أن أرتّب لكم الأمر بواسطة زملائي في مديرية التراث».

«شكراً جزيلاً. بعدان، بعدان. فيما بعد».

عندما خرجنا من الحيّ القديم، صعد المدير إلى سيارته الرسمية وتوجهنا نحن إلى سيارة هاشم. وقبل أن يتركنا سأل الشاب المراهق خالتي، «كيف استطعت فتح ذلك الباب؟»

«ثلاث دورات إلى اليمين ودورة واحدة إلى اليسار. لم يتغيّر بعد ستّين سنة».

لم يتكلّم أحد في طريق العودة إلى البيت. لمرة واحدة حتى هاشم احترم صمتنا ونامت كيارا على ركبتي.

عندما وصلنا قاد هاشم السيارة إلى مرآب السيارات، بينما

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أخذت أنا وخالتي وكيارا المصعد. وما إن دخلنا إلى البيت، حتى نزعنا، كالعادة غطاء رؤوسنا على الفور.

«لماذا لم تدخلي إلى البيت؟» سألت خالتي.

«كنا ثلاثتنا على عتبة البيت: أنا وأنت وكيارا. وكانت أختي وأمّي وجدتي في الداخل. لقد رأيتهن ثلاثتهن، في أعمارنا نحن اليوم».

أختها (التي كانت أمّي) وأمّها وجدتها كلهم أموات الآن. لهذا السبب أغلقت الباب.

الأحد

أيقظني هاتف خالتي في حوالي الساعة الثامنة صباحاً وسألتني: «هل الأشياء التي رأيتها وسمعتها البارحة... قولي لي فقط، هل كانت جزءاً من أحلامي أم أنها جرت في حياتي الحقيقية؟»

شأن جميع الإيرانيين، في اللحظات الحاسمة، يمكنني أن أعبّر عن نفسي بالاقتباس ببعض الأبيات من قصائد شعرائنا العظام. ويستشهد معظم أبناء جلدتي بحافظ، لكن أمّي علّمتني بأن أعود إلى الرومي الذي كانت تعتبره السيد الأعلى.

أجبت عن سؤال خالتي بهذه الكلمات (التي تعرف كما أعرف): «تشبه تلك الحالة الشفّافة اللحظة التي تبدئين فيها النوم، وعندما تغادرينها فإنك تدخلين إلى نفسك، وعندما تستطيعين سماع نفسك، يخيّل إليك أن شخصاً آخر هو الذي كشف لك عن سرّ، ليس هناك فاصل بين النوم واليقظة».

ردّدت الكلمات الأخيرة معي، ثم واصلت القول: «لا تنسي أن تأخذي هدية صغيرة إلى المفتشة».

كانت كيارا وموهتارام وهاشم يستعدون للذهاب إلى بيت خالتي كما يفعلون كلّ يوم، وعرض عليّ هاشم أن يوصلني مرة أخرى.

«لم تفهم بعد»، ذكّرت موهتارام زوجها، «لا يوجد حظر مرور

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

محدود فحسب، بل يوجد كذلك نظام الأرقام المفردة والمزدوجة. اليوم هو الأحد، ولا تستطيع أن تمضي مسافة بعيدة».

اتصلت بوكالة سيارات الأجرة، وطلبت سيارة، وأخذت علبتي بن للمفتشة في مكتب جوازات السفر المركزي قبل أن أهبط إلى الطابق الأرضي. عندما شاهدني السيد إسكندري، رمقني بنظرة مليئة بالتعاطف، وقال: «كم مرّة جعلوك تذهبين وتعودين».

سائق اليوم لم يكن غيسار، ولا السائق الذي طلب أجرة أعلى من المعتاد، ولا السائق الذي أراد الحصول على استمارة للخروج من البلد، بل كان رجلاً هادئاً في السبعينيات من عمره، له شارب أبيض، يرتدي قميصاً أزرق مزرّراً حتى قمة العنق. ظهرت صورة الشخص الذي يشبه الإمام علي من المرآة الخلفية لسيارته القديمة من طراز *بيكان*. عندما أمعنت النظر فيها، تأكدت أن مدير جمعية المسارح الذي كنت قد التقيت به البارحة يشبه حقاً «أسد الله»، الإمام علي.

كنت لا أزال في السيارة عندما اتصلت بنرجس وحدثتها عن نفاد صبر زوجي وعن لقائي بمسؤول كبير من إدارة الثقافة وعدني بأن يسوّي أمر جواز السفر.

«إنه سيفعل ذلك. سيفعل ذلك. ولا تنسي هذا المساء. سنذهب لحضور افتتاح معرض الرسّام الذي يرسم الجثث».

«أيّ جثث؟»

«جثث الزلزال الذي وقع في بام. سآتي وآخذك. ستكونين في طريقي إلى المعرض».

أعرف أنني لست في طريقها هذه المرة أيضاً، لكنّها ستأتي في جميع الأحوال.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«المعذرة يا مدام»، قال السائق ذو الشارب الأبيض، «اسمحي لي أن أرفع الكلفة، وأسدي لك بضع نصائح لأن عمري يجعلني في مقام والدك».

ما جدوى أن أقول له إن والدي ولد سنة ١٨٨٦؟ عندها يمكن أن يستمر الحديث حتى يوم الثلاثاء ولا أستطيع العودة إلى باريس.

«يا رب، ليأتِ صديقي وهو ينعم بصحة جيدة، ويخلّصني من سلاسل التأنيب» تلك هي كلمات حافظ. «مدام يجب ألّا تنزعجي إذا تضايق منك يار، أو صديقتك أو زوجك».

«لست أنا المنزعجة، هو المنزعج».

«حول هذا الموضوع يقول حافظ: إن عنف المقربين لنا هو صلاح وكرم لنا».

هكذا إذاً، فإن حافظ موجود معنا في السيارة صباح هذا اليوم. ففي طهران لا يمكن أن نكون وحدنا: لأن شعراءنا وأصحابنا وأصدقاءنا وآباءنا يرافقوننا على الدوام.

عندما خرجت، كدأبي، طلبت من السائق أن ينتظرني. تساءلت كيف سيتمكن الرجل من جمعية المسارح من التعرف عليّ. رحت أتفرج على واجهات المحلات: معدات رياضية: أحذية أديداس (تذكرت أنني نسيت الأوراق التي من المفترض أن أعطيها إلى جيرار دباردیو في معرض مصمم الديكور الداخلي الآسيوي)، وقمصان تي شيرت، وأدوات كهربائية، وألعاب. دلفت إلى المحل الأخير، وعلى الفور، حذرني صوتي الداخلي من شراء لعبة ميكي ماوس والذهاب إلى دائرة حكومية وأنا أحمل لعبة قوارض أميركية.

عندما خرجت من المحل، دنا مني رجل.

«السيدة تجدّد؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«نعم، مرحباً».

إنه الرجل الذي أنتظره. عرّفني على نفسه. كان في حوالي الستين من عمره، شعره أشيب طويل، ويضع نظارات ذات حواف مستديرة. بسهولة يمكن أن يكون جون لينون الذي نجا من محاولة اغتيال. كان يحمل صرة ضخمة ملفوفة بورق هدية.

قال: «إنها طنجرة ضغط».

«حقاً؟»

«نعم إنها للموظف الذي ذهب إلى يافت آباد في السابعة صباحاً ليجلب جواز سفرك».

استنتجت بسرعة أنه يجب أن أدفع له ثمن طنجرة الضغط، بل ربما عليّ أن أضيف مبلغاً قليلاً لتغطية تكاليف رحلة الرجل. لماذا ينبغي لجمعية المسارح أن تمول تكاليفها؟

«هل تتفضل وتدعني أساهم في التكلفة؟» قلت له.

«طبعاً لا، هل جننت؟ طناجر الضغط، مجهزات الطعام، وآلات الخياطة الصغيرة - هذه هي أغراضنا اليومية».

اتجه كل منا إلى منطقة التفتيش المخصصة له. توجهت إلى مقصورة تفتيش النساء وحييت المفتشتين. قالت لي المفتشة التي عرفتني البارحة: «أحسنت صنعاً بعدم إحضار أمك معك. فهن يجدن هذه الأماكن متعبة».

بصورة تلقائية فتحت حقيبتي، لكنها لوّحت إليّ بأن أغلقها. قدمت لكل منهما علبة بن.

«شيء صغير من باريس».

«ما هو؟»

«بن».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«قهوة فرنسية؟» سألت المفتشة التي عرفتني البارحة، وأشارت إلى امرأة أخرى بأن تزيل أحمر الشفاه من شفتيها.

«نعم إنها من باريس».

«إذاً فهي ليست قهوة تركية»، قالت المرأة الأخرى.

«لا، طعمها مختلف».

«دسّي ذلك الشعر الأشقر تحت إيشاربك» قالت تأمر امرأة أخرى، ثم التفت إليّ وسألتني: «وكيف تصنعينها؟»

أدركت على الفور أنه لا يوجد دورق قهوة أو ركوة قهوة كهربائية. هل عليّ أن أخرج وأبحث عن واحدة في المحل المجاور. صوتي الداخلي يمنعني من عمل ذلك.

«ملعقة بن واحدة لكل شخص ولكلّ فنجان»، قلت بسرعة قبل أن أغادر.

رأيت جون لينون في الفناء الداخلي وأشار إليّ بأن أتوجّه إلى المكتب على الطرف الأيسر.

«يجب البدء من هناك. يجب أن تصطفي في الممر مثل الآخرين. سأقف جانباً. عندما يأتي دورك ادخلي وأري الملازم رسالة التقديم. إنه رجل سيىء المزاج. مهما قلتِ، لا تذكري أن معك أحداً هنا».

تركني في الممر واختفى. عشرون شخصاً ينتظرون أمامي. شعرت بالرغبة بالاتصال بأحد ليهبّ لنجدتي، لكن لم يبق هناك أحد: فقد تشاجر العقيد أزارديل مع دايريوش، وحتى مربي الطيور لن يتمكن من عمل شيء الآن. لقد انتقل جواز سفري من مكتب الجوازات في يافت أباد مقابل طنجرة الضغط.

جاء دوري بسرعة لأن الملازم السيىء المزاج لم يكن يمنح

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أحداً أكثر من دقيقتين. مشيت نحو طاولة مكتبه. فلم يرفع بصره. أعطيته رسالة التقديم فقرأها بسرعة وأعادها إليّ من دون أن يرفع عينيه.

قال: «مادار، (أمّي) عودي بعد أسبوع».

أردت أن أحتجّ، لكن ما منعني من الاحتجاج هو أنها المرة الأولى التي يخاطبني فيها أحد بهذه العبارة. غادرت مكتبه وأنا أكبر سناً، مهزومة، مقوسة الظهر، جزء من جيل مختلف. وجدت جون لينون جالساً على الدرج.

سألني، «ماذا قال؟»

أردت أن أقول له إنه دعاني *مادار* لكني أحجمت.

«لا شيء. قرأ الرسالة وطلب مني أن أعود بعد أسبوع».

«تمام. الآن يمكننا الهجوم».

لم أفهم سبب سعادته. كنت لا أزال مصدومة من كلمة *مادار*.

ثم أضاف: «في هذه الأثناء قدَّمت طنجرة الضغط إلى الشخص المعني، وحصلت على جواز سفرك. لكنهم لم يسمحوا لي بالاحتفاظ به فأعطيته للسلطات ويمكنك الحصول عليه من خلال القنوات الرسمية».

نزلنا إلى الطابق الأول وأشار لي جون لينون بأن أتوجه إلى أحد المكاتب.

«اجلسي هناك. سأجري اتصالاً مع واسطتي. سيأتي ويدقّق المعلومات على الكمبيوتر ثم، إذا كان كلّ شيء على ما يرام، فإنه سيعطيك جواز سفرك الجديد. لا تكلّميه كثيراً. اتفقنا؟»

«اتفقنا».

جلست. ثم وصل ضابط يمسك بيده جواز السفر. وكما هو

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

متوقّع، فقد دقق في حاسوبه ثم غادر. لم أبادله ولا كلمة. تطلعت حولي أبحث عن جون لينون: كان متّكئاً على طاولة طويلة، يشرب عصير فاكهة. توجهت إليه فعرض عليّ أن أشرب كأساً من عصير مميز، وذكر عبارة داريوش حرفياً، «هل تعرفين أن أوروبا كلها أصبحت تدمن المنتجات التي ينتجها هذا النوع من المشروب الإيراني».

«أعرف. لقد شربته من قبل».

«هل تعرفين أيضاً أن شوكولاتة مون شيري التي تحتوي على مشروب كحولي تُصنع هنا؟»

«لا، لا أعرف».

«إنها كذلك، إنها كذلك، أعدك. لقد عرفت ذلك من مصدر موثوق».

«أصدقك. لكنّي أردت أن أقول لك إن الضابط لم يعطني جواز السفر».

«تمام».

لماذا هو مسرور بذلك؟ لماذا كلّ شيء على ما يرام؟ لا أزال أستطيع أن أفهم.

«لم تقولي له شيئاً، أليس كذلك؟» أضاف، وقدم لي العصير الغريب.

«لا، ولا كلمة».

«تمام».

خرج، ثم رأيته يتصل بأحد ما على هاتفه. عندما أنهيت العصير، كنت أجيش بالفكرة التي حاول أن يقنعني بها بأن شوكولاتة مون شيري مصنوعة في إيران. لكن إذا لم يتمكن من إصدار جواز

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

سفري فإني سأقول له إنني متيقنة من أنه يستحيل على بلد إسلامي أن يوافق على إنتاج منتجات فيها مشروب كحولي على أرضه. لا جدال في ذلك.

فجأة سمعت صوتاً ينادي اسمي من الطرف الآخر من الغرفة بمكبر الصوت: «تجدّد، الكوة رقم ٥».

لم أعرف ماذا أفعل. خرجت أبحث عن جون لينون ورأيته يلوّح لي بأن أتوجّه إلى الكوة. عندما توجهت إلى الكوة، دقّق الضابط اسمي وسلّمني جواز السفر. أخذته وفتحته: إنّه بالفعل لي.

لقد حُلّت مشكلة جواز السفر.

رجعت أنا وجون لينون إلى الفناء وشكرته، وحرصت كل الحرص على ألّا أبدي أيّ شكوك عن كلامه حول مون شيري بالكحول. ثم دخلت إلى مقصورة تفتيش النساء.

«أخيراً! حصلتُ على جواز سفري»، قلتُ.

«متى ستسافرين؟»

«بعد غد».

«نصيحة مني: اذهبي ولا تعودي»، قالت المفتشة التي بدأت أتعرّف عليها، ثمّ نهضت وراحت تقرأ في أذني الدعاء المخصص للمسافرين: «هو خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين».

قبّلتها هي وزميلتها، وغادرت مكتب جوازات السفر المركزي والدموع تترقرق في عيني. كان الشعور بالانتصار يغمرني: فمن خلال اتصالاتي ومعارفي تمكنت من اختصار فترة الانتظار ثلاثة أسابيع. قلت لنفسي إنه أصبح بإمكاني أن أنجز أيّ شيء، أغيّر قماش الكراسي، ولا أركب سيارة أجرة مع سائق لا يتوانى عن تقديم النصائح لي، وأستردّ أرضي المصادرة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عرضت على جون لينون أن أوصله بالسيارة فوافق. توجهنا إلى التاكسي معاً.

«هل أنتِ أسد أم ثعلب؟ هل ربحتِ أم خسرتِ؟» سأل السائق.

«لقد انتهى الأمر».

«لذلك يقول حافظ: *النعمة الربانية تمارس قوّتها، ملاك الرسول يجلب أخباراً سارة*».

هبط ضغط دمي فجأة، ولمت نفسي لأنني لم أحضر شوكولاتة أو فاكهة مجفّفة. أعطى جون لينون السائق عنوان جمعية المسارح قبل أن يلتفت إليّ ويسألني فجأة، «كيف حال بيتر؟»

«بيتر؟»

«نعم، بيتر بروك».

قلت له إنه على ما يرام وأنا أسعى جاهدة للعثور على صلة تربط بين بيتر بروك وجون لينون.

«وولسون؟ وستوكهاوسن؟ وميرس كنينغهام؟»

«جميعهم بخير، على حد علمي».

«نهال خانم، هل تعرفين كيف أعرفهم كلهم؟ لأنني كنت مسؤولاً عن الأمور الإدارية أثناء مهرجان شيراز. ومن هنا فقد تعرفت عليهم جميعاً».

إن الفترة التي يتحدث عنها استمرت حوالي عشر سنوات، من عام ١٩٦٦ حتى عام ١٩٧٦ فقد كان يقام في شيراز مهرجان سنوي كبير للفنون، وكانت أمّي التي كانت مسرحيّاتها تعرض هناك تأخذني معها كلما استطاعت. كنت آنذاك في حوالي الثانية عشرة من عمري، وهناك اكتشفت مع بعض صديقاتي المقربات أنواعاً مختلفة من المسرح، كاثاكالي، و نو، وقوالي، والموسيقى الكهربائية السمعية،

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

والمسرح «الفقير»، والرقص المعاصر، وغروتوسكي، وكانتور، وترايا ما.

وعندما انتقلت إلى باريس، أحسست أنّني كنت قد رأيت كلّ شيء، وكانت فرنسا آنذاك تكتشف بوب ويلسون، بينما كانت الفتاة الإيرانية، التي هي أنا، قد شاهدت ساعات كثيرة من إنتاجه «جبل كا» و «شرفة غردينيا» (التي استمر عرضهما طوال سبعة أيام وسبع ليالٍ)، وأنا جالسة متلفعة بشال أمّي في هافت تان في شيراز.

كانت السنوات العشر التي تحدّث عنها جون لينون تشكل العصر الذهبي في حياتي، الزمن الذي كان يسير فيه كلّ شيء على ما يرام، عندما كانت الأرض في إقليم مازانداران لا تزال أرضنا، وعندما كانت أمّي تكتب وترسم وتغني، وعندما كان أبي يعمل على إنهاء فهرس الأعمال الأدبية في القرن التاسع، وكانت خالتي وزوجها أثناء ذلك يجوبان طهران ذات الثلاثة ملايين نسمة في سيارة بيضاء من طراز ثيندربيرد، وعندما كانت تعاد جثامين الذين يموتون خارج الوطن لدفنهم في تراب وطنهم، عندما لم تكن الثورة قد قامت.

«في واقع الأمر، بعد أن عرفتك أكثر قليلاً الآن، أستطيع أن أعبّر لك عن مدى أسفي لوفاة أمّك».

هذا كثير. ظننت أنني سأنفجر.

«عندما قلت لزملائي في المكتب بأنني سأراك اليوم، جميعهم - كباراً وصغاراً - أرسلوا لك تحياتهم. وهم يرغبون في أن تأتي لاحتساء الشاي معهم».

وصلنا الآن أمام الباب الرئيسي لجمعية المسارح.

«*بعدان*، *بعدان*. لم يعد هناك شيء يجعلني أبقى في إيران لحظة أخرى. شكراً، سأغادر بعد غد، ولم أنهِ كل شيء بعد».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أخذ يدي وأبقاها في يده للحظات طويلة.

ثم قال: «أرجو أن تبلغي تحياتي لكلّ المخرجين القدامى، وقولي لهم إننا لم ننسَهم، وقولي لهم إننا ندين لهم بالشيء الكثير».

ترجّل من السيارة ورحت أراقبه وهو يسير مبتعداً. التفت مرة أخرى ولوّح لي بيده، ثمّ اختفى ولم أعد أراه. استشهد السائق الذي سمع كلّ شيء ببيت شعر آخر من حافظ: «*سينتهي وقت الحزن، لقد انتهى هذا، وسينتهي هذا أيضاً*».

أوصلني سائق سيارة الأجرة إلى بيت خالتي، واندلعت بيني وبينه حرب المجاملات (التاروف). استسلم أخيراً ودفعت له الأجرة، لكن ليس من دون تدخّل حافظ: «*أدعو الله أن تبقى معي ذكرى الشخص، عندما يحين موعد السفر، الذي لم يذكرني ولم يفرح قلبي بوداعه*».

صعدت إلى البيت، وما إن انتهيت من معانقة جميع النساء في عائلة موهتارام وسلّمت على جميع الرجال، ركضت نحو زوج خالتي لأريه جواز سفري. وضع نظارته، وقرأ أدقّ التفاصيل، وقلّبه صفحة صفحة، ثم قال أخيراً: «لقد قلت لكم جميعاً أنه لن تكون هناك مشكلة. قبل أن تقدمي على عمل أيّ شيء، كلّ ما عليك أن تفعليه هو أن تدرسي الثقيل والخفيف، الفوائد والمضار، ثم تشرعي في العمل بذكاء».

لا أعرف إن كنت قد درست الثقيل والخفيف بالفعل، وفي ما يتعلق بهذه المسألة، لا أعرف إن كنت قد درستُ أي جزء منها بذكاء، لكنْ. هناك شيء واحد جلي للغاية وهو أن جواز سفري قد أصبح معي الآن.

«هل هذا يعني أنك ستسافرين غداً؟» دمدمت خالتي بحزن.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

صاحت كيارا التي علّمها حميد الصلاة: «هل سنعود إلى بيتنا في باريس؟ هل سنرى قططي؟»

«ألا يمكنك البقاء يوماً آخر؟» سألتني خالتي. ذكّرتني بأمّي التي كانت تطلب مني دائماً قبل سفري بيوم أن أمكث أربعاً وعشرين ساعة أخرى، وكنت أفعل ذلك باستمرار. حتى كانت هي من غادرت أولاً

«لا، لا، أريد أن أعود إلى البيت لرؤية بابا»، ردّت ابنتي.

اتصلت بزوجي وبنرجس لأزف لهما الخبر السعيد. بدا زوجي راضياً أخيراً، مع أنه ظل يردد أنه لن يفهم هذا البلد أبداً.

«من الناحية الفعلية، انتهى كل شيء الآن، كم يجب أن أعطي داريوش؟» سألتُ نرجس.

«لا شيء، لا تعطه شيئاً. فلولا الرجل من جمعية المسارح لظل جواز سفرك في مكتب جوازات السفر في يافت أباد».

«ألا يمكنني أن أشكره؟ لقد بذل كل ما بوسعه».

«نعم، اتصلي بداريوش. حتى يوم البارحة، كنت أجثو على ركبتي لأقنعك بالاتصال به، وها أنت الآن تقترحين ذلك. إذا كنت تريدين ذلك فعلاً، فاتصلي بداريوش».

اتصلت به، لكنّه لم يجب. لم أحاول الاتصال به ثانية. نرجس محقّة، فأنا لديّ دائماً مشكلة مع المكالمات الهاتفية: فإذا اتصلت بأحد وكان خطه مشغولاً أو أنه لم يجب، فإني اعتبر أن محاولتي كافية، وأعتبر أنني أديت واجبي ونادراً ما كنت أعيد الكرة. وما أحبّ أن أفعله حقاً هو أن أترك رسالة للشخص الذي يكون خطه مشغولاً أو أنه غير موجود. عندها أعرف أنّني أديت واجبي، لذلك، لا حاجة لي بالاتصال به مرة أخرى.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أصبح جميع أفراد الأسرة الآن يعرفون مغامراتي في الدوائر الإدارية، وما هي إلا لحظات حتى أتاني إثبات على ذلك: اتصال آخر من ابنة عمتي التي تريد تجديد جواز سفرها.

«مبارك، أحسنتِ! كنت ذكية جداً».

«شكراً».

«بالمناسبة، لا يزال صديقك الدكتور لا يردّ على هاتفه. لقد حاولت معه ألف مرة - لا شيء. هل هو دكتور حقاً أم أنه يضع ربطة عنق فقط لينادوه الناس دكتور؟»

«إنه لا يضع ربطة عنق».

«هل رأيته مرة أخرى؟»

«نعم، لكنّه لم يكن هو الشخص الذي أنهى موضوع جواز سفري».

«من هو إذاً؟»

«شخص من جمعية المسارح».

«هل دفعتِ له شيئاً؟»

«لا».

«كيف لا؟ في هذا البلد إذا لم تدفعي شيئاً لا يمكن أن يحدث شيء».

كيف يمكنني أن أحكي لها عن إخلاص جون لينون؟ من أين أبدأ: من ليالي مهرجان شيراز حيث جلس رافي شانكار بجانب قبر حافظ وعزف على ضوء الشموع حتى الفجر، حيث ظهر، عند شروق الشمس، بعد ألفين وخمسمائة سنة من الصمت، صوت أفيستا القديم من كهوف بيرسيبوليس، وراح يحثّ جميع المخلوقات على أن تستيقظ؟

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«صحيح، ومع ذلك، فلم أدفع شيئاً».

«لقد جعلتني أهدر أسبوعاً كاملاً مع ذلك المدعو الدكتور. الآن، أرجو أن تتكرمي وتتصلي بهذا الرجل وأن تطلبي منه أن يساعدني، إلّا إذا كنتِ غير مستعدة لمساعدتي».

«آسفة. لا أظن أن هذا سيكون ممكناً».

«أوه حسناً، أتمنى لك رحلة موفقة إذن».

أغلقت الهاتف وأفسدت إحساسي بالنصر. أعربت لخالتي عن امتعاضي لأنها اتصلت من السطح للتحدث عن جواز سفري الجديد.

«لم أكن أنا، بل حميد»، قالت تدافع عن نفسها.

انتصب زوج خالتي في جلسته، وقال بحزم: «هيا، هل يخبرنا الآخرون من هم الأشخاص الذين يسيّرون لهم أمورهم».

ورفع أصبعين مثنيين إلى شفتيه ومررهما على طول فمه، وأضاف، «شفتاي مغلقتان».

«هذا صحيح، ما علينا إلا أن نضع طرف إصبعنا في أنوفنا حتى نعرف كلّ طهران»، قالت خالتي.

«يجب ألّا تضعي أصابعك في أنفك»، قاطعتها ابنتي.

جاءت نرجس لتأخذني لحضور افتتاحية معرض رسوم جثث بام. ودعت خالتي وزوجها وابنتي وكلّ عشيرة موهتارام.

«حاولي أن تمضي هذه الساعات القليلة الأخيرة معنا»، قالت خالتي بحزن.

خرجتُ والألم يعتصرني من تعليقات ابنة عمتي ومن تعليق خالتي. في المصعد أدركت أنني نسيت تماماً أن أجلب معي استمارة جواز سفر لسائق سيارة الأجرة، وتذكّرت أيضاً شرودي، وإعطاء المفتشتين هدية لن تتمكنا من استعمالها أبداً. ولم أنس إهمالي في

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

نسيان تقرير السوق حول استيراد أديداس إلى إيران. ولم أفِ بوعدي لمكافأة الشرطي في مكتب الجوازات في يافت أباد بتقديم مروحة له، و...

«هيا، دعينا نرى جواز السفر هذا»، قالت نرجس، ونظفت المقعد وأزاحت قفل السيارة لحمايتها من السرقة ومن بعض التنانير المغلّفة بغطاء بلاستيكي جلبتها من محل التنظيف. صعدت إلى السيارة وأريتها الغنيمة التي غنمتها أخيراً. نظرت إلى صورتي وبدت عليها علامات الرضا.

«عدت أخيراً إلى محل الموسيقى وبدّلت مجموعة ديلكاش الموجودة في علبة، واشتريت هذه أيضاً. اسمعي».

وضعت قرص سي دي وانطلق فريدون فوروغي في الغناء، المطرب الذي أحببته في مراهقتي. بلمح البصر عدت إلى الرابعة عشرة من العمر، ورأيت نفسي في غرفة الجلوس في بيت صديق لي، الأضواء في الخارج مضاءة وأنا بين ذراعي صديقي. كانت لحيته (التي كانت كثيفة بالنسبة لعمره) تخدش عنقي وهو يغنّي هذين الشطرين: «جسدك يشبه شمس الصيف عند الظهيرة»، وتنبعث من أنفاسه رائحة الفودكا. كانت يداي تغوصان في شعره، وكانت يداه تغوصان داخل ثيابي. كان من أجمل الفتيان في المدرسة - المدرسة الفرنسية في طهران، إحدى المدارس المختلطة القليلة. كان ثورياً، على نمط تشي غيفارا. في المدرسة، كان يلبس سترة عسكرية ذات قلنسوة مثل غيفارا، مثاله ومعبوده، حتى في أثناء العطلة الصيفية، بل حتى تحت حرارة صيف طهران اللاهبة. وكانت جميع الفتيات، حتى اللاتي كنّ في الصفوف العليا، يتوددن إليه ويتقربن منه. وفي الفصل الدراسي، كان يتنازل للإجابة عن سؤال المدرّس وهو يمسك سيجارة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

حشيش بين إصبعيه، لإثارة اهتمام المدرّس، وكان يتجاوز بسهولة الإجابة الواردة في الكتاب الدراسي الذي كان قد حفظه في الليلة الماضية. وكان يضع في جيوب سترته العسكرية دائماً، بالإضافة إلى أعقاب السجائر، روايتين. وكان يجلس دائماً في المقعد الخلفي في الصف بجانب طالب بليد، مفتول العضلات، يكرر السنة نفسها للمرّة الثالثة. ولم يكن صديقي يحمل كتباً مدرسية أو دفاتر أو قلماً، وكان يأتي إلى المدرسة كما يذهب آخرون إلى المقهى، ويجلس ويدفن نفسه في كتبه بينما يغطي المدرّس السبورة بعصبية بالمعادلات الحسابية. وإذا أزعجه المدرّس وسأله سؤالاً، كان يتوجه بلا مبالاة إلى السبورة، وبدون اكتراث يكمل ما كان يشرحه معلم الرياضيات.

في هذه الأثناء، كان يتاح للفتيات وقت لتدوين عنوان الكتاب الذي يقرؤه، وفي فترة الاستراحة في اليوم التالي، يتناثرن منفردات - على مقعد، على العشب في الحديقة الكبيرة، أو على الدرج - ليتمكنّ من قراءة كتاب معبودهن المختار وحدهن، دون مشاركة أحد. أمضينا وقتاً معاً طوال سنة. كانت أمّه قد ماتت وهو في الثالثة عشرة ونصف من عمره، ومات أبي بعد ستّة أشهر. ومن حزننا أقمنا علاقة بيننا.

«ياواش، يا واش، تمهل، تمهل، دعني أمرّ»، صاحت نرجس في سائق آخر. ثمّ مسّدت بيديها مقود سيارتها البيجو ٦٠٧ (الإيرانية الصنع) وأضافت «لقد غيّرت هذه السيارة حياتي كلها. فعندما أعلق في زحمة المرور أشغّل تكييف الهواء وأستمع إلى الموسيقى وأنقطع عن العالم الخارجي. إن التفكير بأنني قدت سيارة أبي التويوتا القديمة طوال ثلاثين سنة، والنوافذ مفتوحة، وأنا استنشق أطناناً من ثاني أكسيد الكاربون والعرق ينهمر مني! يا له من هدر للوقت».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تركت ذراعي صديقي التائهتين. دسّ قصاصة ورق بين نهدي اللذين يخيّل إليهما أنهما تبرعما وكبرا في يديه (كان يعرفني قبل وخلال وبعد نموهما). سحبتها وقرأت: «أنتِ أحلامي وكوابيسي أيضاً».

ركنت نرجس سيارتها خارج المعرض وثبتت قفل السيارة على المقود. الجميع يستخدمون الأقفال، لكن القفل الذي تستخدمه نرجس صغير جداً لا يكاد يظهر. رأيت سائقين يمضون خمس عشرة دقيقة في تثبيت القفل على المقود وعلى عصا تغيير السرعة ودواسة المكابح، ثم فحص جرس الإنذار ونظام تجميد الحركة.

كان المعرض يعجّ بالناس فلم نتمكن من الدخول. تناهى إلينا من الداخل صوت سيغالا يرافقه بيانو بيبو -عازف بيانو كوبي ونجم الأغنية الأندلسية الصاعد. إني مندهشة من نجاحهما الفوري في عالم أمريكا اللاتينية وإيران.

«نعم، لكن بسبب السي دي الذي أعطيتني إياه»، قالت نرجس، «كان يأتي بعض الأصدقاء إلى شقّتي وينسخون منه نسخة، وبعد أسبوع كانت طهران كلها تقسم باسم بيبو وسيغالا».

رأيت صديقي دافار يسير نحونا. ولأننا في مكان عام، لم يقبّل أحدنا الآخر.

«هل تقدمتَ بالترجمة؟» سألته سؤالي المعهود.

«لقد علقت في جملة:

"*Nous sommes les propres juges, les bourraux d'une justice qui regne ici-bas*"

دنا منا شابّان شعرهما قصير، ووجههما نحيفان، يضعان نظارات بعدسات سميكة. ألقيا التحية على دافار وذكّراه بأنّهما التقيا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

به في معرض للكتب. تظاهر دافار بأنه عرفهما وقدّمني إليهما. عندما سمعا أنني أعيش في باريس قالا بصوت واحد تقريباً: «إلى أيّ مدى تقولين إن فوكو وديليوز كانا يرتبطان بالجنون؟»

ماذا أقول لهما. فلم أقرأ فوكو ولا ديليوز، أو بالكاد؟

ثم تابعا، «السيد مالك، كيف تترجم كلمة "*rhizome*" المأخوذة من مفردات ديليوز إلى اللغة الفارسية؟»

«في علم النبات *rhizome* هو ساق أرضية»، أجاب دافار، «كما هو حال الخيزران».

ابتعدتُ، لتفادي الدخول في حديث قد ألحق فيه العار لفرنسا. وقفت على أطراف أصابعي لأرى ماذا يحدث في الداخل: كان هناك أناس كثيرون ويبدو أن الدخول لمشاهدة اللوحات من ضرب المستحيل. كالعادة، كانت نرجس محاطة بالأصدقاء والفنانين وجامعي اللوحات. اقترح عليّ مصمّم الديكور الذي يرتدي بنطالاً جلدياً، ويضع على عينيه نظارات ملونة، وينتعل حذاء نايكي رياضي برتقالي اللون بأن أشتري إحدى لوحات الرسّام - يدا امرأة ميتة متصلبتان بارزتان من الأرض -لأعلّقها على جدار الصالة في بيتي، فقلت له إني سأفكر بالموضوع.

فقال: «إنكما كاتبان، أنتِ وزوجك. سيكون من المثير حقاً أن يزوركما أحد في بيتكما ويرى يدين».

«نعم، لكنّهما يدا امرأة ميتة».

«بالرغم من ذلك، سيكون الأمر مثيراً. هاتان اليدان ممدودتان إلى الأعلى، إنها لوحة مؤثرة».

«هل أنت كاتبة؟» سألتني شابّة - ذات أنف لم تجر له عملية تجميل.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«نعم».

«ما اسمك؟»

«نهال تجدّد».

«لم أقرأ أيّ شيء لك».

«أكتب باللغة الفرنسية».

«بالفرنسية؟»

«نعم، فأنا أقيم هناك».

«هل تظنين أن وودي ألان كان مخلصاً لأفكار دريدا في كتابه *تفكيك هاري*؟»

أين هبطت؟ لعلي يجب أن أختبئ وراء سيارة نرجس لكي لا يدفعني أحد إلى الاعتراف بأنني لم أقرأ دريدا وأنني لم أر قط كتاب *تفكيك هاري*.

تناهى إلينا خبر بيع جميع اللوحات. أصبح بإمكان المخلوق الخفي الذي يحرّك صوتي الداخلي أن يتنفّس الصعداء الآن. فقد تمكنا من التهرب من شراء لوحة تستند إلى يديِ امرأة مكسوتين بالطين كانت قد فقدت حياتها في بارن.

عاد دافار مع الشابين.

«إننا صحارى»، اقتبس أحدهم، «لكنها مأهولة بالقبائل والحيوانات والنباتات. وكلّ هؤلاء السكان، كلّ تلك الحشود، لا يمكنها أن تفعل شيئاً لإيقاف الصحراء التي هي زهدنا وتقشفنا».

عرفتهما على الفتاة المتخصّصة في «التفكيك»، وأضافت، «إن عملية التفكيك تفترض ألّا تحرّر نفسها من أي شيء مهما جعلته واضحاً: إنها تعمل مع المفاهيم الموجودة، وتلعب عليها، لذلك فإن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كلًّا منها يعمل ضد الآخر، تسعى جاهدة إلى تحريك المتناقضات بدون إبعادها».

أردت أن يسألوني عن برنار هنري ليفي وأريل دومباسل، لكن عبثاً. حمي وطيس المناقشة الدائرة بين الرجلين ذوي النظارات وبين الفتاة ذات الأنف الذي لم تجر له عملية تجميل. بالرغم من ذلك، سألتهم ماذا يفعلون.

«طلاب في كلية الزراعة»، أجاب الشابان اللذان يضعان نظارات.

«أنا محامية»، قالت المرأة.

كان يجب أن أقول إنني كاتبة فرنسية.

«يجب أن تجربي هذا العصير»، قال صديق مصمم الديكور الداخلي وهو يحمل بيده كأس عصير الفاكهة الغريب.

«لقد جربته من قبل»، قلت، وتذكّرت داريوش وجون لينون.

«هل تعرفين أن إيران تصدّره؟»

«أعرف. لكن ما لا تعرفه هو أن مون شيري التي فيها مشروبات كحولية تصنع هنا»، وأضاف، «هذا لا يفاجئني. كلّ شيء ممكن هنا. كنت مخطئة لأنك لم تشتر أيّ شيء».

فقلت له: «لكنّي لم أتمكن من الدخول!»

«كانت ستبدو هاتان اليدان مدهشتين في مدخل بيتك! يمكنني أن أتصوّر ذلك».

«لكنها لا تزال يدَي امرأة ميتة»، قلت.

«الكائنات الحية هي التي تموت، لا الحياة»، قال أحد الشابين.

الإثنين

ثاني آخر صباح أستيقظ فيه في طهران. حاولت أن أحزم حقيبتي قبل البدء بطقوس *خودا حافظي*، أي طقوس الوداع. وللقيام بذلك، كان عليّ أن أتصل بجميع من التقيت بهم خلال فترة إقامتي هذه. وإذا نسيت أحداً فإني أجازف بأن أعرّض نفسي لاحتقارهم وكراهيتهم لي إذا صادفت أحداً منهم في الشارع طوال السنة. إذ إنهم سيعرضون عني وسيتحاشون رؤيتي. لذلك، قررت أن لا أودعهم بالهاتف، وبدت مسألة *خودا حافظي* برمتها جدّية بالنسبة لي أكثر من الجهد الذي بذلته للحصول على جواز سفري. لكن يستحيل عدم القيام بذلك.

بدأتُ بالمصورين الاثنين. فعندما وجدت مراد، شكرته هو وزميله حسن على الجهود التي بذلاها من أجلي، واغتنمت الفرصة لأخبرهما بالخاتمة السعيدة لقصة جواز سفري، ثم أخبرتهما بأنني سأسافر.

«بهذه السرعة؟ لكن هذا غير ممكن! حتى أنني لم ألتقط صورة لكيارا».

«بعدان، بعدان. سأعود بعد ثلاثة أشهر»، قلت لهما مع أنني أعرف بأنّني لن أعود قبل سنة، «سأكون ممتنة كثيراً لو نقلتم جزيل شكري للدكتور أسكارنيا لأنني بدونه لما كنت سأتمكّن من السفر غداً. لقد اتصلت به لكنه لم يردّ».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لم يقم إلّا بواجبه»، أجاب مراد.

من المؤكد أن واجبه لم يكن يتضمّن أن يمضي يوماً كاملاً معي في مكتب جوازات السفر في يافت أباد، وأن يلغي محاضرته في كلية الحقوق، وأن يتوسط لصالحي لدى عقيد يمرّ في فترة حداد بينما كان هو نفسه يقوم بتشريح جثة ابن عم العقيد، ثم يعود إلى مكتب جوازات السفر المركزي حزيناً محبطاً، ويقدّم لي عصير فاكهة وفطيرة بالقشطة.

«نهال خانم، لقد حطمتِ قلبي بخبر سفرك المفاجئ. لن ندعك تذهبين دون أن نأتي لتوديعك. امنحينا خمس دقائق عصر اليوم».

أردت أن أقول لا، وأن أجد عذراً علّهم يغيّرون رأيهم. فمن الممكن أن أقول مثلاً إن صديقة فرنسية قد وصلت إلى طهران منذ بضعة أيام ويجب أن أريها معالم المدينة اليوم، على الرغم من ذلك أن وصولها يصادف قبل سفري بيوم. إن القول إنك يجب أن تقوم بجولة مع زائرة أجنبية لتريها المدينة عذر مقبول، ولا يمكن لأحد أن يعرّض شرف البلد وكرمه الأسطوري للخطر. لكني هذه المرة تجاوزت صوتي الداخلي الذي لم يقل شيئاً ولم يعترض على زيارة مراد وحسن.

«تفضلا في أي وقت تحبان. سأكون في البيت عصر اليوم»، قلت ذلك بدلاً من أن أقول «بحق الله لا تأتيا - فلم يعد هناك شيء يمكن أن نقوله».

«سنأتي لزيارتك عصر اليوم، بكل تأكيد».

«وماذا بشأن الأستديو؟» سألتهما لعلي أثنيهما عن قرارهما، «من المؤكد أنكما لا تستطيعان إغلاق الأستوديو؟»

«سأطلب من أخي أن يأتي ويدير أموره خلال هذه الفترة، لا تقلقي».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تذكّرت، بحسب وصف داريوش، أن شقيقه نسخة طبق الأصل عن ألان ديلون، فتخيّلت روكو شخصياً وهو واقف وراء المنضدة في أستوديو إكباتانا.

«إذاً سأراكما عصر اليوم».

أغلقت الهاتف وصببت لنفسي فنجان قهوة، ثمّ انتظرت بضع دقائق لأقوم بواجبي الثاني: اتصلت بمدير جمعية المسارح ومحرّك الدمى اللذين عرضا مساعدتي لرؤية البيت في سرمه، وودعتهما ووعدتهما بأنني سأراهما في مونبيلية. ملأت فنجان قهوتي، واستجمعت ما تبقى لديّ من شجاعة، واتصلت بابنة عمتي الساخطة، المهانة. سمعت صوت تسجيل الرسائل باللغة الإنكليزية، فتركت لها رسالة ودَعتها فيها. أعرف أنه يجب أن أتّصل بها لاحقاً وأخبرها شخصياً بأنّني مسافرة. وأخيراً، اتصلت بنرجس ودافار -لم يكن ذلك عملاً روتينياً - حاشى لله. سيأتيان هما أيضاً عصر اليوم.

بدأت أحزم حقائبي، وكان فكري مشغولاً بإيجاد مكان أخبئ فيه علب الكافيار. أفكّر بأن أضعها في جوارب رياضة ثمّ أدسّها في حذاء رياضي، لكنّي أعرف أنه يمكن اكتشافها أثناء تفتيش الحقائب، إلا أنني بالرغم من ذلك، جازفت.

تناولت طعام الغداء مع موهتارام وهاشم وكيارا. كان الزوجان مسرورين لأنهما سيرافقاننا إلى المطار في وقت باكر من صباح الغد. بعد شهر من العمل، بدا هاشم مفيداً أخيراً. كانت موهتارام التي تحبّ الذهاب إلى المطار، تكوي معطفها المفضّل، المعطف الموشّى بفراشة زاهية الألوان. كانت تحبّ ارتداءه كثيراً وتقول لكل من تراه إنه هدية من نهال خانم اشترته من باريس. لم تكن تعرف أنني اشتريته من محلات تاتي التي تبيع سلعاً بأسعار رخيصة، وربما كان قد صنع في الهند.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أخذت قيلولة طويلة قبل أن أستيقظ وأتناول قليلاً من الفاكهة، كما كانت تفعل أمّي. أدركت أنه كلما تقدم بي العمر، أصبحت أقلدها في كلّ ما كانت تفعله: قيلولة وبعدها تناول فاكهة.

رنّ جرس الهاتف المرئي. ردّت موهتارام وقالت إن إسكندري يريد أن يأتي. رتّبت شعري، ووضعت مسحة من العطر وانتظرت في غرفة الجلوس. جاء يحمل علبة حلوى اللوز، الحلوى الكردية المميزة. فتحتها وتناولت منها قطعة على الفور. كان يهمّ بالمغادرة عندما أخبرنا مساعده بالهاتف المرئي بأن مصوريْ أستوديو إكباتانا ينتظران في الأسفل عند مدخل البناية. أذن السيد إسكندري بنفسه لهما بالصعود، ثمّ عاد إلى غرفة الجلوس وطلب مني، مرة أخرى، بصوت شديد اللطف بأن أكلّمهما ليبحثا عن ابنه المختفي في السويد. وعدته بأنني سأفعل ذلك.

فتح هاشم الباب لهما، لأن قدوم ثلاثة رجال غير مُحرمين يتطلّب وجوده. وبدا أن هذا الرجل الضئيل الحجم الذي يشبه رأسه رأس كلب شيواوا الصغير الحجم، مستعد لتحدّيهم ومواجهتهم في أيّ لحظة، لأنه يعتبر نفسه المسؤول على حراستي ورعايتي.

ولتفادي احتمال أن يقبلا عرضي بأن أقدم لهما القهوة، هرعت موهتارام إلى غرفة الجلوس وأجهضت تلك المحاولة وقالت إن الشاي سيكون جاهزاً في أيّ لحظة. وعلى الفور رأيت أمارات الإحباط ترتسم على وجهي الزائرين الجديدين: يجب أن يشربا الشاي، كما في أي مكان آخر، لكني طلبت من موهتارام بحزم أن تصنع قهوة.

لم أكد أصدر أمري هذا، حتى راح مراد يمرر أصابعه خلال شعره، وعدّل حسن السلسلة الذهبية حول رقبته. اعتبرت هذه الإشارات دليلاً على شعورهما بالرضا، حتى أنهما قبّلا السيد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إسكندري الجالس على أحد الكراسي التي نجّدتها زوجتا المصورين، وقالا: بعد إذنك.

جلس المصوران أيضاً. فاحت رائحة القهوة الفرنسية الأخّاذة في الشقّة عندما قدّمها هاشم مع حلوى اللوز.

«متى ستذهبان إلى السويد إن شاء الله؟» سألهما السيد إسكندري.

جرع مراد رشفة حارة من القهوة، وأجاب، «في الحقيقة، إن لم نكن نثقل على نهال خانم، فإننا نحتاج الآن إلى شهادة إقامة من السلطات الفرنسية».

تدخّل هاشم الذي لم يكن يريد أن أقدّم أي خدمات لأحد إذا لم يكن ينتمي إلى أسرته، وقال بسرعة: «عند نهال خانم أشغال كثيرة. فعندما تصل إلى باريس يجب أن تركز على عملها وعلى المؤتمرات التي تديرها والتي يحضرها مئات الأشخاص».

لا أعرف من أين أتى بكل ذلك - للأسف - فهي معلومة خاطئة.

وأضاف قائلاً وهو لا يزال واقفاً: «وأتساءل أحياناً لماذا يستغلّ الناس شدة لطفها».

«لا، حقاً»، قلت في النهاية لتفادي إهانة المصورين، «سأحصل لكما على شهادة إقامة بكل سرور».

تصوّرت على الفور أنني أهدر وقتي مرتين، مرة لشراء طابع مالي من مكاتب المالية في شارع سان لازار، ومرة للتجادل مع موظفة مجلس البلدية بالدائرة التاسعة. وتخيّلت نفسي وأنا أحاول أن أشرح لها بأنّني لا أستطيع أن أقدم الإيصالات الثلاثة اللازمة لأن زوجي كاتب ولا يحصل إلّا على ريع حقوق المؤلف. لا تتزحزح الموظفة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عن موقفها عندما أريها إشعار ضريبة بمبلغ كبير، وأقول لها إنه لا يمكن لشخص عاطل عن العمل أن يدفع كل هذا المبلغ كضرائب. لكن عبثاً. لم تستسلم الموظفة، بل أنني أريها كشوف الحسابات المصرفية وفواتير كهرباء وصكوك ملكية بيتنا، لكن بدون جدوى. حددت لها مساحة بيتنا بدقة: ومع ذلك لم تتزحزح. ثم لم تعد المرأة تنظر إليّ، ونادت الشخص الواقف ورائي في الطابور. تطلعت حولي لعلي أرى، بالقرب من المصاعد، داريوش، أو حتى جون لينون الذي يحمل طنجرة الضغط تحت ذراعه. لكن كلّ ما رأيته هو امرأتان جاءتا للاستعلام عن دار حضانة، أو لطلب علاوة أو لأي شيء آخر. أردت أن أعطي هذه الموظفة قائمة بجميع الأشخاص المشهورين الذين أعرفهم، وأقول لها إنني تناولت العشاء مع رئيس البلدية نفسه الليلة الماضية. .لكنّي لم أفعل ذلك، بل لملمت أوراقي وعدت إلى البيت لأفكّر بوسيلة أخرى أحصل فيها على شهادة الإقامة تلك. هذا ما يمكنني أن أتطلّع إليه، إني متيقنة من ذلك.

بعد قليل من التفكّير، أدرك هاشم أن استصدار شهادة إقامة للمصورين لن يعيق جهودي المتواصلة لتدليل أطفاله. وبنبرة افتخار في صوته، قال: «في جميع الأحوال، بفضل مكانة السيدة في الخارج، فإن ذلك لن يستغرق منها أكثر من دقيقتين».

لا أطلق العنان لنفسي للتفكير بالوقت الذي سأهدره.

فُتح الباب فجأة، ودخلت خالتي بصحبة الدكتور بشيري. فهي ليست بحاجة إلى الاتصال بي مسبقاً لزيارتي. نهض الجميع واقفين ورحت أقدّم أحدهم للآخر.

«لدى هذان السيدان أستوديو إكباتانا»، قلت مشيرة إلى مراد وحسن.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«نهال خانم»، صرخ الدكتور بشيري، كاشفاً عن أسنانه البيضاء، «هل تستخدموننا هنا لتصوير فيلم أم ماذا؟ نعم، إنكِ تجعلوننا نؤدي أدواراً! أنت التي تعرفين شخصياً محترفين في هذا المجال، تأتين وتسألينني عن سعر صور الهوية؟»

رمق مراد وحسن أحدهما الآخر، وبدا أنهما يقيسان مدى شعوري بالإحراج بينما كنت أحاول أن أحسب المبلغ الذي ينبغي أن أسدده لهما.

أزاح مراد خصلة شعره بنقرة واحدة بيده، وقال: «لا أعرف ما هو السعر الحالي. لكن في أستوديو إكباتانا فهو مجّاناً للمدام».

«مراد آغا»، انضمت خالتي إلى الجوقة، «هل يمكنك أن تأتي إلى بيتنا وتأخذ صوراً لزوجي؟»

«الرجل المحترم غير قادر على المشي»، قال هاشم.

«زوجي لا يستطيع أن يمشي مؤقتاً»، قالت خالتي تصحح ما قاله، وهي لا تزال على قناعة بأن هذا الفرق الدقيق سيزيل عجزه الدائم.

«من أجل خاطر نهال خانم، فإننا نذهب إلى أعماق جهنم»، قال مراد.

أغمض حسن عينيه: فهو سعيد للقيام برحلة كهذه.

«إن شاء الله لن تذهب إلى جهنم» قال السيد إسكندري، «لكن عندما تصل إلى السويد، أرجو أن لا تنسى ابني».

«السيد إسكندري، أنا متأكّدة من أن مراد آغا وحسن آغا سيبذلان كل ما بوسعهما للبحث عن ابنك»، قلت للمصورين بابتسامة، فهزا رأسيهما موافقين.

«سيد إسكندري»، تابع مراد، «الحبيب إسكندري، لا يزال

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أمامنا مشوار طويل للوصول إلى السويد. لكن ما إن ترسل لنا السيدة شهادة الإقامة. . .»

«أوه، لا تبدأ بالضغط على السيدة»، صاح هاشم الذي برز للتو حاملاً صينية أخرى من القهوة وحلوى اللوز. وفي الوقت نفسه، أخرج الدكتور بشيري من جيبه كتيباً وأعطاه لي.

«لا تنسي هذا! يجب أن تضيفيه إلى بحث تحليل السوق الذي أعطيتك إياه منذ بضعة أيام. إنه للشخص نفسه». من باب الاحتياط، أو الحذر، لم يذكر الدكتور اسم جيرار ديباردیو. من يستطيع أن يعرف إلى أين سيقودنا هذا الحديث؟

تناولت الوثيقة وتصفحتها لأريح ضميري.

«ممتاز. إنها مكتوبة باللغة الإنكليزية».

«نعم، لقد أمضيت عطلة نهاية الأسبوع كلها وأنا أعمل عليها. لقد أرسلت زوجتي وابني إلى بيت أهلي، وأغلقت هاتفي الخليوي، ووضعت ثلاثة أو أربعة قواميس على منضدتي، حتى أنهيت هذا الملف».

من المستحيل أن أعترف له بأنني لا أعرف أين أضعت الوثيقة الأصلية، بالرغم من إصراره الشديد على السرية التامة لهذا العمل.

«إني على يقين من أنه سينجح، قلبي يقول لي ذلك»، قال الدكتور بشيري.

«بعون الله»، أضاف أحدهم، وهو لا يعرف عمّا نتحدّث.

أضافت خالتي التي لا تزال تتمنّى أن ترى جميع أفراد أسرة موهتارام ينتعلون أحذية أديداس، «وإذا نجح ذلك، فسيكون باستطاعة مراد آغا وحسن آغا أن يفتحا محلاً لبيع الأدوات الرياضية في استكهولم».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«هل تعمل في مجال الأدوات الرياضية؟» سأل مراد الدكتور بشيري.

«لا، لا يوجد بعض الالتباس هنا. فأنا لن أمارس عملاً خارج نطاق تخصصي. فأنا اختصاصي في العلاج الطبيعي وسأموت وأنا اختصاصي في العلاج الطبيعي»، أجاب الدكتور بشيء من الفظاظة، لأنه ربما كان يخشى أن يسرق أحدهم فكرته الثمينة: وهي إدخال بضائع أديداس إلى إيران.

«في جميع الأحوال، يمكنني أن أطمئنك بأنك تستطيع الاعتماد على نهال خانم»، قال مراد.

رنَّ الهاتف ثانية وجاءت موهتارام تحمل السماعة. إنها ابنة عمتي التي تحاول تجديد جواز سفرها.

«ألا تزالين لا تريدين أن تطلبي من ذلك الرجل من جمعية المسارح أن يساعدني؟» قالت بانزعاج ظاهر.

«لكنّه مجرد موظف! عليه أن ينفذ ما يطلبه منه رؤساؤه! لا أعرف كيف يمكنني أن أطلب منه أن يفعل ذلك».

«ليس بالأمر الصعب: كما فعلت ذلك لنفسك، إلا إذا كنت لا تريدين أن تساعديننني. في هذه الحالة، قولي لي ذلك بصريح العبارة».

ظلت موهتارام واقفة في غرفة الجلوس تنتظر لتعيد الهاتف، ثم أشارت نحوي وقالت: «لن يمنحوها لحظة هدوء واحدة. ستسافر غداً ولا يزال الناس يطلبون منها أن تساعدهم حتى آخر دقيقة؟»

«ودكتورك غير المعروف الخفي»، واصلت ابنة عمتي، «ألا يمكنك أن تبذلي جهداً قليلاً حتى أتواصل معه؟ أن تكلميه بنفسك؟»

من الواضح أنها مقتنعة بأنّني أعطيتها رقماً غير صحيح.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فقلت لها: «في الحقيقة، أنا جالسة أنظر إلى أحد أصدقاء الدكتور أسكارنيا. خذي وكلّمي مراد آغا. تستطيعين أن تخبريه بكل ما تريدين».

تناول مراد الهاتف وخلل يده في شعره (بعض الأشياء لا يمكن أن تتغيّر).

ثم قال: «أنا في خدمتك. كيف يمكنني أن أساعدك؟»

أريد أن تتحقق رغبات ابنة عمتي بسرعة. أنصت مراد للحظة ثمّ أخرج هاتفه وأعطاها رقماً يبدو أنه رقم داريوش.

«قولي له إن مراد هو الذي أعطاك رقمه، لا، إن ما أقوله هو أن تخبريه أنها نهال خانم نفسها واشرحي له حالتك»، ثمّ وضع يده على السماعة، وقال: «إذا تصالح مع العقيد فلن يستغرق حلّ مشكلة ابنة عمتك أكثر من يوم واحد».

«إن شاء الله»! أضافت موهتارام، «على الأقل، ستترك بعدها المدام بسلام».

أتمنّى من كلّ قلبي أن تتضح نتائج تشريح جثة ابن عم العقيد، وأن تكون إيجابية... لكن ما علاقة الموت بكلّ هذا؟

استأذن مراد بتهذيب من ابنة عمتي وأعاد إليّ الهاتف.

«شكراً، شكراً جزيلاً لإعطائي الرقم الخطأ»، قالت بصوت مشحون بالاستياء.

«لكن رقمه تغيّر».

«لا أعرف مع أي نوع من البشر تمضين وقتك»، قالت بصوت مفعم بالسخرية، «لكن دكتوراً يغيّر رقمه خلال أسبوع يجعلني ارتاب في الأمر».

«ليس من الضروري أن تتصلي به».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«إذا لم يردّ هذا المساء، فسأبحث عن طريقة أخرى».

أوه، أحببت أن أقول لها إنه كان ينبغي لها أن تبحث عن طريقة أخرى منذ البداية! كيف يمكنني أن أشرح لها المعاناة التي مررت بها؟ وكلّ ذلك الإحراج والقلق الذي سأوفره عليها؟ لكنّي لم أنبس بحرف واحد.

تمنيت لها عملية موفقة وسهلة لتجديد جواز سفرها.

فجأة تذكّرتُ مجيد آغا، متعهد البناء الذي رأيته عند بوابة مكتب جوازات السفر المركزي أول يوم، وسعيه المسعور للحصول على عين.

«بالمناسبة، مراد أغا، هل تعرف إن كان أحد معارف الدكتور أسكارنيا قد حصل على ما يحتاج إليه؟» سألته، وأشرت خلسة إلى عيني.

«إن قلب الدكتور مفعم بالطيبة. وإذا كان بإمكانه أن يساعد أحداً فإنه يذهب في سبيل ذلك إلى حدّ المخاطرة بحياته. أنا أعرف عمّا تتحدّثين» -هنا غمزني قليلاً - «الحمد لله أن الرجل لم يعد خالي الوفاض».

«نرجو أن يتمكن من حلّ مشكلة السيدة التي تحدثت معها منذ قليل أيضاً»، قاطعت خالتي.

«إن شاء الله»، أضاف السيد إسكندري قبل أن يُخرج من جيبه قصاصة مطوية أربع طيات (نفس الورقة القديمة، المجعدة). وطلب من مراد أن يدوّن سلسلة من الأرقام غير المحتملة.

«إنه آخر رقم هاتف أعطانا إياه ابني. أرجو أن تتمكن من إيجاده. ما رأيك؟»

«ماذا تأمل؟» سأله هاشم، «أن خطاً قُطع منذ عشر سنوات يجب أن يعاد وصله بأعجوبة فقط لأن مراد أغا سيفعل ذلك؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«لا بابا، لا أبداً، لا أبداً»، أجاب السيد إسكندري الذي كانت عيناه مدرّبتين على هذه القصاصة القديمة المهترئة، «لكن، بالإضافة إلى ذلك، ماذا عندي لأعطيه لهما؟»

سجل مراد الأرقام في هاتفه الخليوي، وقال: «سأبحث عنه بعينين هاتين. سيكون ذلك مصدر متعة كبيرة بالنسبة لي. سيد إسكندري. أعدك. لكن قبل ذلك، يجب أن ترسل لنا نهال خانم شهادات الإقامة، وإلّا فكيف ستتمكن من الوصول إلى السويد؟»

فجأة، ظهرت نرجس في غرفة الجلوس. جميع المشرفين على البناية يعرفونها، بل حتى مساعديهم، لذلك يمكنها أن تصعد إلى الطابق العلوي فوراً دون الحاجة إلى استخدام الهاتف المرئي. وقد جلبت معها علبة من الأجاص المجفّف الإيراني لزوجي الذي يحبّه كثيراً. شكرتها وعرّفتها على حسن، الشخص الوحيد الذي لا تعرفه.

أراد السيد إسكندري أن يغادر لكن نرجس أوقفته وقالت له بغتة: «انتظر قليلاً، فأنا أبحث عن شقّة مساحتها حوالي مئتي متر مربّع لإحدى صديقاتي. إذا صادف وعثرت على شقّة، فإنك ستحصل على شيريني لذيذة، قالب حلوى».

إن سحر قالب الحلوى والعمولة جعلا السيد إسكندري يعود ويجلس على الفور، وجلست نرجس بجانبه على الأريكة التي صمّمها صديقي مهندس الديكور - نفس المصمم الذي حاول البارحة إقناعي بشراء يدين ميتتين بارزتين من موقع مدمّر.

عاد هاشم يحمل مزيداً من القهوة وحلوى اللوز.

«يجب أن تجربي هذه»، قلت لنرجس، «إنها حلوى كردية خاصة أحضرها السيد إسكندري».

إن نرجس لا ترفض أي طعام يُقدّم لها. وإذا صادف وأن رافقتها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في رحلة بسيارتها فلا تستطيع أن تمضي أكثر من نصف ساعة من دون أن تقدم لي بعض حبات اليوسفي أو الخيار أو موزة، أو لوز ملبّس بالسكر، أو لوح شكولاتة، بل حتى قليلاً من الشاي. إن السفر بالسيارة بالنسبة لها، هو أولاً وأخيراً فرصة لتقدم لنفسها - وللآخرين - شيئاً من المأكولات. كما أن الجشع يتملكها إلى حد أنها كسرت ذراعها ذات يوم عندما كانت تحاول أن تقطف خلسة بعض حبات من الخوخ من حديقة جارتها.

بلا تردّد للحظة واحدة، تناولت قطعة من حلوى اللوز، ذاقتها، وسألت السيد إسكندري مباشرة من أين يمكنها أن تشتري مثلها.

«إنها ليست متوفرة في أي مكان. سيكون من دواعي سروري أن أقدم علبة لك»، أجابها السيد إسكندري بسرعة، غير ناسٍ الشقّة التي سيبحث عنها والعمولة المحتملة التي سيتقاضاها.

ما إن انهت نرجس تناول قطعة الحلوى حتى مالت فجأة نحو الكرسي الذي يجلس عليه السيد إسكندري. ولامست بأصابعها جديلة القماش، وأزاحت بلطف ساق مشرف البناية جانباً الذي راح يراقب كلّ حركة تقوم بها بدهشة شديدة.

«مراد آغا»، التفتت إلى المصور وقالت بوقاحة: «بماذا لصقت هذه الجديلة؟ أظن أنك لصقتها بالبصاق».

توجهت كلّ العيون إلى كرسي السيد إسكندري الذي نهض واقفاً، وانحنى بقامته الطويلة ليتابع مسألة الجديلة بجانبه. كنت أعرف أنه لن يبدي رأيه بها أنه وقع في حيرة من أمره: فمن ناحية، سيبحث المصوران عن ابنه في السويد، ومن ناحية أخرى، ربما كانت العمولة التي سيحصل عليها من نرجس كبيرة. لقد وقع بين نارين. فأيّ ردّ منه سيكون خطيراً، بل ضاراً.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في تلك اللحظة بالذات، دخل إلى الغرفة شخص لم أكن أتوقّع قدومه، وهو السيد Upgrade شخصياً، تسبقه رائحة كولونيا نفاذة. وقد جاء لإزالة الكابلات التي تصل جهاز التلفاز لديّ بالصحن اللاقط - الذي أخفاه تحت أصص القرابين الدينية على سطح المرأة البطلة «التي تخشى الله»، لكنها لا تخشى أحداً والتي تقيم في الطابق التاسع عشر.

حيّا المهندس ضيوفي، وشمّ رائحة القهوة، ففرك يديه وقال: «إن إنزال الصحن اللاقط في هذه الظروف ليس عملاً حقاً، إنه. . .»

«ترف»، أكمل مراد الجملة عنه.

تقدم السيد سابيتي الذي لم يعجبه تدخّل المصور، واقترب من الكرسي محطّ انتباه الجميع.

«المعذرة يا سيدتي»، قال مخاطباً خالتي، «لو كنتِ قد خصصتِ وقتاً أقل بقليل من أجل زوجك ووقتاً أكثر بقليل من أجل نهال خانم، لما» - وأمسك الجديلة وشدّها بسهولة كبيرة- «حدث شيء كهذا».

نهض مراد بخفة وتوجّه إلى السيد سابيتي. خشيت أن يحدث الأسوأ: فقد يواجه الرجلان بعضهما بسهولة، هنا، في غرفة جلوسي، قبل سفري بيوم واحد.

لكن خالتي تدخلت بسرعة.

«وما دخلك أنت بذلك؟» سألته، رافعة صوتها، «على حد علمي، لا أحد منكم يعمل في التنجيد! لذلك اجلس واشرب فنجان قهوتك، واترك المحترفين يتعاملون بذلك»، ثمّ نادت بصوت عال، «موهتارام خانم، أحضري مزيداً من القهوة من فضلك».

سأل السيد إسكندري الذي كان لا يزال واقفاً، السيد سابيتي، «قبل أن تزيل الكابلات هل يمكنك أن تبرمج لي محطة الإذاعة المخصصة للإيرانيين في السويد؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان هاشم قد عاد للتو وقد أحضر الشاي، لا القهوة. سمع الكلمات الأخيرة تلك، وقال: «إي بابا، لا يزال السيد إسكندري في السويد. أخي، انس السويد، سلّم أمرك لله. عد إلى إيران، صدقني، ارجع».

أطرق السيد إسكندري برأسه وطوى بصمت شديد قصاصة الورق القديمة المجعدة بأرقامها العشوائية، الدليل الوحيد الذي يثبت بأنه كان لديه ابن ذات يوم.

«تعال، تعال معي إلى غرفة المكتبة» قال له السيد سابيتي، «سأفعل كلّ ما تشاء. لكن قبل ذلك، أريد أن أسأل هذا المصور: كيف حدث أن تأتي إلى هنا لإحضار الكراسي، وبعد يومين في استوديو التصوير المفترض ذاك إك. . لا أعرف ماذا، تطرد الزبائن وتعرض المساعدة على السيدة. .» هنا نظر إليّ وأضاف، «للعثور على دكتور نسيت اسمه؟ مممم؟ كيف ذلك؟»

بدأت أتساءل هل سيتحوّل عصر اليوم الذي خصصته للوداع بهدوء، إلى مشاجرات وملاسنات بين الجميع.

بعد أن شعر بالتحدي وبدأت عروق رقبته تنتفخ غضباً، ردّ مراد على المهندس، وقال: «كانت تساورني بعض الشكوك حولك، لكني أستطيع الآن رؤية من أنت حقاً. ينبغي أن تكون نهال خانم أكثر حذراً قبل أن تفتح الباب لمن هبّ ودبّ».

«لمن هبّ ودبّ؟» صاح السيد سابيتي.

«نعم، لمن هبّ ودبّ. أي شخص كان - مخبر، جاسوس».

في محاولة مني للتخفيف من حدة التوتّر الذي أخذ يتصاعد بسرعة بين الرجلين، ضحكتُ ضحكة خفيفة، وقلت: «جاسوس؟»

«نعم، جاسوس»، أجاب مراد، «تماماً! هل يجب أن يكون للجاسوس ذيل وقرون حتى يمكن تمييزه؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

واصلت الضحك مع أنني لم أحبّ ما يجري على الإطلاق. تذكرت زوج خالتي الذي يرى اليد التدميرية القويّة والشاملة للدبلوماسية الإنكليزية في كل مكان، وسألت: «لحساب أي جهة برأيك يعمل السيد سابيتي؟ ربما لصالح الإنكليز؟»

«لا أجرؤ على المجازفة أكثر من ذلك في هذا الصدد»، تابع مراد مستخدماً عبارات دبلوماسية خاصة، «لكني سأسمح لنفسي أن أقول إن عملية برمجة القنوات هذه التي جعلها هذا الرجل المحترم العزيز اختصاصاً له، يمكن أن يقوم بها طفل في الحادية عشرة من عمره، إلا إذا كان يستخدمها كغطاء لنشاطات أخرى».

عندها هبّ الدكتور بشيري لمساعدة المهندس لأنه كان قد برمج له مجموعة كاملة من قنوات الرياضة له قبل أن تسحب جميع الأطباق اللاقطة، وقال:

«مراد آغا، مع أني أمتلك معرفة جيدة بأجهزة الكمبيوتر، فإني أعترف بأنني لا أعرف كيف يمكن القيام برمجة القنوات. إنها ليست لعبة أطفال كما تظن، أؤكد لك ذلك».

عندما شعرت بهبوط ضغط دمي، تناولت قطعتين من حلوى اللوز، الواحدة تلو الأخرى بسرعة، وجريت إلى المطبخ لأشرب كأساً كبيرة من الماء الممزوج بالسكّر. رأيت موهتارام تغلّف علب البن في أكياس بلاستيكية. فهي تعرف أنني قبل أن أغادر، فإني لا أعطيها كلّ الطعام المتبقي فحسب، بل كذلك كلّ مواد التجميل، وبطاقات الهاتف، والزهور المجفّفة، وأقراص الدي في دي التي كنت قد سجلتها. ولا يعرف أحد غيري السبب الذي جعلها تقدم الشاي بدلاً من القهوة. فمع اقتراب موعد سفري، تبدأ تفكر فعلياً بأن كلّ هذه الأشياء ملك لها، ولا تريد أن توزع البن الذي أصبح ملكاً لها إلى كلّ من هبّ ودبّ.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عندما شربت الماء الممزوج بالسكّر، رأت موهتارام شدة انزعاجي، فقالت: «اعطني دقيقة واحدة فقط يا مدام لأخلّصك منهم جميعاً».

بتلويحة من يدي أثنيتها عن ذلك (هذا كلّ ما أحتاج إليه) وعدت إلى غرفة الجلوس. كان السيد إسكندري لا يزال واقفاً على قدميه، لا يزال يأمل في برمجة محطة الإذاعة على جهاز مذياعه الموجّه إلى المهاجرين الإيرانيين في السويد. كانت نرجس جالسة على الأريكة، لا تزال تضايق مراد: «لم تجب على سؤالي بعد. بماذا لصقت أربطة القماش المجدولة تلك؟»

برصانة وتواضع أكثر من زميله، أجاب حسن بصوت منخفض، «لم أتشرف بمعرفتك بعد يا مدام - (هذا أمر نادر تماماً في طهران) - لكن يمكنني أن أؤكد لك بأن زوجتي وزوجته اللتين تعملان في الخياطة والتنجيد، تستعملان أفضل المنتجات المتوفرة في المدينة، والأكثر من ذلك، لديهما عقد مع مضيفة تعمل في شركة الطيران الإيرانية، تزودهما بموجبه بخيوط ألمانية كلّما عادت من فرانكفورت».

هزّ الدكتور بشيري رأسه بأنه يعرف ذلك وأضاف، «لا ينكر أحد أن المنتجات الألمانية هي الأفضل هناك، وخاصة الأدوات المنزلية والسيارات». ثمّ، لعله كان يفكّر بإمكانية إطلاق أديداس في إيران، تابع قائلاً: «ومع ذلك، لو كنت مكانك، لنصحت هذين المنجّدين أن يستوردا الخيط من فرنسا. نهال خانم، أرجو أن تصححيني إن كنت مخطأً، لكن مواطني زوجك ليسوا قادة العالم في الأزياء ومستحضرات التجميل فحسب، بل إنهم كذلك في الملابس الرياضية أيضاً، ما رأيك؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

غمزني، وأشار إلى الوثيقة الملقاة على الطاولة، ملحق دراسة السوق التي أحضرها.

«لم نأتِ إلى هنا لنقارن بين المرسيدس والبيجو»، قاطعته نرجس، «لكن يجب أن نحلّ مستقبل هذه الجديلة الرديئة».

لكن السيد سابيتي واصل كلامه بشكل لاذع تقريباً، «لم أكن أدرك أن هذين المصورين يمارسان أيضاً فنّ التنجيد الرهيف».

أعرف كم يحبّ قهوة. ناديت موهتارام بشيء من الحزم وقلت لها: «موهتارام خانم، أحضري قهوة للسيد سابيتي».

فدخلت على الفور، وقالت: «أظن أنه لم يبق لدينا بن. .»، ثم أضافت، «أبعد الله عنك العين الشرّيرة يا مدام، فقد حسبت الكمية التي تحتاجين إليها جيّداً، وألقيت بآخر علبة في صندوق القمامة».

«انتهت!» صاح هاشم باللغة الإنكليزية، مصفّقاً بيديه.

نظرت إليه خالتي بانزعاج: فهي تكره أن ينثر كلمات إنكليزية في كلّ موضوع. بوجه يشي بالذنب وبكتفين متهدلتين، استدار هاشم وعاد إلى المطبخ.

«كلما أتيت إلى هنا»، عاد السيد سابيتي يقول، مخاطباً الجميع ماعدا المصورين اللذين أصرّ على تجاهلهما، «تصعد رائحة القهوة إلى رأسي مباشرة إلى حدّ أني أنسى كم أن عملي رتيب. لم يخطر ببالي قط أن ضعفي تجاه القهوة سيعرضّني لمثل هذا الوابل من الإهانات هنا».

اعترتني الرغبة في أن أدخل إلى غرفة نوم موهتارام وأفتح حقائبها المليئة بمزيلات الروائح الفارغة تقريباً، ومجمّلات الرموش التي جفّت، وفراشي الشعر القديمة ذات الرؤوس الخشنة، وألواح

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الشوكولاتة الذائبة، وعلب البن نصف الفارغة، وأسحب ذلك الشيء الذي يحبّه السيد Upgrade وأصنع له بنفسي فنجان قهوة. لكنّي لم أفعل شيئاً من ذلك، بل بقيت جالسة على الأريكة الطويلة التي صممها صديقي مهندس الديكور - الذي كان مفتوناً بأيدي النساء الميتات -تحاشياً لإزعاج موهتارام عشية سفري.

«إن كنت تحبّ القهوة إلى هذه الدرجة، فلماذا لا تنتظر حتى تعود إلى بيتك بهدوء وسلام وتصنع لنفسك قليلاً من القهوة الفرنسية الجيدة التي أعطتك إياها السيدة؟» اقترح مراد على السيد سابيتي.

«لأنني أنتظر احتساء القهوة التي أعطتك إياها المدام»، أجاب السيد سابيتي على الفور.

«بالإذن من المرسيدس والبيجو وقهوة أرابيكا الصافية»، دخلت نرجس التي لم تستسلم بعد فجأة على الخط، «أريد أن ألفت انتباه الجميع إلى حالة هذه الجديلة».

«سابيتي، سارفارام، سيدي، بيتي بيتك»، قال مراد، غير مبال لتدخّل نرجس، «ستكون على الرحب والسعة دائماً هناك».

أصبحت لفكرة الكرم التي تحظى بتقدير كبير عند الإيرانيين، اليد العليا في التنافس السخيف بين الرجلين الذي جاء إلى هذه الشقّة قبل ستة أيام فقط.

«أنت معلّم، سيد مراد»، أجاب السيد سابيتي.

«بمناسبة الاحتفال بهذه المصالحة، لا تنس أن تدعونا أيضاً»، قالت خالتي التي تريد دائماً أن تتدخل وتكون طرفاً في أيّ مواجهة.

«لا تدعو المدام» قال الدكتور بشيري مقاطعاً، لأنه يعرف بأنّها لن تذهب إلى هذه المصالحة في جميع الأحوال، لأنها لم تعد تذهب إلى أي مكان بعد أن أصيب زوجها بالشلل، «إنها لن تلبي دعوتك. لذلك ادعني بدلاً منها».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«جميعكم ضيوفنا»، قال مراد، «لكن ليس على القهوة فقط، بل على الكباب أيضاً. إن كباب حسن لا يعلى عليه».

أشار السيد سابيتي إلى المشرف على البناية لأن يدخل معه إلى غرفة المكتبة لبرمجة محطة الإذاعة السويدية الإيرانية. في طريقه ربّت بشكل ودّي على كتفيّ مراد وحسن، الذي كان أحدهما واقفاً، والآخر جالساً.

ابتسم المصوران. يبدو أن المشكلة قد حلّت. أصبح بإمكاني أن أتنفّس الصعداء الآن.

رنّ جرس الهاتف المرئي، وأعلن مساعد السيد إسكندري من مدخل البناية أن دافار قد وصل وأنه منزعج لأن المشرف الرئيسي ليس هناك. فقالت له موهتارام إنه مشغول بالاستماع إلى الإذاعة السويدية، واستطعنا سماع صوت دهشة مساعد المشرف حتى غرفة الجلوس.

«الإذاعة السويدية؟» صاح مندهشاً.

«نعم، الإذاعة السويدية»، أجابت موهتارام، «وعندي أشياء أهم يجب أن أفعلها. فالسيدة ستسافر غداً ويبدو أنني سأمضي كلّ وقتي وأنا أخبر كلّ شخص ماذا يجري هنا».

يبدو أنها أغلقت الهاتف المرئي لأننا لم نعد نسمع صوت المساعد. ظهر دافار وهو يحمل باقة من نباتات الفاونيا. توجّهت موهتارام لاستقباله مشرقة الوجه، لأن هذه الزهور ستضيء مساء الغد مطبخها المفتوح على الطريقة الأمريكية.

لمت دافار لأن الزهور غالية جداً في طهران.

«إن إنفاق كلّ هذا المبلغ مع أنك تعرف أنني لن أستمتع بها إلّا لليلة واحدة تبذير للنقود».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

جلس دون أن يقول شيئاً. هرعت إلى المطبخ لأمنع موهتارام من إعداد القهوة: لأن مقام صديقي المثقف أعلى بكثير من مقام مهندس متواضع، كما أن ثمن أزهار الفاونيا يبرّر تقديم القهوة للشخص التي رفضت أن تقدمها للآخرين.

هكذا فكّرت. كانت موهتارام تصبّ الماء في ركوة القهوة.

فجأة تناهى إليّ صوت كيارا وهي تنوح بالفرنسية. كانت تكلّم السيد سابيتي الذي قطع قنوات الأطفال ليجلب محطة الإذاعة السويدية.

خرجتُ من المطبخ، وفي الممر ارتطمت بالسيد سابيتي الذي كانت ابنتي تلحقه ويتبعهما السيد إسكندري.

«مدام، يجب أن أذهب» قال الأخير، محنياً قامته الطويلة، «يجب أن أودعكم الآن لأنني تأخرت كثيراً عن عملي».

كان من الواضح أن الانزعاج البادي في صوت مساعده قد وصل إلى أذنيه. عاد المشرف والمهندس أخيراً إلى غرفة الجلوس ليودّعا بعضهما. انتهزت خالتي الفرصة لمغادرتهما الوشيكة، وأعلنت أن الوقت قد حان ليغادر الجميع. فمنذ أن كانت صبيّة لم تكن تتأخر عن البيت بعد الساعة الخامسة مساء.

«حتى أنني لا أضطر إلى النظر إلى ساعتي»، كانت تقول غالباً، «لكنّي أستطيع أن أعرف بأن الساعة قد تجاوزت الخامسة من إحساس بالقلق ينتابني في أعلى معدتي».

نظرت إلى ساعة رسغي: إنها السادسة والنصف - يا له من عذاب بالنسبة لها! بدافع العادات والمجاملة، دعوت ضيوفي للبقاء مدة أطول، لكنهم نهضوا جميعاً. انحنت خالتي إلى دافار ودعته إلى العشاء. تردّد لكني حثّته على القبول، وذكّرته بأنه لم يأت إلّا منذ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

فترة قصيرة، وقلت بما أنه ليس أمامي خيار إلا أن أمضي المساء مع زوج خالتي، سيكون من الجيد أن يأتي أيضاً. فقبل دافار الدعوة. دخلت نرجس التي تعتبر فرداً من العائلة، والتي ستشاركنا العشاء، إلى غرفة الطعام واقتلعت القماش المجدول من كرسيين آخرين.

«ألا تخجل من نفسك وأنت تغادر وتعرف تماماً أنك لم تؤد هذا العمل بشكل جيد؟» صاحت، «كيف يمكن أن تفعل ذلك؟»

تبادل مراد وحسن نظرات بينهما.

فأجابها حسن، «نرجس خانم، ماذا تقولين، كيف يمكنك أن تتخيلي أننا يمكن أن نغادر من دون أن نأخذ الكراسي؟»

«إذا كان الأمر كذلك»، قاطع السيد سابيتي وقال: «دعوني أصعد إلى الطابق التاسع عشر لأنزل الصحن اللاقط بسرعة لأعود وأساعدكما في إنزال الكراسي إلى الطابق الأرضي».

عرض الدكتور بشيري والسيد إسكندري ودافار أيضاً تقديم المساعدة لإنزال الكراسي الاثني عشر. الجميع سيفعلون ذلك. ودّعنا السيد إسكندري مرة أخرى. قبّلته، وهو شيء لا يسمح به تماماً عند المدخل، وانتهزت الفرصة لأطمئنه على ابنه، وقلت: «يمكنك أن تعتمد على مراد آغا وحسن آغا. إنهما رجلان يحترمان كلمتهما. إني أعرف ذلك».

جاء مراد.

وسألني، «لديّ طلب أخير واحد: هل يمكنني أن أرى جواز سفرك؟»

ذهبت وأحضرته وأريته إياه. فتحه باحترام شديد.

«صورة رائعة!» صاح، «الآن كلّما فتحته بعد أن تهربي من هذا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

البلد وتجوبي أنحاء العالم يمكنك أن تتذكري صديقيك المصورين اللذين لا يزالان مسجونين هنا».

«أعدكما بأنّني سأذهب إلى مكاتب المجلس البلدي حال وصولي لاستخراج شهادة إقامة لكما»، قلت أطمئنه.

«إن شاء الله»، قال السيد سابيتي الذي لم يصعد بعد إلى الطابق التاسع عشر، «نهال خانم، يبدو أنني لا أستطيع أن أتحرّك لأنني أكره الوداع. لكنني أريد أن أضيف فقط أنك كلما انتقلت من محطة السي إن إن إلى محطة البي بي سي بواسطة آرتي وبيوي دون أن تظهر خطوط على الصورة، من دون أن يضطر مهندس ما لأن يتسلل خلسة من جانب البناية كل يومين، وينتهي به الأمر بأن ينثني داخل طنجرة رزّ قديمة في الطابق العلوي لعمل وصلة، تذكري صديقك الذي يحبّ القهوة».

وعدته بذلك أيضاً، ثمّ دخلت إلى غرفة نوم موهتارام، وفتحت إحدى حقائبها لا على التعيين وأخرجت منها علبة بن وأعطيتها للسيد سابيتي.

قلت له: «لقد وجدت موهتارام خانم آخر علبة بن. من الواضح أنها مسجلة باسمك».

رفض أن يأخذها، ربما لأنه خشي حدوث مشكلة أخرى بسببها، لكن الجميع شجّعوه، حتى موهتارام التي بدا أنها أدركت أن تصرفها لم يكن لائقاً. أخذ العلبة، والفرحة تغمره ووضعها في حقيبته.

«السيد سابيتي»، قال حسن، «عندما تأتي لمشاركتنا في تناول الطعام، أرجو أن لا تنسى حاسوبك. فهناك باقتان أو ثلاث باقات

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من البرامج يبدو أننا لم نستطع برمجتها بالرغم من المحاولات التي بذلناها».

«سأرى الأمر بنفسي، سيكون من دواعي سروري أن أفعل ذلك».

أعطاهما رقم هاتفه الخليوي وأشار إلى أنّه سجّل رقم مراد عندما ذهب إلى أستوديو إكباتانا معي للبحث عن داريوش.

صافحني الدكتور بشيري، وهذا أيضاً شيء غير مسموح به في الطابق الأرضي، وأشار إلى ملحق دراسة السوق وقال: «أصبح كلّ شيء بين يديك».

«يمكنك الاعتماد عليّ، سأعطي المجموعة كلها إلى الشخص المعني حالما أصل إلى هناك».

«شكرا لتقديرك».

رمقه السيد سابيتي والمصوران بارتياب. أيّ تفاهم سريّ يكمن وراء هذا التقدير؟ إني سعيدة لأنني سأغادر: فلا أريد أن أكون شاهدة لا حول لي ولا قوة على العداوات المستترة بين الرجال الأربعة مرة أخرى.

دخلت إلى غرفة نومي لأضع لمسات على مكياجي. عندما عدت كان جميع من في غرفة الجلوس قد ذهبوا ماعدا موهتارام وهاشم اللذين كانا مشغولين في تنظيف فناجين القهوة. قرّرت ألّا أعطي موهتارام تفسيراً لقيامي بفتح حقيبتها وأخذ علبة البن. «لا تشتكي أبداً، لا توضحي أبداً»، كما تقول ملكة إنكلترا.

نزلت إلى الطابق الأرضي بسرعة ووجدت دافار والدكتور بشيري والسيد إسكندري والسيد سابيتي والمصورين يسيرون بتثاقل في

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الشارع متجهين إلى أستوديو إكباتانا حاملين الكراسي. رحت أراقب أنا وخالتي ونرجس وابنتي قافلة الرجال وهم يدخلون إلى الأستوديو ثم يخرجون وأياديهم فارغة.

دنا حسن والسيد سابيتي مني، وبمجازفة كبيرة صافحني، وربتّ على ظهره بلطف. مكتبة الرمحي أحمد

«لا تنسي...»، قال حسن.

«لا تنسي. .»، أضاف السيد سابيتي.

«لا كلما فتحت جواز سفري، وكلما حولت القنوات سأتذكركما».

«إي بابا»، قال الدكتور بشيري القادم نحونا، «لقد فعلوا كل ما بوسعهم لاستنزاف طاقتها بعد ظهر اليوم، والآن سيجعلونها تبكي».

«هيا تعالي، اصعدي إلى سيارتي، زوج خالتك بانتظارنا»، همست ترجس في أذني.

«لا، لا»، تدخّل دافار، «ستأتي معي».

صعدت خالتي إلى سيارة نرجس وأمأت إليّ بأن أضع أحمر الشفاه.

«اذهبي مع دافار لكن ضعي قليلاً من أحمر الشفاه. إذا استطعت أن تري وجهك».

سمعت السيد سابيتي يخبر المشرف على البناية بأنه سيأتي غداً لإنزال الصحن اللاقط عندما أذهب.

في سيارة دافار، طلبت كيارا أن تستمع إلى أغنية «آمور آمور» بالإسبانية. لكن لم يكن لدى دافار إلا موسيقى فرنسية خفيفة. وصلنا بسرعة، ولم تكن عملية إقفال السيارة تشبه العملية التي تقوم بها نرجس في سيارتها. صعدنا إلى شقة خالتي حيث رحبت بنا سميرة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ومسيرات وحميد والحزن باد في عيونهم. كانت خالتي جالسة على حافة سرير زوج خالتي، تحكي له عما جرى بعد الظهر بأدق التفاصيل. حذّرني زوج خالتي من تقديم شهادات إقامة لغرباء لا أعرفهم، ووافق دافار على ذلك. لم أستطع أرى كيف يمكن أن يكون مراد عضواً في شبكة إرهابية، لكني لذات بالصمت، وهززت رأسي موافقة على تحذيرهما.

سألت دافار السؤال الأبدي: «ماذا كانت آخر جملة ترجمتها اليوم؟»

اقتبسَ من الذاكرة: «جلستُ في أعماق أريكة مريحة ذات نوابض تحمل ندوباً مثل جندي قديم، ترفع ذراعيها الممزقتين حتى يراهما الجميع، وتُظهر مرهماً قديماً قدم الدهر ومرهماً للشعر من رؤوس الأصدقاء العالقة على ذراعيها الخلفيين. الوفرة والفقر يلتقيان بسذاجة على السرير، على الجدران، في كل مكان».

ألقى نظرة على سرير زوج خالتي، وعلى جدران الشقة والقوابس الكهربائية التي علقت عليها بصمات وسخة.

وأضاف، «في الحقيقة، لم أستطع أن أترجم الكثير اليوم. لقد أمضيت معظم وقتي في البحث إن كان كتب ديلوز قد كتب أي شيء عن بلزاك».

«و؟»

«أراد أن يكتب مع فيليكس غوتازي، بعد أن كتبا عن كافكا، لكنهما ماتا قبل أن يفعلا ذلك».

«إذاً لم يكتب شيئاً عن بلزاك».

«بضع ملاحظات فقط لم أتمكن حتى الآن من الحصول عليها».

دخلت موهتارام وهاشم وقدما العشاء. اقترحت خالتي أن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تمضي الليلة في شقتي. هذا ما اعتادت أن تفعله في الماضي، في الليلة التي تسبق سفري أنا وأمي، ثم عندما بدأت أسافر وحدي. قلت لها إن موهتارام متحمسة لتوصيلي إلى المطار. فهي تعرف، كما نعرف كلنا، أن موهتارام تحب أن تذهب إلى المطار أكثر من أي شيء آخر، وأن حرمانها من ذلك سيكون أسوأ بكثير من أخذ إحدى علب البن منها.

عرض دافار أن يوصلني إلى المطار لكني شرحت له بأنه توجد لدينا أنا وهاشم وموهتارام استراتيجية لا تشوبها شائبة: فبينما أسجّل الحقائب، وأنهي جميع إجراءات التفتيش، تقوم موهتارام بإلهاء كيارا في صالة المطار، ويركن هاشم السيارة في موقف السيارات. ثمّ أعود لآخذ كيارا، وأقبّل موهتارام وأصافح هاشم (في المطار، يمكننا حتى تقبيل الرجال - يسمح بذلك هناك) قبل أن نغادر.

اقتنع دافار: فهو لن يأتي. وقبل أن أغادر بيت خالتي جلست عند طرف سرير زوج خالتي وأمضيت وقتاً طويلاً في تدليك ساقيه بصمت. تصوّرته في شبابه، رشيقاً يرتدي مايوه السباحة. يرحب بالأصدقاء على طرف حوض مسبحهم الكبير. أراه واقفاً يرتدي سروالاً من ماركة «هيرميس» ينتعل حذاء من ماركة «جون لوب». عندما التفتُ لأقبّله، كان وجهه مبلّلاً بالدموع. إني متأكدة من أنه كان يتصوّر نفس الأشياء. نهضت، قبّلت خالتي وجعلتها تعدني بأن تأتي مع زوجها إلى باريس لحضور عيد ميلاد كيارا. وبالرغم من أنني أعرف أن هذا الأمر مستحيل فإني لا أزال أفعل ذلك، لأن الأمل برؤية أحدنا الآخر يخفف من ألم الفراق. قبّلت سميرة وماسيرات وحميد. كانت كيارا متعبة ورفضت أن تقبّل كلّ واحد. بكى حميد بحرقة، وكذلك خالتي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«كان بإمكانك أن تطلبي من داريوش أن يعمل على إصدار بطاقة الهوية»، قالت نرجس بنبرة انتقاد في المصعد.

«بعدان، بعدان».

قبّلتها هي ودافار - إننا في طابقين تحت الأرض في عمارة خالتي والساعة الحادية عشرة، لذلك لا يحتمل أن نصادف مخبرين. صعدت إلى سيارة هاشم وأنا أحمل كيارا بين ذراعي، وجلست في المقعد الأمامي. منذ بدء الثورة تشجّعنا موهتارام على الجلوس في المقعد الأمامي لكي لا يبدو أن هاشم هو السائق، لكن أمّي التي لم تكن تريد أن يظن أحد أنها زوجة سائق، لذلك لم تكن ترغب أن تفعل ذلك.

عندما وصلنا إلى البيت، فتح السيد إسكندري باب السيارة لي وأخرج قصاصة الورق المجعدة من جيبه. طمأنته مرة أخرى: «بعد ثلاثة أسابيع يمكن أن يحصل المصوران على تأشيرة ويتمكنان من الذهاب إلى السويد».

دخلت إلى غرفتي وغيّرت ملابس كيارا. إنها تريد أن تكون في الطائرة الآن. أغمضت عيني ورحت أفكّر بجميع من قابلتهم وأقمت معهم علاقات قوية، الأشخاص الذين بذلوا كل ما بوسعهم لمساعدتي لكي أستطيع - في نهاية اليوم - أن أغادرهم.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الثّلاثاء

فُتحت بوابة معدنية سوداء ورحنا نسير أنا وزوجي وابنتي في درب تحفّه أشجار زيتون قديمة كثيرة الفروع والأغصان. رجل محليّ أسمر، يعتمر قبعة مكسيكية، يشرح باللغة الإسبانية بأنّها زرعت هناك، بصورة غير قانونية قبل أربعمائة وخمسين سنة. ابتلعتنا خضرة العشب وخضرة أشجار الزيتون على الجانبين. بين حين وآخر، كانت تظهر ثلاث نساء شقراوات شابات ومربية ابنتي. دخلنا كنيسة صغيرة متداعية حيث يضم صندوق زجاجي تمثال المسيح. ويخبرنا السكان المحليّون أن التمثال يكبر سنتيمتراً واحداً كلّ سنة، فيضطرون إلى توسيع القفص الزجاجي. أوقدت ابنتي شمعة وقرعت جرساً.

تشير الساعة المنبّه إلى الساعة الرابعة صباحاً. يجب أن أنهض. سنغادر اليوم. حقيبتي جاهزة ولم يبق عليّ إلّا أن أخفي الكافيار في جورب وأدّسه في حذائي الرياضي القديم. بعد أن فعلت ذلك، أيقظت كيارا وساعدتها على ارتداء ثيابها وسط سيل من الاحتجاجات. كانت موهتارام قد أعدّت طعام الفطور. احتسيت آخر فنجان قهوة لي، لكن كيارا رفضت أن تأكل شيئاً.

أصبحنا جاهزتين للمغادرة. وقفت موهتارام بجانب باب الشقّة تحمل نسخة من القرآن وكأس ماء. سرت أنا وكيارا تحت القرآن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بينما راحت موهتارام تلوّح به في الهواء. ثم قبّلناه وخرجنا. صبّت موهتارام ماء في طريقنا: إن شاء الله تكون رحلتنا سلسة مثل تدفق هذا الماء.

أنزل هاشم حقائبنا إلى الطابق الأرضي، بينما راحت موهتارام، التي تعرف مدى قلقي بسبب الكافيار، تتلو دعاء على الحقيبة الحمراء، الحقيبة التي يوجد فيها الحمل اللذيذ. عندما نزلنا إلى الطابق الأرضي، وجدنا السيد إسكندري مستيقظاً. قبّلني مرة أخرى - لا يوجد أحد في المدخل. ركن هاشم سيارته خارج البناية، وصعدنا إليها. كالعادة، اقترحت موهتارام أن أجلس في المقعد الأمامي. لم أجادلها، مع أن الجلوس في المقعد الخلفي مريح أكثر لي وخاصة أنني أحمل ابنتي في ذراعي. انطلقت السيارة ومررنا من أمام أستوديو إكباتانا حيث لاحظت، في الضوء الخافت، صفاً من كراسيَّ تحتل مساحة صغيرة في الداخل.

«لنأمل ألّا يغيّروا رأيهم»، قالت موهتارام وهاشم بصوت واحد.

لم أقل شيئاً. بعد ثلاث ساعات لن تعود مشكلة الكراسي تشكّل لي أدنى قلق.

وصلنا إلى المطار بسرعة. منذ قيام الثورة بدأت أجد، كما يجد ملايين الناس الآخرين، أن جميع القادمين والمغادرين ينتابهم خوف وقلق لانهائي. فلديّ ذكريات سيئة من السنوات الأولى للنظام الإسلامي: ففي إحدى المرات وضعت في حقيبتي خاتماً لا يتجاوز ثمنه مئة يورو، ووجده موظف الجمارك. وبسبب ذلك الخاتم الصغير لم أضيع رحلتي فقط، بل خضعتُ كذلك إلى محاكمة ثورية فورية.

ويعتبر المطار أيضاً أحد الأماكن التي يمكن أن يلقى القبض فيه

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

على المثقّفين الذين ينادون باللا عنف، بتهمة أنهم «يشكلون تهديداً للأمن القومي». لذلك، قد تجد جدّة مسنّة من الأقاليم لم يكن لها أدنى اهتمام بالسياسة في حياتها، تجد أنها ممنوعة من السفر عندما تصل إلى المطار. وبعد أن تفقد رحلتها - لنقل إلى السويد - فإنها ستجد نفسها تتنقل من هيئة إلى أخرى طوال شهرين كاملين. وقد ينتهي بها الأمر بكل سهولة في مكتب جوازات السفر في يافت أباد وهي تخفي تحت عباءتها دجاجة كعربون شكر للملازم موختاربور لأنه ساعدها في حلّ مشكلتها، كما يحدث عادة، في مسألة تشابه الأسماء.

وضعت أنا وموهتارام وهاشم الخطة التي دأبنا على استخدامها منذ أن أنجبت ابنتي. فقد أخرج هاشم الحقائب من صندوق السيارة، وراح يبحث عن حمّال عجوز (نحيف يخلو فمه من الأسنان) ثم توجّه إلى موقف السيارات. وحملت موهتارام كيارا بين ذراعيها، بينما تجاوزت أنا نقطة التفتيش الأولى المخصصة للنساء. فقد قامت مفتشة واقفة على قدميها بتدقيق تذكرتي، بينما قامت مفتشتان أخريان جالستان بتقييم مدى إسلامية ثيابي. اجتزت المقصورة. انتهت المحنة الأولى، ثم التقيت بالحمّال في منطقة المسافرين. وعدته بمكافأة مجزية إذا جعلني أجتاز نقطة التفتيش البصري الأولى بدون مشاكل. سألني سؤالاً باللغة التركية. لم أعرف ماذا أقول له. للمرة الأولى في حياتي، أسفت لأنني لم أكن من أذربيجان. تمنيت أن يكون أفراد الجمارك والمفتشون والحمالون، وربما جميع العاملين في المطار من مواطني هذه المحافظة الواقعة في شمال غرب إيران على الحدود مع تركيا.

وضع الحمّال العجوز حقائبي على حزام النقل. بدأ قلبي يخفق

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بقوة وهي تمرّ عبر جهاز المراقبة البصرية: هل سيكتشف المفتش (التركي؟) الكافيار؟ دمدم الحمّال له بضع كلمات، كانت في الحقيقة باللغة التركية، ثم التقط حقائبي من الطرف الآخر لحزام النقل. لقد نجوت الآن من المحنة الثانية. وصلت الآن إلى رجل يتمتع بسلطة أن يفتح حقائبي، ولأسباب لا يعلمها إلّا هو فقط، يمنعني من المضي إلى مكتب تدقيق البطاقات. كان يجلس على مقعد، شعره مفروق بطريقة مبالغ فيها إلى الطرف الأيسر، وشأن مدير جمعية المسارح، كان قميصه مزرّراً بإحكام، وذقنه محلوقة بطريقة إسلامية تدعو إلى الدهشة، وقد ترك شعر لحيته ينمو لمدة ثلاثة أيام بالتمام.

بدأت الآن أشعر بالأسف لا لجهلي باللغة التركية، بل لأنني نسيت أن أنسخ دعاء خالتي، وهو دعاء باللغة العربية بهدف فتح الأبواب أمامي وإزالة جميع العقبات التي قد تعترضني. تذكرت بداية الدعاء «*فجعلنا*»(*) لكنني لم أتذكر بقية الدعاء. اكتفيت بتكرار عبارة «*فجعلنا*» عدّة مرات، وتمكنت من اجتياز المحنة الثالثة من دون جذب انتباه هذا الرجل بالملابس المدنية الذي يمسك مصيري بيديه.

توجهت الآن إلى مكتب الخطوط الجوية الإيرانية. لأول مرة، أكاد لا أجد طابوراً طويلاً من الناس. تذكرت المحادثة التي كانت تدور بين أصدقائي في باريس كلما ذكرت لهم مسألة السفر إلى إيران.

«على أيّ شركة ستسافرين؟» قد يسأل أحد الأصدقاء المنفيين.

(*) وجعلنا: تشير الكاتبة إلى الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أيديهِمْ سَدًّا ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فأغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾. وهي تُقرأ طلبًا لتجاوز خطر متوقع.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«لا أعرف حتى الآن، ربما على الخطوط الإيرانية».

«انسِ الخطوط الإيرانية. فهم لم يجدّدوا أسطولهم الجوي منذ ثلاثين سنة»، يقول شاب يبدو أنه مطلّع جيداً على شؤون الطيران.

«أنا أسافر من باريس إلى دبي على خطوط الإمارات وأمضي ليلة في أحد فنادق قصور المدينة، وفي اليوم التالي، أسبح في المسبح في الطابق الخمسين في الفندق، وأمضي نصف ساعة في حوض حمام معدني، ثمّ أسافر على خطوط الإمارات إلى طهران»، يقول رجل أعمال شاب يخيّل إليّ أنه مثقل بالأعمال.

فأردّ قائلة: «إذا كانت حساباتي دقيقة، فإن الرحلة تستغرق يومين لرحلة لا تتجاوز مدتها أربع ساعات ونصف».

«نعم، لكن المرء يضمن أن يصل حياً، حتى لو أمضى أربعاً وعشرين ساعة - وليس يومين كما ادعيت يا نهال»، قال خبير الطيران متوسلاً لي، «يجب أن تتوقّفي عن السفر على الخطوط الإيرانية أيضاً».

«أنت محقّ. أخبرني أخي الذي كان يدير الخطوط الجوية الإيرانية قبل الثورة والذي كان مسؤولاً شخصياً عن شراء كلّ طائراتها، الشيء نفسه».

ظل الصديق المنفي الذي لم يعد يزور إيران، والذي يدعى خبير الطيران ورجل الأعمال (كان كلّ ذلك في باريس) يردد على مسامعي: «ألا تعترفين الآن بأن السفر على الخطوط الإيرانية خطر جداً؟»

«نعم».

«هل تمكنا من إقناعك أخيراً؟»

«نعم».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«إذاً على أي شركة ستسافرين؟» سألني الصديق المنفي لإنهاء الحديث.

«الخطوط الإيرانية» كنت أردد كلّ مرّة، لأنهي المناقشة.

جاء دوري الآن. أعرف أن وزن حقائبي يتجاوز عشرين كيلوغراماً. همس الحمّال بضع كلمات أخرى بالتركية في أذن موظف الخطوط الجوية الإيرانية الذي كان يزن حقائبي. كنت على وشك أن أردد العبارة الوحيدة التي تذكرتها من الدعاء مرة أخرى عندما رأيت الرجل يربط برقة بطاقة «باريس - أورلي» على حقائبي. دقّق جواز سفري وجواز سفر ابنتي، وأعطانا بطاقات الصعود إلى الطائرة متمنياً لنا الوصول بالسلامة. لقد تجاوزت الآن المحنة الرابعة (مادية هذه المرة) بإحساس بالبهجة لاختياري الخطوط الجوية الإيرانية - لا الخطوط الجوية الفرنسية التي تتبع سياسة عدم التسامح وكان ذلك سيتطلب مني أن أدفع ما لا يقل عن مئتي يورو لزيادة الوزن.

عندما سألت الحمّال عن المبلغ الذي أدينه له، طلب عشرين ألف تومان، أي ما يعادل عشرين يورو، وأنا عندي أربع حقائب والتسعيرة الرسمية لكلّ حقيبة عشرين سنتيماً. اعترضت وقلت إني لن أعطيه أكثر من عشرة يوروات، وهو أكثر من كاف. ذكّرني بأنه أنقذ الكافيار وأنه خفض المبلغ الذي سأدفعه من جراء الوزن الزائد إلى لا شيء. هنا هو على حقّ، لكنّي لم أشأ أن أرضخ - لا بدّ أن إقامتي الأخيرة في إيران هذه جعلتني أكثر تصلباً وعناداً.

«خمس عشرة ألف تومان ولا تومان أكثر».

«عشرون ألف تومان ولا تومان أقل».

«ألف وسبع عشرة تومان وهذا كل شيء»، قلت، وأخرجت محفظتي.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«أعيدي محفظتك بسرعة. ادفعي لي عندما تأخذين ابنتك عند الخروج».

استدرت ومشيت وتجاوزت الرجل الجالس على مقعده، والمفتشين المشرفين على حزام النقل، والنساء في مقصورة التفتيش. في الباحة المحتشدة بالناس، التقيت بموهتارام وهاشم وكيارا، ودفعت المبلغ للحمّال. عدّ السبعة عشرة ألف تومان مرتين، ودمدم متذمّراً لكنه غادر في النهاية. قبّلت موهتارام وحتى هاشم، وطلبت منهما أن يعتنيا بخالتي وزوج خالتي.

في اللحظة الأخيرة، قبل أن أعود إلى مقصورة تفتيش النساء، قالت موهتارام: «آخر مرة رأيت فيها المدام» - تقصد أمّي - «كانت عند هذا المدخل. لقد دلّكت قدميها طوال الليل قبل أن تسافر لأن عظامها كانت تؤلمها كثيراً»، ثمّ أسندت موهتارام رأسها على كتفي وأضافت، «لقد ذهبت من هناك، ولم أرها مرة أخرى».

كانت أمّي قد غادرت طهران في نيسان (أبريل) ٢٠٠١، وماتت في باريس في كانون الأول (ديسمبر) من نفس السنة. أحسست بدموع موهتارام تنهمر عليّ، فرحت أمسّد رأسها من وراء غطاء رأسها.

«رحمها الله»، قال هاشم، «وأنا كنت هنا أيضاً».

«وماذا عني؟» سألت كيارا.

«لم تكوني قد ولدت بعد»، قلت لها.

«لقد غادرت المدام لكي تأتي أنتِ. لقد انتظرناك بلهفة»، أضافت موهتارام.

«أين كنت؟»

رفعتها بين ذراعي ووعدتها بأن أشرح لها أين كانت قبل أن تولد.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«عديني بأنّك ستشرحين لي، هل تقسمين بأنك ستفعلين ذلك؟» سألتني.

«أعدك وأقسم».

صافحت هاشم، وقبّلت موهتارام مرة أخرى، وقلت لها إن باستطاعة ابنها حميد أن يأخذ كمبيوتر صديقتي إذا أراد.

«لكنّه لا يعمل» قال هاشم.

«دائماً عنده شيء يقوله عن كلّ شيء»، قالت موهتارام عن زوجها، «ماذا تريد أن تفعل المدام الآن، قبل أن تغادر بساعة؟ هل تريدها أن تصلحه له؟»

لم أقل لهما إنني سأدفع تكاليف تصليحه، لأنني أعرف جيداً أن خالتي التي منحتها وكالة عامة ستفعل ذلك في جميع الأحوال. دخلت إلى مقصورة تفتيش النساء وكيارا بين ذراعي. لم تقم المفتشات الثلاث - المفتشة الواقفة والمفتشتان الجالستان -بتدقيق أيّ شيء. لا بدّ أنهن عرفنني أيضاً، مثل زميلاتهن في مكتب جوازات السفر المركزي. كيف يفعلن ذلك؟ لا أعرف.

وصلت إلى الرجل الجالس على مقعده وحاولت أن أصغّر نفسي لكي لا يراني. كلّمتني كيارا بالفرنسية لكنّي أجبتها بالفارسية: الآن ليس وقت لفت انتباه هذا الرجل. صعدنا إلى الدرج المتحرك، وعندما وصلنا إلى منتصفه في الأعلى طلبت كيارا أن نعود إلى الأسفل. كانت تريد أن تصعد إليه بدون مساعدتي. هذا هو الثمن الذي أدفعه من ارشادات التحفيز قبل الولادة ومدرسة مونتيسوري: إنها تريد أن تفعل كلّ شيء بنفسها. لو تركتها وشأنها فقد تستقل سيارة أجرة بسهولة وتذهب وحدها إلى المطار.

عدت إلى أسفل الدرج. كنت لا أزال أحاول ألّا أثير فضول

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الرجل الجالس على المقعد، الرجل الذي يستطيع في أيّ لحظة، ولأسباب لا يعرفها أحد إلا هو، أن يمنعني من مغادرة البلد (أقصد، يمكن اعتبار الهبوط على الدرج المتحرك الصاعد عملاً هدّاماً).

صعدت كيارا إلى الدرج المتحرك وتبعتها. في أعلى الدرج، وصلنا إلى نقطة تدقيق جوازات السفر. دفعت جواز سفري الثمين الذي سبب لي الكثير من المتاعب تحت النافذة الزجاجية. نقر الضابط بضعة مفاتيح على حاسوبه بينما رحت أفكّر بجميع الأشخاص الذين اعُتقلوا أو الذين أعيدوا في هذه المرحلة بالذات. دقّق صورتي وفجأة، مع أنّني لم أستطع أن أقول لماذا، تذكّرت رائحة السجائر على يدي مراد عندما أمسك بذقني ليعدّل زاوية رأسي ليأخذ صورة جواز السفر.

بعد بضع دقائق، ختم الرجل جواز سفري أخيراً. جاء الآن دور كيارا. حملتها ورفعتها إلى مستوى النافذة. هي أيضاً خضعت لتدقيق الكمبيوتر، وبعد انتظار طويل سمعنا خبطة الختم على جواز سفرها، اجتياز المحنة الخامسة والحاسمة. أمسكت كيارا جواز سفرها، أول جواز سفر تحصل عليه في حياتها، وتشبثت به بقوة: ربما كانت تعرف أنه شيء نادر وثمين.

أثق بها - فليست هذه هي اللحظة المناسبة لبدء رحلة كاملة جديدة للحصول على جواز سفر جديد.

وصلنا إلى نقطة تفتيش الحقائب اليدوية، فرحت أتمتم العبارة الأولى من دعاء فتح الأبواب «*فجعلنا*». أحمل في حقيبتي ساعة رولكس هدية لابنة صديقتي، هدية عيد ميلادها أرسلتها لها جدتها. قبل ثلاثين سنة، كانت نفس المفتشات (لا، بل أمهاتهن) سيوقفنني بتهمة الاحتيال لتهريب ممتلكاتنا الوطنية إلى الخارج. ذهبت حقيبتي

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إلى حزام النقل. بينما كانت إحدى النساء تضغط تحت ذراعي، سألتني ماذا يوجد في العلبة.

فقلت: «ساعة رولكس».

«ساعة أصلية؟» سألتني وهي تربت على فخذي.

فقالت زميلتها التي تدقق على الشاشة: «لو كانت ساعة مزيفة لما وضعتها في مثل هذه العلبة».

وضعت كيارا حقيبة ظهرها على حزام النقل وانتظرت حكم المفتشة. لم يُسمح لها بالعبور فقط، بل حظيت بسماع عبارة «ما شاء الله، حماك الله من العين الشرّيرة!» انتهت المحنة السادسة. وقفنا في طابور للتدقيق النهائي، لتدقيق التأشيرات، يقوم به موظف من الخطوط الجوية الإيرانية. كانت كيارا تحمل جواز سفر فرنسياً فعبرت الاختبار الأخير بسهولة، أما جواز سفري الإيراني الجديد الذي لا توجد فيه أيّ تأشيرات، فإني أجازف بحرماني من حقّي بركوب الطائرة، فأبرزت جواز سفري الفرنسي بهدوء. قارن الموظف جوازيْ السفر وسمح لي أخيراً بأن أمضي وأتوجه إلى الحافلة. المحنة السابعة.

في الحافلة أحصيت المحن السبع التي كان على بطل إيران الأسطوري، رستم أن يواجهها لإنقاذ بلده؛ وأحصيت أيضاً الوديان السبعة التي كان على طيور العطّار أن تتجاوزها أيضاً حتى تصبح هي ذاتها أخيراً، وحتى تصل إلى الطير الملك، سيمورغ: والتي كان من بينها وادي الحبّ، ووادي الرعب، ووادي الموت...

بدأنا نصعد سلّم الطائرة. كيارا أمامي وأنا وراءها. أبرزت للمضيفة بطاقة الصعود إلى الطائرة وفعلتُ الشيء ذاته. وجدنا مقعدينا.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ترتدي المضيفات أوشحة يعلوها غطاء رأس، وسترات طويلة وسراويل فضفاضة. يبدو أن الطائرة تعود حقاً إلى السبعينيات لكنّي سرعان ما أبعدت عن خاطري بقدر مابوسعي أيّ مخاوف بإمكانية حدوث عطل ميكانيكي: طيارو الخطوط الجوية الإيرانية هم الأفضل في العالم. يجب أن ترى هبوطهم مرة واحدة حتى تقتنع تماماً. لماذا يتمتعون بهذه السمعة؟ لا أعرف.

بدأت المضيفات الآن يحصين المسافرين. أُغلقت الأبواب. أخذ الحرّاس الذين يرتدون ملابس مدنية مقاعدهم حول مقصورة الطيار. يمكنك تمييزهم من فرقة شعرهم المعروفة إلى الجهة اليسرى من رؤوسهم، وبالطبع، لأنهم لا يحملون أي حقائب. أعلنت رئيسة طاقم الطائرة، «احتراما لروح مؤسس الجمهورية الإسلامية، الإمام الخميني، واحتراما لأرواح شهدائنا النقية، يودّ الكابتن ماسونو وطاقمه أن يرحبّ بكم على متن الطائرة. تُقدّر فترة رحلتنا المتجهة إلى باريس بخمس ساعات. .»

بعد ذلك بقليل، أقلعت الطائرة وطارت فوق سلسلة جبال طهران. أشرت لابنتي إليها، وكما أفعل دائماً، سألتها عن اسمها.

فقالت: «ألبرز».

نظرتُ إلى جبال ألبرز التي كانت تنتصب فوقي عندما ولدت، ونزعت غطاء رأسي.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هذا الكتاب

ولدتُ ونشأتُ في هذه المدينة، طهران التي أعرفها والتي يوجد لديّ فيها أصدقاء. بعد فترة وجيزة، عليّ أن أعود إلى باريس التي أقيم فيها. بطاقة العودة على الخطوط الجوية الإيرانية جاهزة. يعتريني شيء من القلق، لا شيء مهم حقاً: عليّ أن أجدّد جواز سفري الإيراني.